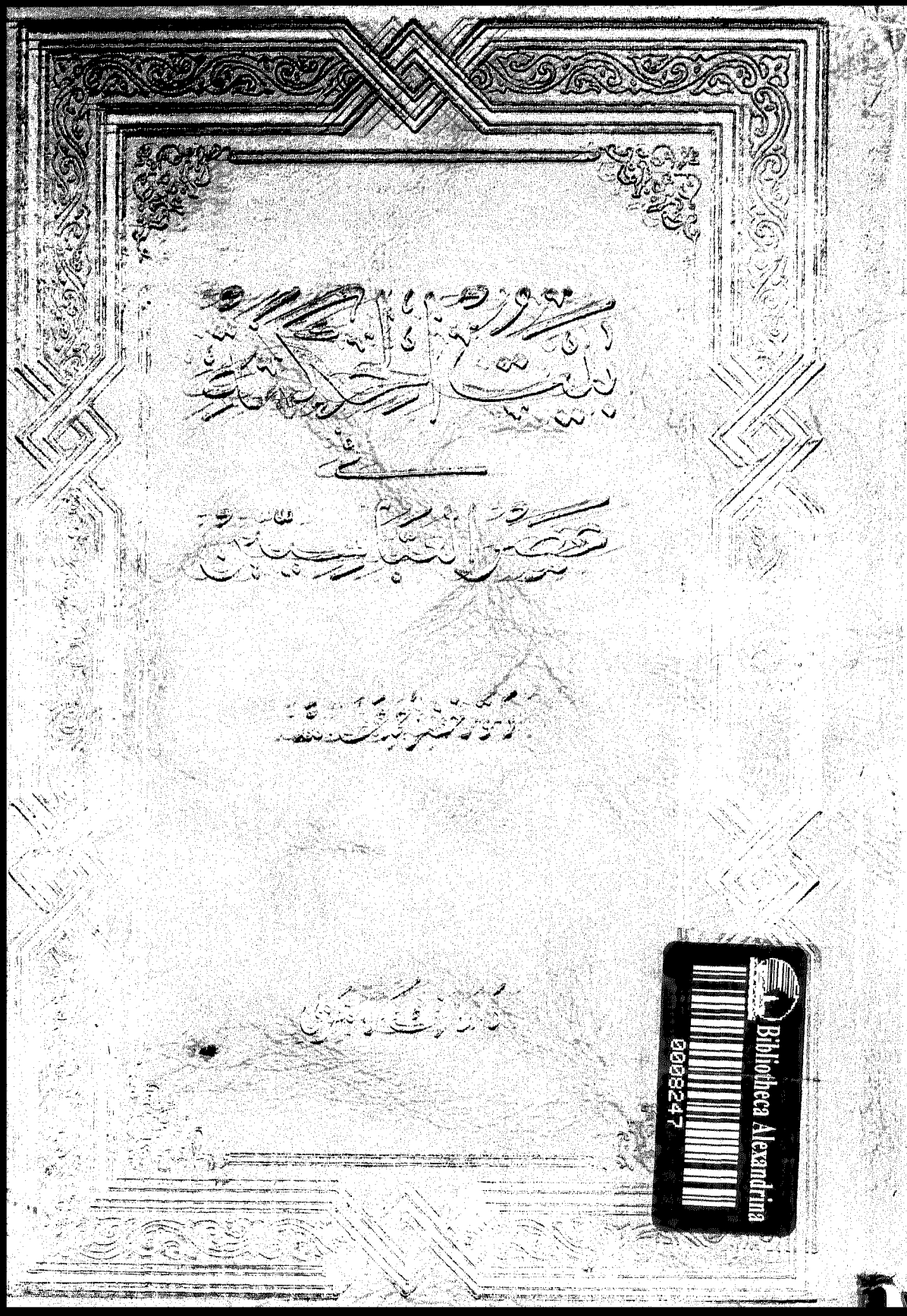

Bibliotheca Alexandrina
0008247

بيت الحكمة في عصر العباسيين

الدكتور خضر احمد عطاالله

كلية التقنية العليا بأبو ظبي
جامعة الامارات العربية المتحدة

الطبعة الأولى

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ ش جواد حسني - القاهرة
ص.ب ١٣٠ ت: ٣٩٢٥٥٢٣

إهداء

إلى والدي ...

إلى أمي ...

إلى أخي الأكبر عبد الباري

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم .

وبعد ..

حينما بدأت فى تسجيل موضوع **رسالتى للدكتوراه** عن « بيت الحكمة فى عصر العباسيين » أدركت صعوبة الموضوع من حيث عدم توفر مصادره ومراجعه ، وأن ذلك يتطلب وقتا وجهدا ، وبحثا وتنقيبا من أجل الوصول الى الحقيقة ، وهذا ما سعيت اليه وبذلت فيه جهدا مضنيا ، فتسلحت بسلاح الايمان والصبر والجهد والمثابرة وشمرت عن ساعد الجد وطوفت أبحث وأنقب ، فوجدت بعضا من هذه المصادر والمراجع فى بعض البلدان منها الباكستان بجامعة البنجاب بلاهور والعراق ومصر وسوريا والمغرب وليبيا ولندن وأمريكا .

ولكن هذا البحث كلفنى من العناء والجهد فى ترك الأهل والولد وكل ذلك يهون فى سبيل اخراج بحث نشعر أننا قدمنا فيه شيئا جديدا خدمة لكل راغب فى التزود بزاد العلم .

أما عن اختيار موضوع « بيت الحكمة فى عصر العباسيين » فلأن المكتبات الاسلامية تعتبر من أهم المؤسسات الثقافية التى يفخر بها الاسلام ، ولها دور بارز فى نشر المعرفة والثقافة بين المسلمين ، وساعدت فى اقبال المسلمين على التعليم بعد ظهور الاسلام ، ويمكنهم تفهم تعاليم هذا الدين ، وترغيب الأمم الأخرى فى الدخول فى الدين الجديد .

كما أن المكتبات المنظمة الغنية بمحتوياتها هى الدعائم الاساسية التى تشـــاد عليها صروح العلم والثقافة والحضارة والمعرفة وهى أيضـــا الينابيع الفياضـــة التى تغـــذى تقـــدم الأمم العلمى والحضارى بمـــاء الحياة والبقاء .

ويقـــاس رقى أمة من الأمم أو تأخرها بكثرة المكتبات وما تلقاه من عناية ورعاية أو ندرتها أو اهمالها ، واعتبارها شيئا ذا أهمية ثانوية .

ولهـــذا فبيت الحكمة باعتبارها اجـــدى المؤسسات العلمية والثقافية قـــد أدت دورا بارزا فى العصر العباسى كمكتبة عظيمة ودار ترجمة وجامعة اسلامية عريقـــة فيها دار اقامة للطلاب والأساتذة يدرس بها الطب وغيره من العلوم الأخرى ، وقـــد ساهمت فى النهضة العلمية والفكرية الاسلامية فى بغـــداد كما كان تأثيرها كبيرا فى القاهرة وقرطبـــة والأندلس وغيرها من البلاد الأخرى .

وقـــد قسمت البحث الى خمسة أبواب ، وقسمت كل باب الى فصول .
البـــاب الأول : يتكون من مقـــدمة وأربعة فصول تحـــدثت فى الفصـــل الأول عن تأسيس بيت الحكمة وأهـــدافها ، وفى الفصـــل الثانى عن انشائها والفصـــل الثالث شمل النظام الادارى بها والفصـــل الرابع عن أثر بيت الحكمة فى المجتمـــع العبـــاسى .

البـــاب الثانى : قسمته أيضا الى أربعة فصـــول ، فيه المقـــدمة . ذكرنا فى الفصـــل الأول تاريخ المدارس الاسلامية وأثر بيت الحكمة فيها .

والفصـــل الثانى : التدريس والمدرسون فى بيت الحكمة ، عملهم ورواتبهم فيها ، والمواد الدراسية التى تدرس فيها .

الفصـــل الثالث : حركة التأليف فى بيت الحكمة من حيث حركة التأليف فيهـــا وتشجيع حركة التأليف على يد الخلفـــاء والوزراء وعمـــل المؤلفين فى بيت الحكمـــة ورواتبهم . والفصل الرابع : تحـــدثت فيه عن المباحثة والمناظرة بين العلماء والخلفاء والوزراء فى بيت الحكمة . ومدى تشجيع الخلفاء للمباحثة والمناظرة فيها ، ورغبـــة الخلفاء والوزراء فى المباحثة والمناظرة فى بيت الحكمة . ومشاركة العلماء والشعراء والأدباء فى المناظرة والمباحثة فيها .

أما الباب الثالث : فيتكون من المقـــدمة وأربعة فصـــول . أشرنا فى الفصـــل

الأول عن بيت الحكمة فى عهد المـأمون ، وحالتها قبل عهد المـأمون ، وعناية واهتمام المـأمون ببيت الحكمة ، وصرف الأموال فى سبيل ازدهار وارتقاء بيت الحكمة .

الفصـل الثانى : بيت الحكمة بعـد عهد المـأمون ، وكيف أنها استمرت فى رحلتها العلمية والأدبية ، ومدى عناية الخلفاء والوزراء بها بعـد المـأمون ، ثم ذكرت الحركة العلمية ونشاطها فى بيت الحكمة بعـد عهد المـأمون .

الفصـل الثالث : تأثير بيت الحكمة كمؤسسة علمية وتعليمية على المدارس الاسلامية ، فبيت الحكمة نمـوذج رائع للمدارس الاسلامية فى النواحى العلميـة والتعليميـة .

وكيف أن المدارس الاسلامية قـد تأثرت بالعلوم التى تدرس فى بيت الحكمة كالفلسفة والطب والمنطق والفلك والتنجيم والرياضيات . أما موقف المدارس الاسلامية من بيت الحكمة ومدى تأثرها بها ، فهـذا ما سنوضحه فى مكانه من البحث .

أما الفصـل الرابع : فيشتمل على بيت الحكمة كجامعة اسلامية عظيمة ، فقد كانت جامعة بيت الحكمة يدرس فيها الطب ويقيم فيها الطلاب والأساتذة ، كما أنها كانت تهتم بالمراصـد الفلكية التى اقيمت فى دمشق وفى بغـداد ، وذلك من قبيـل حرص الدولة العباسية على الاسلام والمسلمين ، كمعرفة مواقيت الصلاة ... الخ .

والبـاب الرابع : يتكون من مقـدمة وثلاثة فصـول : الفصـل الأول بيت الحكمة كمؤسسة علمية وحركة الترجمة فيها . وكذلك أيضا العلوم الاسلامية فى بيت الحكمة ، كعلم الكلام والمنطق والفلسفة والطب والرياضيات والفلك والتنجيم . وفى الفصـل الثانى : الحيـاة العلمية ونشاط الترجمة فى بيت الحكمة ، تحـدثت فيه عن المترجمين الذين عملوا فى بيت الحكمة : كحنين بن اسحاق ، ويوحنا بن ماسويه ، والكندى ، والفارابى ، والفضـل بن نوبخت .

وما كان لحركة النقل والترجمة على أيدى الموالى : كعلان الشعوبى والفضل بن سـهل ، وسعيد بن هارون ، وكانوا يريدون بذلك اثبـات وجودهم أمام العرب المسـلمين .

ولعب المترجمون دورا هاما فى تنشيط حركة التأليف والترجمة من أمثال : أولاد موسى بن شـاكر (محمد وأحمد والحسن) ، وثابت بن قره .

ويجب أن نذكر أن ترجمة التراث والفكر العالمى الى اللغة العربية قد اكسب الدولة العباسية مكانة مرموقة بين العالم الاسلامى والأجنبى . وقد تم ذلك على يد حنين بن اسحاق ، وأولاد موسى بن شاكر والكندى والفارابى .

أما الفصل الثالث : فهو العلاقة بين مؤسسة بيت الحكمة والحكومة والعلماء الذين عملوا فيها . اذ كان للخلفاء والوزراء دور بارز من حيث تشجيعهم للذين عملوا

فى بيت الحكمة كحنين بن اسحاق والكندى ويوحنا بن ماسويه . وقد حافظ الخلفاء والوزراء على نشاط مؤسسة بيت الحكمة بتشجيعهم للترجمة والتأليف ونقل التراث والفكر العالمى الى اللغة العربية . كما حرص الخلفاء والوزراء على تقوية أواصر المحبة والتعاون بين من عملوا داخل بيت الحكمة .

الباب الخامس : يتكون من مقدمة وثلاثة فصول . الفصل الأول : مكانة بيت الحكمة بين مدارس وجامعات العالم . فكانت بيت الحكمة ذات تاثير عظيم فى المدارس الاسلامية والجامعات الاسلامية كجامعة دار الحكمة فى القاهرة ، ودار الحكمة فى الأندلس وجامعة القرويين بالمغرب والزيتونة فى تونس .

ومن مميزات بيت الحكمة أنها ساهمت بانقاذ التراث العالمى من الفناء بجلب كنوز المعرفة من انحاء العالم كعمورية وأنقره وغيرها . الفصال الثانى : ازدهار العلوم الاسلامية فى بيت الحكمة . فقد كان لبيت الحكمة تأثير فى العلوم الاسلامية مثل : علم الكلام والفلسفة والمنطق والرياضيات . كما تم نشر التعليم والمعرفة بين المسلمين وحثهم على طلب العلم والمعرفة بادخال نظام جديد للمكتبات على العالم الاسلامى من حيث التصنيف والنسخ والاشراف والطبع ... الخ .

الفصل الثالث : مميزات بيت الحكمة بين الجامعات الحديثة فجامعة بيت الحكمة جامعة اسلامية عريقة تتمتع بمكانة مرموقة بين الجامعات الحديثة فقد أثرت فيها وخاصة جامعة الأزهر بالقاهرة كما كان تأثيرها أكبر فى الجامعات الأجنبية الأوروبية كجامعة أكسفورد وكمبردج ومونبلييه بفرنسا . وقد كان لجامعة بيت الحكمة اثر فكرى وفلكى على الجامعات الحديثة فمعرفة الاسطرلاب وقياس مساحة الأرض ودورانها ومحيطها . كل ذلك كان بواسطة المراصد الاسلامية التى كانت فى الدولة العباسية . وكانت جامعة بيت الحكمة الرائدة فى ذلك رغم عدم اكتشاف الآلات الحديثة الآن . كما كانت جامعة بيت الحكمة ذات تأثير فى الجامعات

الحـــديثة حيث تأثرت بعلومها : كالطب والكيمياء والفلك والتنجيم والفلسفة والمنطـــق والرياضـــــيات .

وهكذا حظيت بيت الحكمة كمؤسسة علمية وتعليمية وجامعة اسلامية عظيمة ، حيث تزودت بزاد فكرى لا ينضب ، ولعـــل هـــذا راجع الى تشجيع خلفاء الدولة العباسية للحركة العلمية حيث أصبح العلم ميسرا لطلابه ومحبيه ، وقـــد لعب هـــذا العـــامل دورا بارزا فى ازدهار الحركة العلمية اذ قـــام الخلفـــاء بالاشراف عليها وتشجيع العلمـــاء على البحث والمناقشة والمناظرة والتأليف حتى أصبحت قصورهم تعج بالعلماء والفقهاء والأدباء الذين يتبارون فى مجلس الخليفة ويتنافسون فى قـــوة الحجة وسرعة البديهـــة .

وان من أمتن الأسس التى تشيد عليها صروح المجـــد والسؤدد ومن أقـــوى مقـــومات الشخصية الدولية ولا سيما أن الاسلام قـــد جعل العلم فريضة على كل مسلم ، وأوصاهم بطلبه من المهـــد الى اللحـــد وحثهم على السعى وراءه أينما كان .

هـــذا هـــو جهـــد المقـــل ـــ اللهم أن أحسنا فثبتنا على الحـــق ، وان جانبنا الصـــواب فأرشـــدنا الى طريق الحق والخير .

عليك توكلنا واليك أنبنا ، والحمد لله رب العالمين ..

بحث فى المصادر والمراجع

تتسدمت لدراسة « بيت الحكمة فى عصر العباسيين » بخطى بطيئة ولكنها ثابتة ، فقد كنت أدرك ما يحتاجه هذا الموضوع من فكر وجهد ، وهو موضوع بكر لم يعالج من قبل على النسق الذى يعرض به الآن . ودراسة « بيت الحكمة فى عصر العباسيين » كدراسة غيره من موضوعات الحضارة وتحقيق التراث تحتاج الى صبر ودأب ومثابرة . ولهذا احتاج هذا البحث الى جهد متصل وكفاح طويل فى سبيل اتمامه ، وأذكر اننى طالما قرأت كتبا ضخمة بعضها يقع فى عدة أجزاء ، وكنت آمل أن أجد فيها ما يفيدنى فى بحثى ، ولكنى كنت أخرج منها بمحصول ضئيل أو أخرج بلا شىء . وهناك حقيقة أخرى ذات أهمية كبرى ، هى أن كل باب من أبواب هذا البحث كان يحتاج الى مصدر غير تلك التى تلزم عند كتابة باب آخر منه . بل ان كل فصل من فصول الباب الواحد كان يحتاج الى مصادر غير مصادر فصل آخر فى نفس الباب . وعلى ذلك فقد احتاج هذا البحث الى عدد كبير من الكتب والمخطوطات والوثائق لتمد الموضوع بالمادة التى تشرح جوانبه ، وتكشف عن غموضه ، ومن أجل هذا قمت برحلة طويلة زرت فيها الباكستان ومصر وسوريا والاردن والعراق والمغرب وتركيا — كما استطعت فى هذه الرحلات أن أزور مكتباتها التى أمدتنى بمخطوطات ومؤلفات أفادتنى فائدة عظيمة القيمة جليلة الشأن ، كما كانت اتصالاتى بأستاذى البروفسور أمان الله خان رئيس قسم الدراسات الاسلامية بمعهد الدراسات الاسلامية بجامعة البنجاب بلاهور ، وقد كان لتوجيهاته وارشاداته خير عون لى فى بحثى جزاه الله عنى كل خير . أما المصادر التى اعتمدت عليها فى بحثى هذا فكثيرة ومتنوعة وبخاصة فيما يتعلق بالمصادر ذات الصلة الوثيقة بالبحث .

فابن النديم (ت ٤٣٨ هـ/١٠٤٦ م) فى كتابه (الفهرست) يزودنا بمعلومات قيمة جدا عن موضوع بحثنا هذا بصفة عامة ، فقد ذكر أن بيت الحكمة كانت اكاديمية مختصة بالبحث والدرس وترجمة الكتب العلمية والأدبية ، كما تحدث عمن كانوا يعملون فى بيت الحكمة من حيث تنوع ثقافاتهم ومعارفهم كسهل بن هارون وغيره ، وكيف أن بيت الحكمة ازدهرت وارتقت فى عهد المأمون لميله للفلسفة

والعلوم العقلية ، وحبه للعلم والعلماء وتشجيعه لهم . وأشار ابن النديم الى دور اهل الذمة ممن كانوا يعملون فى بيت الحكمة واسهامهم فى حركة الترجمة ونقل التراث والفكر العالمى الى اللغة العربية : مثل يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن اسحاق ، وابن البطريق ، وقسطا بن لوقا . وتحدث أيضا عن مكانة المدرسين عند الخلفاء العباسيين واحترامهم لهم ، وكيف كانوا يجرون عليهم الرواتب والأرزاق ، كما وصف ترتيب وتنظيم التلاميذ داخل الحلقات الدراسية فى داخل بيت الحكمة أمثال : حلقة الفارابى والرازى . وكيف كانت تعقد فيها مجالس للعلم والمناظرة من أجل التوصل للحقائق العلمية . وذكر ابن النديم ان بيت الحكمة بقيت تؤدى واجبها العلمى بكل همة ونشاط حتى النصف الأخير من القرن السابع الهجرى ، وهذا بفضل تشجيع الخلفاء والوزراء ورعايتهم للحركة العلمية فيها . ومرجع ذلك الى أن ابن النديم قد عاش فى بغداد ، وكان مطلعا على ما فى هذه المدينة العالمية من الكتب . فكتابه يحتوى حصيلة التأليف الذى تم أو وجد فى بغداد التى كانت أكبر مركز ثقافى فى العالم الاسلامى . وكانت صلتها أوثق ببقية مدن العراق وخراسان وبلاد الجزيرة والشام . ففى سنة ٣٧٧ هـ أتم محمد ابن اسحاق النديم كتابه (الفهرست) فهو أوسع كتاب شمل اسماء الكتب المؤلفة بالعربية أو المترجمة اليها حتى سنة تأليفه مع معلومات عن بعض رجال العلم ، وعن نشأة بعض العلوم ، ويتكون كتابه من ثلاثة أقسام رئيسية عرض فى أحدها المؤلفات فى العلوم العقلية بما فى ذلك القرآن الكريم والحديث واللغة والتاريخ والأدب ، وعرض فى الثانى ما يتعلق بعلوم الأوائل فى الفلسفة والطب والرياضيات والهندسة والحيل . أما القسم الثالث ففيه أبحاث عن نشأة الكتابة وقد وضعه فى أول الكتاب وعن معتقدات وتاريخ بعض الاديان والملل وقد وضعها فى آخر الكتاب .

كما حظى كتاب (الفهرست) لابن النديم بالتقدير الجدير به فنقل عنه عدد ممن تلاه من المؤلفين المعنيين بهذا الجانب ، ومن أبرز من نقل عنه ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » والقفطى فى كتابه « أخبار الحكماء » و « الانباه فى أخبار النحاة » وابن أبى أصيبعة فى كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » وابن خلكان فى كتابه « وفيات الأعيان » .

وألف جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) كتابه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) أو (تاريخ الحكماء) الذى يعد وثيقة هامة فى مجال البحث فيه ذكر من اشتهر ذكره من الحكماء من كل قبيلة وأمة قديمها وحديثها حتى زمن المؤلف وما حفظ عنه من قول انفرد به أو كتاب صنفه .

والواقع ان فائدة مؤلف القفطى هـذا قـد شملت معظم فصـول البحث فقـد أشار القفطى الى أهمية مزج الثقافات المختلفة والمعارف المتباينة فى بيت الحكمة ، الذى ولده دخول الموالى والبرامكة فى احضان الدولة العباسية .

وأهم الشخصيات التى قامت بهـذا الدور هى : الفضيل بن نوبخت وولاد شاكر ، ويوحنا بن ماسويه الذى ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القـديمة وجعله أمينا عليها . كما تحـدث عن المجالس العلمية والحلقات والمنـاظرات . وأورد القفطى قائمـة كاملة لمؤلفات حنين بن اسحاق باللغتين السريانية والعربية ، اذ أنه أورد فى كتابه تراجم العلمـاء الذين ذكرهم وأسماء كتبهم ويبلغ عـدد من ترجم لهم من الفلاسفة والأطباء والمنجمين وعلماء الحساب والهندسة أربعمائة وتسعة . وتحـدث القفطى عن بداية نشأة بيت الحكمة وكيف أن الرشيد قسمها الى عـدة خزائن أو أقسام لكل منها من يقوم بالاشراف عليها ولهـا تراجمة يتولون الترجمـة فيها ومجلدون يجلدون الكتب فصار لهـا دوائر علمية . كما ذكر القفطى الكثير من البعثات التى أرسلها الخلفاء العباسيون لجلب كنوز المعرفة والثقافة من جميع أنحاء المعمورة أمثال البعثة التى أرسلها الرشيد الى أنقرة وعمورية لاختيار كتب الفلسفة والطب والكتب القيمة التى يندر وجودها . وكذلك البعثة التى أرسلها المـأمون برئاسة يحيى بن البطريق لاحضار الكتب اللاتينية لأنه يعرف اللاتينية .

أما ابن أبى أصيبعة موفـق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفـة الخزرجى (ت ٦٦٨ هـ/١٢٩٦ م) فى كتابه (عيون الأنبـاء فى طبقات الاطباء) الذى يعتبر ذكرا خالدا له ، ومؤلفا ضخما وهو أحسن كتاب فى التراجم لا يشبهه الا كتاب أخبـار الحكماء السابق الذكر ، لكنـه امتاز عليه بأنه أوسع واوفر مادة ، وقـد ابتـدأ المؤلف بترجمـة كبار الاطباء زمن الاغريق والرومان والهنود وقسمه الى عـدة أقسام . وهـو يحتـوى على ما ينـوف عن أربعمائة ترجمة . هـذا وان المؤلف المذكور كان خير عـون لى ابان بحثى لمعظم الشخصيات من الاطباء والعلمـاء والفلاسفة ورجال الأدب ، الذين كان لهم دور فى ازدهار الحركة العلمية وحركة الترجمة فى بيت الحكمة فى العصر العباسى امثال : آل بختيشوع ، ويوحنا بن ماسويه وحنين بن اسـحاق والخوارزمى وسعيد بن هارون وثابت بن قرة وعمر بن الفرخان الطبرى . ، وحبيش بن الاعسم .وخص حـديثه أشهر المترجمين والنقلة فى عهـد الرشيد والمـأمون من جميع اللغات اليونانية والهندية والفارسية والسريانية الى اللغة العربية . وعن رواتبهم حيث بلغت ٥٠٠ دينار للنقلة والملازمة . كما تحـدث عن أعمام الوزراء بالنقـل والترجمة من أمثال : محمد بن عبد الملك الزيات حيث

نقلت باسمه عـدة كتب . والوزير أحمـد بن محمـد المعروف بابن المـدبر الكاتب ، وابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب وغيرهم من وزراء البرامكة أمثال : أبو سـلمة الخلال . وقـد طبع هـذا الكتاب عـدة طبعات ، أما الطبعة التى اعتمدت عليهـا فهى طبعة د. نزار رضا سنة ١٩٦٥ م فى بيروت .

أما ياقوت الحموى (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٩ م) فى كتابيه (معجم الأدباء) و (معجم البلـدان) فهـو يؤكـد أن بيت الحكمـة كـان فى حـيز الوجـود أيام هـارون الرشيد اذ يقول : « أن علان الشعوبى انوراق كان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمـأمون والبرامكة » .

كما يؤكد ذلك ابن النـديم . ويشير الى أن هناك خزائن أخرى على غرار بيت الحكمة أمثال : خزائن الحكمة التى أنشأها على بن المنجم فى قصره وفتحهـا للراغبين فى الدرس يقيمون فيها ويطالعون الكتب والفقـه على حسـاب يحيى بن المنجم . كما تحـدث أيضا عن اهتمام العلماء والخلفاء بخزائن الكتب . ويذكر كيف كانت المساجد والجـوامع الاسلامية فى العراق معاهـد مهمة يشد اليها الرحال من جميع أنحاء العالم . فقـد نالت بغـداد شهرة فى آفاق العالم الاسلامى وكيف أنهـا كانت مركزا للعـلم والعلمـاء .

وتحـدث عن المدارس فى بغـداد فى العصر العباسى . وكيف كانت دكاكين الوراقين منتدى لالتقـاء الأدباء والفضـلاء يتناشـدون الاشعار . واشار الى أثر مدرسة المعتزلة فى اثراء الفكر الاسلامى وخاصة فى النحو والتفسير واللغة . وأن بيت الحكمة يضم العلماء المسلمين والمسيحيين والمجـوس وحتى من الشعوبيين المغـالين فى بغض العرب امثال عـلان الشعوبى وسهل بن هارون . كما أشـاد بتشجيع الخلفاء والوزراء للحركة العلمية فى بيت الحكمة كالفضل بن جعفر وسـهل ابن جعفر وسهل بن هارون ودوره فى حركة النقـل والترجمة . ويذكر ياقـوت أن بيت الحكمة كان بهـا خبراء بالعلوم الالهية والعقلية : كالهندسة . والطب ، والتنجيم ، والمنطق ، وبها تعقد المجالس لأهـل العلم والأدب .

وابن خلكان (ت ٦٨١ هـ/١٢٨١ م) فى كتابه (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) فيعتبر من أهم كتب التراجم التى رجعت اليها ، بالاضافة الى كتاب ياقوت الحمـوى « معجم الأدباء » حيث وجـدت فى كل منهما عـددا غير قليل من تراجم العلماء . فقد تحـدث ابن خلكان عن أشهر فلاسفة وعلماء المسلمين الذين عاصروا بيت الحكمة أمثال : أولاد شاكر والخوارزمى والبتانى واسحاق بن حنين . وآل

قره (ثابت بن قره وابنه سعيد بن سنان) . كما كان لهؤلاء جميعا آثار فى الفكر والتراث الاسلامى فى مختلف ألوان العلوم مثل الطب والفلسفة والرياضيات والميكانيكا والمنطق والفلك . وأشار الى سخاء وعطاء الخلفاء والوزراء وتشجيعهم للحركة العلمية . وتحدث عن البرامكة والمعتزلة ومكانتهم عند الخلفاء ، مما اثار التنافس فى التاليف بين العلماء وخاصة فى النحو والأدب واللغة . كما ذكر ابن خلكان البعثات التى أرسلت الى بلاد الروم لاحضار الكتب والنقلة الذين عنوا بعلوم الهندسة والموسيقى والنجوم .

وكذلك غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبرى (ت ٦٨٥ هـ/١٢٨٦ م) وكان له اطلاع واسع بالعربية والسريانية واليونانية وقد ألف كتابه المشهور (تاريخ مختصر الدول) الذى يعتبر من المصادر العلمية الثمينة فى تاريخ اليهود ، ومن عاصرهم من الكلدانيين والفرس واليونان ، وقد تناول المؤرخ دول ملوك العرب حتى سقوط بغداد على يد المغول . وان ما رواه من الأخبار والوقائع والسير والتراجم يدل على خبرة ومعرفة وذلك من مقارنتها بالحوادث والوقائع التى أشار اليها الطبرى ، وابن الأثير ، والمسعودى ، وابن خلدون، وابن الطقطقى وغيرهم .

فقد تحدث ابن العبرى عن أبرز مترجمى الخليفة المأمون من أهل الذمة أمثال : يوحنا بن ماسويه الذى عينه المأمون أمينا على بيت الحكمة وقد كان طبيبا ماهرا ، كما أشار الى ثابت بن قره الذى اشتغل بالتنجيم وخبرته باللغات الأخرى . والخوارزمى الذى ألف فى الرياضيات والفلك ، ويحيى بن البطريق وأبى على عيسى ابن زرعه الذى اشتغل بالمنطق وبرع فى الفلسفة . ويشير الى تشجيع الخلفاء وتنشيطهم لحركة الترجمة والتأليف فى بيت الحكمة . وهذا واضح فى اغداق الرشيد الأموال على طبيبه بختيشوع بن جرجيس .

والمؤرخ صاعد بن أحمد الأندلسى (ت ٤٦٢ هـ/١٠٦٩ م) فى مؤلفه (طبقات الأمم) الذى يضم بين دفتيه معلومات هامة فى مضمار البحث ، وخاصة فيما يتعلق بالجوانب المختلفة من حياة الشخصيات العلمية التى لمع واقترن اسمها ببيت الحكمة البغدادى كحنين بن اسحاق وابنه اسحاق ، وثابت بن قره ، وعمر ابن الفرخان الطبرى ، وقسطا بن لوقا ، وسنان بن ثابت وعن الحاسب كمنجم . كما تناول أيضا اهتمام الخلفاء والوزراء بالعلماء وحبهم وتشجيعهم لهم وارسالهم البعثات العلمية محملة بالهدايا الى ملك الروم للحصول على ما لديهم من كتب قيمة

منها . فكتاب (طبقات الأمم) كتاب صغير الحجم لكنه ذو قيمة كبيرة لما احتواه من معلومات غنية وملاحظات ذكية وأحكام رصينة ونظرة شاملة أفادتني في بحثي .

أما الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م) فقد تناول في كتبه (البيان والتبيين) و (الحيوان) و (التاج) نظم ورسوم الدولة العباسية ، وسياسة خلفائها وأمرائها ، ومدى التأثير في الحضارة الاسلامية ، وهو يعد بحق مفخرة من مفاخر الكتاب المسلمين بما تضمنه من صدق الأخبار وتصوير الحقائق بالاضافة الى أسلوب التعبير والتفكير ، حيث كان يجانس بين آداب الفرس وأحوالهم ، وسياسات ملوكهم ، وبين ما يماثل هذه الأحوال والسياسات عند العرب والمسلمين ، وذلك على سبيل المقارنة والاستطراد اللذين هما من أخص سجاياه . فقد تحدث عن ازدهار الحركة العلمية في العصر العباسي الأول الذي عاصره الجاحظ وخاصة في عصر الرشيد ، فذكر أهم الشخصيات التي لعبت دورا هاما في تنشيط هذه الحركة كسهل بن هارون وعلان الشعوبي . كما ذكر مجالس البرامكة وكيف كانت مقامة على سلطان العقل والحرية العقلية في مجالس الخلفاء والندوات التي كان يعقدها ابن أبي دؤاد المعتزلي مستشار المأمون والمعتصم والواثق ويحضرها كبار المترجمين والأطباء . كما أشار الى استعمال الاسطرلاب لمعرفة حركة النجوم وشهرة الهند بالحساب وعلم النجوم وأسرار الطب .

كذلك المسعودي (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧ م) في كتابيه (مروج الذهب) و (التنبيه والاشراف) ومع أنه ألف أكثر من عشرين كتابا لم يصل الينا الا هذين الكتابين . أما التنبيه والاشراف فقد أتم تأليفه في سنة ٣٤٥ هـ عني فيه بما يتعلق بالفلك والجغرافيا ، وذكر معلومات قيمة عن أحوال الأمم الأخرى مما له علاقة بالعلم وتطوره ، فذكر كيف تدرج التعليم من المساجد الى المدارس الى بيوت خاصة في العلم أطلق عليها بيوت الحكمة أو خزائن الحكمة والتي كان من أشهرها بيت الحكمة البغدادي .

وأشار الى مجالس البرامكة والندوات الكبيرة للمتكلمين والفلاسفة من كل النحل مما أذكى الحركة العلمية في بيت الحكمة في عهد الرشيد والمأمون حيث كان الخلفاء يغدقون عليهم الأرزاق والرواتب . كما ذكر بعض الشخصيات الهامة التي كان لها دور في حركة النقل والترجمة كسهل بن هارون وعبد الله بن المقفع . وأشار في حديثه عن علم الفلك ومن اشتهر به .

كذلك رجعت الى ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ/١٤٠٥ م) في كتابه (المقدمة)

فقد عرض فى مقدمته وتاريخه عن الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى العصرين الأموى والعباسى وبين رأيه فيها . تحدث ابن خلدون عن دور صاحب بيت الحكمة وأنواع الطوائف العاملين بها وقسمهم الى عدة طوائف كالنساخين والمترجمين والمجلدين ... الخ . ومهمة كل طائفة منهم . كما تحدث عن الدوافع التى ساعدت على ازدهار حركة الترجمة فى العصر العباسى الأول . والجهود التى بذلها الخلفاء العباسيون فى سبيل ازدهارها . والبعثات التى أرسلوها لعقد صفقات لشراء الكتب وكيف تدفع فى سبيلها أغلى الأثمان . وعن حب العرب للمكتبات فى الأندلس اقتداء بما فعله الخلفاء العباسيون فى بغداد .

أما المقريزى (ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م) فى كتابه (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) فقد تحدث عن المدارس فى القرنين الثالث والرابع الهجريين ثم أشاد بدور المأمون فى جلب كنوز المعرفة من بلاد الروم ، وكيف عربها عن طريق المعتزلة وخاصة كتب الفلسفة ، بل قام خلفاء الدولة العباسية الآخرون بنفس الدور فكانت قصورهم مركز اشعاع فكرى وثقافى أمثال المعتضد بالله . ثم انتقل للحديث عن انشاء دار الحكمة فى مصر التى انشأها الحاكم بأمر الله . وكيف كانت مذهبية خاصة على عكس بيت الحكمة البغدادى الذى كان فيه الفكر حرا غير مقيد بمذهب معين .

وابن قتيبة (محمد بن مسلم بن قتيبة) (ت ٢٧٦ هـ) فى كتبه (المعارف) و (الامامة والسياسة) و (عيون الأخبار) كان من أقدم الكتب . وهو كتاب شامل نقل فيه نصوصا كثيرة عن مواضيع متعددة منها ما يتصل بمكانة العلماء والأطباء عند الحكام الذين نقل عنهم ومنهم أرسطو ، وماسرجويه ، وبختيشوع ، وماسرجيس ، وسلمويه ، وحنين . وكان لكتاب عيون الأخبار مكانة كبيرة ، واعتبره ابن خلدون احد الأركان الأربعة من كتب الأدب عند العرب . وقد اقتبس منه عدد كبير من المؤلفين . وقد تناول ابن قتيبة المباحثة والمناظرة فى مجلس الخليفة المأمون ودوره كرئيس للمجلس حيث كان الحوار مذهبيا ، فأشار الى المعتزلة ومذهبهم فى بداية العصر العباسى الأول وموقف الخلفاء منهم . وأكد ابن قتيبة فى كتابيه (الامامة والسياسة) و (المعارف) تشجيع الخلفاء والوزراء العباسيين للعلماء والمؤلفين وبذل العطاء لهم . وسيادة التسامح الفكرى واثر ذلك فى ظهور الفرق الكلامية واحتدام الجدل بينها .

كما تحدث عن الكندى فيلسوف العرب ونشاطه الفكرى فى الفلسفة والتاريخ الطبيعى وعلم الظواهر الجوية .

أما الطبرى (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م) فى كتابه (تاريخ الرسل والملوك) الذى اعتمدت عليه اعتمادا خاصا توضيحا للدور الذى لعبه الوزراء فى الدولة العباسية من خلال الحوادث التاريخية كما عنى الطبرى بسرد الحوادث السياسية وتطرق فى مقدمته الى جوانب هى من صميم علم الفلك فتحدث عن انشاء المراصد والمكتبات والبيمارستانات والمدارس فى بيت الحكمة . وذكر بعض الأمور الادارية والعمرانية ، ولكنه لم يبحث ما يتصل بالعلم والعلماء ، علما بأنه ألف كتبا أخرى هى تفسير القرآن والفقه ، وفيها معلومات اضافية لبعض جوانب التاريخ ، اذ تعرض للحديث عن الحياة الاجتماعية فى زمن الرشيد وكيف كانت قائمة على التوازن بين الجد واللهو ، وناقش قضية خلق القرآن وموقف المأمون منها من حيث انتصر لآرائهم أيما انتصار ، وتشدد فى التمسك بهم .

وقد تبعه فى ذلك ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ/١٢٣٢ م) فى كتابه (الكامل فى التاريخ) فى منهاجه واعتمد عليه فى أخباره وروايته الا أنه أخذ من هذه الروايات والأخبار أوثقها فى نظره . فقد تحدث ابن الأثير عن تشجيع الخلفاء والوزراء العباسيين للحركة العلمية عن طريق المباحثة والمناظرة فى سبيل اثراء التراث الثقافى فى جميع جوانبه الدينية والعلمية والفلسفية فى بيت الحكمة ، كما أشاد بدور الفضل بن جعفر فى جمع الكثير من الكتب التى يحتاج نقلها الى أربعمائة بعير ، وكان ما كتبه الطبرى وابن الأثير فى التاريخ موسوعات تاريخية قيمة وكاملة .

واما الخطيب البغدادى (ت ٤٦٣ هـ) فى كتابه (تاريخ بغداد أو مدينة السلام) فهو مؤرخ مدينة بغداد ، فقد خصص لها مجلدا كبيرا فى تاريخه تناول خططها وصروحها وآثارها بافاضة . وهو مجموعة تراجم للعلماء الذين عاشوا فى بغداد وما حولها ولمن زارها وعرف بالرواية فيها خلال تلك الزيارة ، وهو على كل حال أحد من أكبر معاجم التراجم المخصصة للعلماء ، اذ كثيرا ما تجد فى تاريخ بغداد معلومات عن مواقع المساجد والقصور ومنازل العلماء ودكاكينهم ، خاصة منهم الذين عاشوا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين .

والف ظهير الدين البيهقى (ت ٥٦٥ هـ) فى كتاب (تتمة صوان الحكمة) الذى طبعه محمد شفيع فى لاهور سنة ١٩٣٥ م معتمدا على مخطوطة فى برلين ثم طبعها محمد كرد على سنة ١٩٤٦ م بعنوان (تاريخ حكماء الاسلام) معتمدا على نسختين مخطوطتين فى استانبول . وفى هذا الكتاب ترجمة لمائة واحد عشر من العلماء والحكماء فى الاسلام ، معظمهم ممن عاش بعد تأليف « صوان الحكمة » وذكر عن

كل منهم اسمه ونسبه وبعض أقواله وكتبه . ومن العلماء الذين تحدث عنهم البيهقى ثابت بن قرة وابن على الشريف البغدادى وكيف كان عالما بالهندسة وأجزائها وعارفا بالقانون الفيثاغورى من الموسيقى ، وحنين بن اسحاق ، وحبيش ابن حسن الدمشقى ، وكان من الأطباء المتقدمين والمهندسين متى بن يونس كان حكيما نصرانيا .

وأشار القلقشندى (ت ٨٢١ هـ/١٤١٨ م) فى كتابه (صبح الأعشى فى صناعة الانشاء) الى خزانة بيت الحكمة ، وكيف كان يستفيد منها الرواد والعلماء وطلاب العلم الى أن استولى عليها المغول . كما أشاد بحركة الترجمة التى قامت فى بيت الحكمة فلم تكن مقصورة على الخلفاء العباسيين بل اهتم الأثرياء منهم بها كأولاد موسى بن شاكر الذين عهدوا الى حنين بن اسحاق بذلك .

وابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ/١٢٠١ م) فى كتابه (المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم) مؤلف غزير كل الغزارة متنوع كل التنوع ألف فى كثير من الموضوعات كالتاريخ والتراجم والحديث الشريف والتفسير والتصوف ، وكان ذا حظوة لدى الخلفاء العباسيين ، وألف كتابه هذا ليقص سيرة التاريخ العام من بدء الخليقة حتى عصره هو . تحدث عن المدارس فى العصر العباسى ، ودور الخلفاء والوزراء فى نشاط مؤسسة بيت الحكمة حتى أن الصاحب بن عباد أنفق على الفقهاء والأدباء خمسة آلاف دينار توزع عليهم .

أما الجهشيارى (ت ٣٣١ هـ/٩٤٢ م) فى كتابه (الوزراء والكتاب) والذى يعد مصدرا هاما من مصادر التاريخ الاسلامى فيعنى بدراسة الوزارة والوزراء فى الدولة العباسية . فتحدث عن موقف الرشيد من المعتزلة ، ودور الفضل ابن سهل فى حركة النقل والترجمة . وأنه كان مقربا من الخلفاء والبرامكة . كما أشار الى دور الخلفاء والوزراء وتشجيعهم لحركة الترجمة وخاصة آل سهل وعلى رأسهم الفضل الذى يترجم للمأمون .

كذلك ابن الطقطقى (ت ٧٠٩ هـ/١٣٠٩ م) فى كتابه (الفخرى فى الآداب السلطانية) الذى عالج الأمور السلطانية والسياسات الملكية ثم تحدث عن الخلفاء العباسيين ووزرائهم فى هذا العصر والعصر الذى يليه . فقد ذكر المباحثة والمناظرة ووصف الدولة العباسية بأنها ساست العلم سياسة ممزوجة بالدين والملك فوصفها بأنها دولة كثيرة المحاسن جمة المكارم ... الخ .

ومن هـذه المصادر أيضا كتاب (طبقات الأطباء والحكماء) لسليمان بن حسان المعروف بابن جلجل (ت ٣٨٤ هـ/٩٩٤ م) وهـو طبيب أندلسى عاش زمن عبد الرحمن الناصر الذى وصف عصره بأنه « تتابعت الخبرات فى أيامه ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم ، وقامت الهمم وظهر الناس ممـا كان فى صـدر دولته من الأطبـاء المشهورين » . يضم كتاب طبقات الأطبـاء والحكماء تراجم سبعة وخمسين عالمـا وطبيبا » . وقـد أفادنى المؤلف المذكور بصفة خاصة عند بحثى لرعاية حركة الترجمة وأشهر النقـلة على الرغم من أن المعلومات هنا كانت كثيرة تتميز بالايجاز الشديد . والكتاب هـذا يعتبر وثيقـة هامة فى تاريخ العـلوم ، وتطـور حركة التأليف والترجمة فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) الذى يعـد بحـق العصر الذى ازدهرت فيـه الحضارة العربية الاسلامية ونمت وبلغت غايتها من الانتاج الواسع فى شتى ميادين العلوم والآداب ، ولعل ميزة هـذا الكتاب الأولى التى جعلت لـه قيمة علمية خاصـة ، ونصا قـديما لـه خطره فى تاريخ العلم ، ان مؤلفه يعتمد فيما رجـع اليه من مصادر على تراجم عربية لأصـول لاتينية تاريخية . فتحـدث عن الكندى ووصـفه بأنه من كبـار مفكرى العرب الذين يسروا العلوم لمن بعـدهم ، وذكر يوحنا بن ماسويه الذى قلده الرشيد الكتب الطبية لترجمتها ووضـعه أمينا على الترجمـة .

أما اليعقوبى (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) فقـد ألف كتاب (معجم البلـدان) وفيـه وصف جغرافى وبشرى لأقاليم العالم الاسلامى ، وعنى اليعقوبى بذكر العلم ، وخص بعض علماء الطب والرياضيات والجغرافيا بعناية خاصة ، وكان ما كتبه فى ذلك معتمدا ذا قيمة . كما ذكر أيضا أن بغـداد كانت قبلة العلماء من جميع أنحاء العالم .

أما البلاذرى فى كتابه (فتوح البلـدان) فتحـدث عن التراث فى قصـور المعتصم ، وتشجيع الحركة العلمية فى عصره من قبـل الخلفاء والوزراء ، وأن عصر المستنجد كان عصر ازدهار الترجمة ممـا انعش التراث الاسلامى فيما نقـل عن الفرس واليـونان .

ويذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ/١٤٩٦ م) فى كتابه (النجوم الزاهرة) فقـد تحـدث عن مجالس الخلفاء والوزراء فى المباحثة والمناظرة فى بيت الحكمة رغم اختلاف الملل والنحل وكفل الحركة لكل المتحـدثين والمتكلمين . كمـا أشاد بدور الخلفاء والوزراء فى المحافظة على نشاط مؤسسة بيت الحكمة وخاصة الصاحب بن عباد من مخالطته العلماء والاغـداق عليهم .

كما رجعت أيضا الى الصابى (ت ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م) فى كتابه (تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء) الذى أفرد حديثه للوزراء العباسيين مبينا الأنظمة التى كانت تسير عليها الدولة العباسية ومدى ما بلغته من تنظيم الأمور والدواوين ، فكان لتشجيع الخلفاء والوزراء للحركة العلمية أثره فى تقدمها بمنحهم الأموال لقاء ما يقدمونه من أمثال على بن عيسى وزير الخليفة المقتدر .

أما الأربلى فى كتابه (خلاصة الذهب المسبوك) الذى يعتبر من المؤرخين الثقات الذين عاصروا الدولة العباسية وشهدوا كثيرا من وقائعها واحداثها ، لذلك يعتبر تاريخه مرجعا هاما لنا على الرغم من تدويناته التى جاءت مختصرة ، وتناول فى كتابه تاريخ الدولة العباسية منذ الدعوة العباسية الى سقوطها سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م .

أما ابن دحيه فى كتابه (النبراس فى تاريخ خلفاء بنى العباس) فتحدث عن اسهام الخلفاء والوزراء فى المناظرات وحظوة العلماء عند الرشيد والمأمون وتنافسهم فى ازدهار الحركة العلمية فى بيت الحكمة . وهناك مصادر عديدة ذات أهمية ثانوية ، لأنها اعتمدت الى حد كبير على المصادر الآنفة الذكر بالنسبة لبحثنا والتى رجعت اليها وهى مثبتة فى قائمة المراجع ومن أهمها :

المقدسى (ت ٣٧٥ هـ/٩٨٥ م) فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) .

و (تاريخ الخلفاء) للسيوطى (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م) والمقرى فى كتابه (نفح الطيب) ، وحاجى خليفة (كشف الظنون) (ت ١٠٦٧ هـ) وقد طبع فى استانبول سنة ١٩٤٣ م بمجلدين ذكر فيهما أسماء الكتب مرتبة على العلوم بترتيب الفبائى . وابن شاكر الكتبى فى كتابه (فوات الوفيات) ويمتاز هذا الكتاب بأنه يضم قائمة بأسماء مؤلفين مما الفه كل منهم وانه كتاب شامل لكل العلوم والمعارف .

ومن الكتب المؤلفة فى أسماء الكتب كتاب (مفتاح السعادة ومصباح السيادة) لطاش كبرى زاده . وقد طبع هذا الكتاب فى حيدر آباد فى أربعة أجزاء يبدأ بمقدمة عن التعليم والعلم ثم اصناف العلوم وأبرز الكتب المؤلفة فى كل صنف أهم . كما يعتبر ابن مسكويه من المؤرخين الموثوقين فى التاريخ الاسلامى وكتابه المسمى باسم (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) يعكس وجهة نظره فى التاريخ ، فالتاريخ فى رايه تجارب الأمم ، ومن واجب الحاكم العاقل أن يستفيد من تجارب

الأمم السابقة . وهناك كتاب (الجامع المختصر) لابن الساعي الخازن . هذا كتاب ضخم في تاريخ العراق خاصة ، لكنه لم يصل منه الا جزء صغير جدا يغطي عددا قليلا من سنوات حكم الخليفة الناصر .

وتعتبر الكتب الحديثة من المراجع المهمة في دراسة بيت الحكمة في عصر العباسيين فلقد كتب الكثير من المؤرخين العرب والمستشرقين عدة بحوث ومقالات تخص المدارس الاسلامية والنهضة التعليمية في ذلك العصر ، تناولوا فيها تشجيع الخلفاء والوزراء للحركة العلمية واثر ذلك في ازدهار بيت الحكمة وتألقها على ما كانت عليه ، معتمدين على روايات المؤرخين القدامى ، فكانت آرائهم وتحليلاتهم للنصوص التاريخية وعرضها للأحداث ومناقشتها أهمية كبرى في بيان العلوم المختلفة التي كانت موجودة في العصر العباسي كالطب والفلك والهندسة والرياضيات بالاضافة الى ما كتبه المؤرخون المسلمون ليكون بحثي أبعد عن الهوى والتحيز . فقد خصص رفائيل أبو اسحاق دراسة خاصة لأحوال نصارى بغداد والعراق وتكلم عن حياتهم الاجتماعية والثقافية ، وموقف المسلمين منهم ، ودور المدارس في ازدهار الثقافة واثرهم في حركة الترجمة والنقل من اليونانية والسريانية الى العربية في العراق في العصر العباسي .

وكتب غيره كثير من المستشرقين اثناء بحثهم في الحضارة العربية الاسلامية عن مواقف المسلمين من أهل الذمة ، وقد اسهب البعض منهم في تصوير المواقف السامية التي وقفها الحكام المسلمون تجاههم ، وتسامح الاسلام معهم وقد رد هؤلاء المستشرقون على أولئك الذين اتهموا الاسلام والحكام المسلمين باتباع سياسة الاضطهاد والاكراه والاحتقار لأهل الذمة . ومن أبرز هؤلاء المؤرخين المنصفين المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون في كتابه « الحضارة الاسلامية » وبارثولد في كتابه « تاريخ الحضارة العربية » وآدم متز في كتابه « الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري » وديورانت في كتابه « قصة الحضارة » وخودابخش في كتابه « الحضارة الاسلامية » وفون كريمر « الحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية » وأوليري « الفكر العربي ومكانه في التاريخ » و « مسالك الثقافة الاغريقية » وجرونيباوم في كتابه « حضارة الاسلام » الذي ترجمه عبد العزيز جاويد .

وزيغريد هونكه في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » وجاك . س. ريسلر في كتابه « الحضارة العربية » وستانوود كب في كتابه « المسلمون في تاريخ

الحضارة » يعرض فيه قصة الحضارة الاسلامية ، نشوئها وازدهارها وعطائها ، ومكانة الحضارة الاسلامية فى تاريخ الحضارة الانسانية ، وكيف أن المسلمين تمثلوا بالمعارف الاغريقية والفرس والهنود والقدماء . وديبور فى كتابه « تاريخ الفلسفة فى الاسلام » ونالينو فى كتابه « تاريخ الفلك عند العرب » وهل فى كتابه « الحضارة العربية » . وقد أشار هؤلاء جميعا فى كتبهم اشارات عابرة فى أثناء التكلم عن النظم العربية الاسلامية الى اهتمام الخلفاء والوزراء العباسيين بمختلف فروع المعرفة المتعددة فى بغداد من طب وفلك ورياضيات وكيمياء ... الخ .

على أن الباحثين العرب لم يقصروا جهودهم على ترجمة الدراسات العربية فى هذا المجال ومن الكتابات المبكرة فى الحضارة العربية الاسلامية كتاب « تاريخ التمدن الاسلامى » لجرجى زيدان ، وكتاب محمد كرد على « الاسلام والحضارة العربية » وكتاب جميل نخلة المدور « حضارة الاسلام فى دار السلام » ثم توالت الدراسات العربية فى هذا السبيل مدرجة فى نطاق مؤلفات تاريخية ، وابحاث منفصلة ، فقد حرص الاستاذ الدكتور حسن ابراهيم حسن فى كتابه الضخم الذى ظهر فى أجزاء أربعة « تاريخ الاسلام السياسى والاجتماعى والثقافى » كاملة مسهبة لدراسة الحضارة الاسلامية فى مختلف جوانبها . كما ظهر للأستاذ أحمد أمين مجموعته الطيبة فى التاريخ الفكرى للاسلام « فجر الاسلام » ، « ضحى الاسلام » ، « ظهر الاسلام » . ثم نجد لدينا الدراسات التى ظهرت فى تاريخ الفن الاسلامى كابحاث الدكتور محمد زكى حسن مثلا « كنوز الفاطميين » ، « الفن الاسلامى » والدراسات العربية المتعددة فى تاريخ الادب العربى وفى تاريخ الفلسفة الاسلامية وقد ظهرت مؤلفات جامعة مفردة تؤرخ الحضارة الاسلامية من جانب بعض الباحثين العرب المحدثين مثل د. عبد المنعم ماجد فى كتبه « العصر العباسى الأول » و « تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى » . و د. على حسنى الخربوطلى فى كتابه « الحضارة الاسلامية » . وأوضح د. عبد العزيز الدورى فى كتبه « العصر العباسى الأول » ، « تاريخ العراق فى القرآن الرابع الهجرى » ، « العصور العباسية المتأخرة » . « مقدمة فى تاريخ الاقتصاد العربى واحوال المجتمع العراقى خلال العصور العباسية » . ومشيرا الى آثار أهل الذمة فى النواحى السياسية والدينية والثقافية والاقتصادية ومحللا الظواهر الاجتماعية والسياسية والدينية فى المجتمع العراقى . واشار غيرهم الى احوال أهل الذمة اشارات عابرة نجدها فى المصادر المثبتة فى فهرست الرسالة . وقد رجعت الى بعض المقالات والبحوث فى المجلات فيما يخص موضوع البحث « بيت الحكمة فى عصر العباسيين » فقد كانت لهذه الكتب جميعا اهميتها فى استكمال جوانب البحث والقاء الضوء

على الجوانب الفكرية والثقافية والسياسية فيه .

هـــذه أهم المصادر والمراجع التى اعتمدنا عليها ورجعنا اليها . ونقول أهم المصادر والمراجع لأن وراءها مصادر ومراجع كثيرة لم تعرض هنا اكتفاء باثباتها فى هوامش البحث وادراجها فى الثبت الأخير الذى تفرض علينا التقاليد العلمية أن نختم به أبحاثنـــا الجامعيـــة .

وبعـــد ، فلسنا ندعى أننا قلنا الكلمة الأخيرة فى الموضوع ، أو أننـــا أحطنـــا علمـــا بكل جـــوانبه ، فتلك دعوى لا تتفق مع العلم الذى نخلص له ، ولا مـــع الجامعية التى نؤمن بها ، وانما حسبنا أن نذكر أن هـــذا البحث محاولة حاولناها ، وأنضينا رواحلنا فى سبيلها ، فان تكن انتهت بنـــا الى الغاية التى تمثلناها فما نبالى ، وان تكن قصرت بنا عن بلوغها فلنتذكر قول شاعر الكوفة أبى العتاهية :

« ما كل ما يتمنى المرء يدركه » .

والله يهـــدينا الى ســـواء السبيل .

الباب الأول

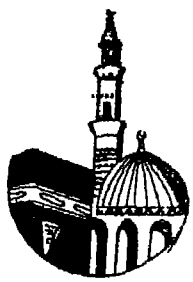

ويشمل الفصـــول الآتيـــة :

الفصـــل الأول : تأسيس بيت الحكمة وأهـــدافها ٠

الفصـــل الثانى : انشاء بيت الحكمة ٠

الفصـــل الثالث : النظام الادارى فى بيت الحكمة ٠

الفصـــل الرابع : أثر بيت الحكمة فى حياة المجتمع العباسى ٠

الفصل الأول : تأسيس بيت الحكمة وأهدافها

١ ــ المؤسسون لبيت الحكمــة ٠

٢ ــ تاريخ تأسيس بيت الحكمــة ٠

٣ ــ الأهــداف المراد تحقيقها من تأسيس بيت الحكمــة ٠

ان احـــدى مميزات الحضارة الاسلامية الرئيسية حبها للكتب ونشرها المعرفة واحتضانها المكتبات وتعميمها وجعلها فى متناول أفراد الشعب ، دون اعتبار للعمر أو الجنس أو اللون . ومـمـــا قيل فى هـــذا الصـــدد : « لم يبز شعب من شـــعوب الأرض كلهـــا المسلمين فى حبهم للكتب وحـــدبهم عليها » . ولقـــد بدأت هـــذه العناية فى عصر مبكر ، فما كاد العرب يؤسسون دولتهم حتى جـــدوا فى جمع تراثهم القديم ، وتدوينه ونشطوا فى التأليف فى علوم الاسلام ، وسايرت هـــذا النشاط الجاد حركة منظمة لترجمة الآثار الفكرية والعلمية لمختلف الشعوب ذات الميراث الحضارى ، ثم امتدت نظرتهم الثاقبة الى الأفـــق العالمى الرحب ، فأقبلوا يجمعون ما عرفت الدنيا لعهدهم من كتب ذات بال . فقد أهـــل القرن الثانى للهجرة وقـــد امتدت الفتوحات الاسلامية وبدأت الدولة الاسلامية تأخـــذ دورها القيادى للبشرية فى الحضـــارة المـــادية والمعنوية ، فكانت نهضتها الفكرية والعلمية من دعائم هـــذه الحضـــارة وعنايتها باحياء تراثها وتشييد دور للكتب تساير هـــذه النهضة مؤثرة ومتأثرة بها .

أولا ــ المؤسسون لبيت الحكمـــة :

جاء العصر العباسى وكان عصر الحضارة الاسلامية فبانتقال الســـلطة الى العباسيين سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م انتقلت عاصمة العالم الاسلامى الى بغداد ، وحرص خلفاء بنى العباس مثل الرشيد والمـــأمون والمتوكل وغيرهم على استحثاث طلب العلم ودفـــع عجلته الى الأمام . فكانت السمة البارزة فى تاريخ الدولة العباسية هى اهتمام خلفائها بتعميم المعرفة ، وتعضيد من يعمل بها وترجمة ما كتب فيها الى اللغة العربية ، وكان الخليفة المنصور هـــو الراعى الذى فعل أكثر ما يمكن لاجتذاب الأطبـــاء النساطرة الى مدينة بغـــداد . فقـــد ترجمت لـــه كتب فى الطب والنجـــوم والهندسة والآداب ، كما ألفت لـــه معظم كتب الحـــديث والتاريخ . فقـــد ترجم جرجيس بن بختيشوع مؤلفات كثيرة فى الطب من اليونانية الى العربية . فخصص المنصور خزانات لهـــذه الترجمات وغيرها من المخطوطات القيمة(١) . وحتى آخر

---

(١) ابن القفطى : جمال الدين ابو الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨ م) ، (**اخبـــار العلماء بأخبـار الحكماء**) ، (طبع ليبزك ١٣٢٠ هـ) ص ٣٨٣ .

عهدها كانت مخطوطات التراث ودفاتر العلم تحفظ فى قصر الخلافة فى بغـداد ، حتى ضـاق عنها على سعته . ولمـا جاء الخليفة هارون الرشيد وكان من أعظم خلفـاء بنى العباس وأكثرهم ذكرا فى التاريخ العباسى ، لمـا اتصف به من كرم وجـودا ولمـا وصلت اليه الدولة العباسية من نهضة حضارية بلغت الأوج ، فقد أصبحت بغـداد فى عهده كعبة العلم والأدب ومركز التجارة والصناعة وظهر فى أيامه شعراء عظـام من أمثال أبى العتاهيـة والعباس بن الأحنـف ، ومروان بن أبى حفصـة ، ومؤرخين من أمثال الأصمعى والواقـدى(٢) وغيرهم كثير . فاتجـه الرشيد الى اخراج الكتب والمخطوطات التى كانت تحفظ فى جـدران قصر الخلافة بعـد أن تضخم رصيدها من التراث المـدون ، والمخطوطات المؤلفة المترجمة ، لتكون مكتبة عامة مفتوحة الأبواب للدارسين وطلاب العلم ، وبدأ فأسس دارا رحبـة فخمة نقـل اليها كل الذخائر وسماها « بيت الحكمة » تقـديرا لجلال رسالتها(٣) . وكانت هـذه المؤسسة مؤسسة ثقافية كبرى تقـوم بعمل جليل . فكانت مهمتها أول الأمر الملازمة كما يقول ابن النـديم ، ثم تطورت زمن المـأمون حتى أصبحت مؤسسة علمية من الطراز الممتاز همها ترقية البحث والدرس والتجرد للدراسات العليـا . ويمكننا أن نقول ان هـذه المؤسسة المسماة باسم بيت الحكمة قـد أصبحت زمن المـأمون اكاديمية بالمعنى العلمى الدقيق للكلمة فيها أماكن للدرس ، وأماكن لخزن الكتب ، وأماكن لنقلها ، وأماكن للتأليف الى جانب المرصـد الفلكى الذى مارسـته وهـذا تطور طبيعى ومنطقى(٤) ويقول القفطى « ان بيت الحكمة كان رمزا للمناحى العلمية المختلفة فهارون الرشيد هـو الذى ابتدع فكرة هـذا المعهد وتبناه ابنـه الخليفة المـأمون ، والحكمة فى رأى العلماء المسلمين هى العلوم الالهيـة والعـددية وصـناعتا الطب والتنجيم »(٥) .

وفعلا كانت أكثر أعمال بيت الحكمة ضمن نطاق هـذه العلوم ، ولتنوع العمل

---

(٢) أولبرى : (**مسالك الثقافة الاغريقية** ترجمة تمـام حسان) ، (دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٦٣ م) ص ٩٩ .

(٣) د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) (**تراثنا بين ماض وحاضر**) (دار المعارف بمصر – ١٣٨٩ هـ/١٩٧٠ م) ص ٢٠ .

(٤) ابن أبى أصيبعه . موفق الدين أبو العبـاس احمـد بن القاسم بن خليفـة بن يونس السعدى الخزرجى (**عيون الانباء فى طبقات الأطباء**) (دار الفكر – بيروت ١٩٥٦ م) ج ٢ ص ٣٧ .

(٥) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣٨٣ .

فى هـــذا المعهد نصب الخلفاء على ادارتها رئيسا لـــه من الادراك العلمى ما يقـــدر به أن يجعل منها محرابا مقـــدسا للعلم والعلماء(٦) .

وقـــد نالت بيت الحكمة فى عهد الرشيد عناية فائقة بالكتب المترجمة التى تحمل كنـــوز الثقافة الأجنبية فعين لهـــا الموظفين وآتاها حاجتها من الكتب ، فنمت واشتدت وأخـــذت تؤتى أكلها طيبا يانعا(٧) . ولا ريب فى أن هـــذه المؤسسة كانت جامعة كبرى لطلاب العلم والمعرفة ، وقـــد أخـــذ كثيرون من الأفراد باقتناء المكتبات وهـــذا ما سنوضحه فيما بعـــد . وبلغ من اهتمام هارون الرشيد بالعلم والعلمـــاء أنه كان يقبل الجزية كتبا(٨) ، وهـــذا يدلنا على شغف الخليفة باقتناء الكتب وجلبها حتى أصبحت بيت الحكمة أول مكتبة عامة ذات شـــأن فى العالم الاسلامى ، بل انهـــا كانت أول جامعة اسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون ولجـــأ اليها الطلاب . وكانت بذلك أول مركز علمى يحقق للطلاب زادا علميا وفيرا ويخرج لهم من جهـــد القائمين عليه ثقافـــة مختلفة الاتجاه تشـــكل علـــوم الطب والفلســـفة والحكمة وغيرها(٩) . وقـــد أكد بعض المؤرخين « أن بيت الحكمة كان جامعة كبيرة ، وأن المكتبة كانت جزءا منه »(١٠) .

أما الاسم الذى أطلق على هـــذه الأكاديمية فله دلالته الواضحة ، فقـــد سميت « بيت الحكمة » أو خزانة الحكمة ، ولم يسم باسم خزانة الكتب وذلك للاشارة الى الكتب التى كانت تجمع فيها والتى كانت تعرب هناك . فالمعنى اللغوى لكلمة حكمة كما ورد فى المعجم الوسيط(١١) هى : من الحكم من أسماء الله تعالى . والحاكم . وفى التنزيل العزيز : « **أفغير الله أبتغى حكما** »(١٢) . ومن يختار للفصل بين المتنازعين .

---

(٦) ياقـوت الحموى ، أبو عبد الله شهاب الدين بن عبد الله الرومى (**معجم الادباء**) . تحقيق أحمد فريد رفاعى (مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٩٣٦ م – القاهرة) جـ ٢ ص ٢٧٧ .

(٧) زكريا هاشم زكريا (**فضل الحضارة الاسلامية العربية على العالم**) (مكتبة نهضة مصر بالفجالة – القـاهرة) ص ٢٨٢ .

(٨) د. على عبد الله الدفاع (**موجز فى التراث العربى الاسلامى**) (مطبعة الرسالة – بيروت ١٩٧٧ م) ص ٢٠٣ .

(٩) د. أحمد شلبى (**تاريخ التربية الاسلامية**) (مكتبة النهضة المصرية – الطبعة الخامسة ١٩٧٧ م – القـاهرة) ص ١٨٤ .

(١٠) أحمد أمين (**ضحى الاسلام**) . (دار المعارف بمصر – القاهرة ١٩٣٦ م) جـ ٢ ص ٦٤ .

(١١) د. ابراهيم أنيس وآخرون (**المعجم الوسيط**) (طبعة أولى – القاهرة) ، جـ ١ ص ١٩٠ .

(١٢) سـورة الأنعـام الآية ١١٤ .

وفى التنزيل العزيز : « **وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من اهله وحكما من اهلها** »(١٣) . ويقال رجل حكم : مسن . وهم حكمه . الحكمة : معرفة افضل الأشياء بأفضل العلوم . و — العلم والتفقه . وفى التنزيل العزيز : « **ولقد آتينا لقمان الحكمة** »(١٤) . و « يقال : حكمة التشريع . وما الحكمة فى ذلك ؟ و (علم الحكمة) : الكيمياء والطب . الحكمة : حكمه . الحكم : العلم والتفقه . والحكمة . يقال : الصمت حكم . و « القضاء » . وأما الحكمة فى ذلك الوقت فقد كانت مرادفة للفلسفة ، وخاصة الفلسفة اليونانية ويقصد بالفلسفة المعنى العام الفضفاض للكلمة ، فقد كانت كلمة فلسفة تشمل عدا مباحث الفلسفة المعروفة الطب والفلك وعلم الهيئة والطبيعة والرياضيات والمنطق . وهذا يدل على الاتجاه العقلى لمؤسس هذه الأكاديمية . وعلى التيار الثقافى الذى كان غالبا آنذاك . أما كلمة الخزانة أو بيت فهى تدل على المكان الذى يوضع فيه الشىء أو يخزن .

ومات هارون الرشيد وبيت الحكمة زينة بغداد عاصمة العرب والاسلام ، على الرغم من الثورات والفتن التى ملأت عهد المأمون ، فان عصره يعتبر من أزهى عصور الدولة العباسية من الناحية العلمية ، فقد اهتم بالمسائل الفلسفية والعلمية وشجع على النهضة الفكرية ونشر العلوم فزود بيت الحكمة بمختلف أنواع الكتب من الهند وبلاد الروم والفرس ، حتى أصبحت أشبه بجامعة علمية تضم دارا للكتب يجتمع فيها شيوخ العصر للترجمة والتأليف والتحصيل ، كما خصص منها مواضع للنساخين(١٥) ، وجمع المأمون فى مكتبته أعظم المفكرين والعلماء والأطباء والنقلة ، وأغدق عليهم العطاء فأصبحت خزانة كتب بيت الحكمة من أثرى وأعظم خزائن الكتب فى ذلك الوقت ، كان خازنها هو سهل بن هارون مما يؤكد أن بيت الحكمة كانت تضم مكتبة جليلة صنفت كتبها واختير لها المترجمون المشهورون ومنهم يوحنا ابن ماسويه وابن البطريق(١٦) .

ويوحنا بن ماسويه السريانى المتعرب الذى قام بترجمة كتب الطب التى جىء بها من أنقره وعمورية وبلاد الروم يعاونه عدد من المترجمين والكتبة الحذاق

---

(١٣) سورة النساء الآية ٣٥ .

(١٤) سورة لقمان الاية ١٢ .

(١٥) د. محمد فاروق النبهان . (**مبادىء الثقافة الاسلامية**) . دار البحوث — الكويت ١٩٧٣ م) ص ٦٩ .

(١٦) المقريزى . تقى الدين أحمد بن على . (**المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار**) . (طبعة بولاق — القاهرة ١٢٧٠ هـ) ج ١ ص ٤٠٦ .

كما جيء بكتب الحكمة والفلك من فارس وعهد بها الى ابن أبى سهل الفضل بن نوبخت الذى نقلها من الفارسية الى العربية فواصل الحركة التى بدأها ابن المقفع بترجمة تراث الفرس ، وأضيف الى خزائن بيت الحكمة ما صنف علماء العربية والاسلامية فى علومهم الاسلامية والعربية الأصيلة الى جانب ما دونوه من تراثهم المجموع(١٧) . أما حنين بن اسحاق فقد كان من أبرز الأطباء والمترجمين فى عهد المأمون وكان أعلم زمانه باللغة اليونانية والسريانية والفارسية الى حد لم يصل اليه أحد من النقلة الذين كانوا فى زمانه ، مع براعته أيضا فى اللغة العربية ومداومة الاشتغال بها حتى صار من جملة المتميزين بها(١٨) .

ويضيف القفطى قوله « وكان حنين فصيحا لسنا بارعا شاعرا ، وكان له شيخ فى العربية الخليل بن أحمد الفراهيدى »(١٩) . أما محمد بن موسى الخوارزمى الذى عاش فى بغداد فيما بين (١٦٤ هـ/٢٣٥ هـ — ٧٨٠/٨٥٠ م) وتوفى هناك فقد برز فى زمن خلافة المأمون ولمع فى الرياضيات والفلك حتى عينه المأمون رئيسا لبيت الحكمة . وطور الخوارزمى علم الجبر كعلم مستقل عن الحساب . ومن هنا أصبح هذا العلم ينسب اليه فى جميع أنحاء المعمورة . والخوارزمى أصله من خوارزم وكان منقطعا الى خزانة الحكمة فى عهد المأمون وهو من أصحاب علم الهيئة ، وله من الكتب كتاب « الزيج » نسختين أولى وثانية ، وكتاب الرخامة وكتاب العمل بالاسطرلاب وكتاب التاريخ(٢٠) . اذ ابتكر الخوارزمى(٢١) فى بيت الحكمة الفكر الرياضى وذلك بايجاد نظام جديد لتحليل كل معادلات الدرجة الأولى والثانية ذوات المجهول الواحد بطرق جبرية وهندسية . والعالم يدين له بما نعرفه الآن من علمى الجبر والحساب . وهكذا فقد سطع نور بيت الحكمة فى أيام المأمون ، وأيام هذا الخليفة كانت عهدا ذهبيا فى حياة الدولة العباسية .

---

(١٧) أحمد أمين ، ضحى الاسلام ، جـ ٢ ص ٦٤ .

(١٨) ابن أبى أصيبعة ، طبقات الأطباء ، جـ ١ ص ١٨٦ .

(١٩) ابن القفطى ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ١٧٤ .

(٢٠) محمد بن موسى الخوارزمى ، (**الجبر والمقابلة**) ، (دار الكاتب العربى — ط ١٩٦٨ م — القاهرة) ص ١٠ .

(٢١) د. على عبد الله الدفاع : موجز فى التراث العلمى العربى الاسلامى ، ص ١٩٠ .

ثانيا ــ تاريخ تأسيس بيت الحكمة :

ان بيت الحكمة الذى أسسه العباسيون فى بغداد هو أول بيت حكمة عرف عند المسلمين ، كما كان أعظمها شأنا لما يحتويه من الكتب النفيسة فى شتى العلوم والمعارف فى مختلف اللغات . والنصوص التى وقفنا عليها عن هذه المؤسسة الثقافية لا تساير الباحث ، بل نجدها متفرقة فى بعض المصادر ، ومن الصعب أن نقف على تاريخ معين أو محدد من تأسيسها والذى نراه أنه فى خلافة أبى جعفر المنصور (١٣٥ هـ/١٥٨ هـ ــ ٧٥٢ م/٧٧٤ م) ترجمت له كتب كثيرة فى الطب والنجوم والهندسة والآداب كما ألفت له بعض الكتب فى التاريخ والحديث والأدب ، فقد ترجم جرجيس بن بختيشوع مؤلفات كثيرة فى الطب من اليونانية الى العربية حيث كان يجيد اليونانية والعربية بالاضافة الى لغته السريانية فخصص المنصور له خزانات لهذه الترجمات وغيرها من المخطوطات القيمة[٢٢] . وكان المنصور شديد الحرص على هذه الكتب ووصى بها الى ابنه ولى عهده محمد المهدى ، وكان المهدى قليل العناية بالكتب وخاصة بعد انتشار حركة الزنادقة ببغداد التى شغلته فضعفت حركة الترجمة فى عهده ، وتجنب العلماء ترجمة كتب الحكمة والنجوم والكتب التى تبحث فى الملل والنحل والأهواء والمعتقدات[٢٣] . ولكن حينما جاء الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ هـ/١٩٣ هـ ــ ٧٨٦ م/٨٠٨ م) وكان كثير الاهتمام بعلوم الحكمة وترجمة كتبها من اللغات المختلفة ، فاتسعت دائرة الترجمة وزاد عدد الموظفين المشتغلين بها ، وتألق فى عصره نجم عدد من العلماء أمثال الأصمعى النحوى المشهور وجبريل بن بختيشوع[٢٤] . فتجمع لدى الرشيد عدد كبير من الكتب فرأى انشاء مكان لتحفظ فيه هذه الكتب التى جمعها فأنشأ بيت الحكمة مما ساعد على انتشار التعليم[٢٥] .

هكذا فان تاريخ تأسيس بيت الحكمة يرجع الى الخليفة هارون الرشيد

---

(٢٢) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣٨٣ .

(٢٣) الطرازى الفيكنت فيليب (**خزائن الكتب العربية فى الخافقين**) (دار الكتب اللبنانية ــ بيروت ــ بدون تاريخ) ج ١ ص ٩٩ .

(٢٤) سيد أمير على ، (**مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامى**) . (طبع بمصر ــ القاهرة ١٩٣٨ م) ص ٢١٧ .

(٢٥) خودابخس (صلاح الدين) ، (**الحضارة الاسلامية**) ، ترجمه على حسنى الخربوطلى (دار احياء الكتب العربية ــ القاهرة ١٩٦٥ م) ص ١٦٠ .

فقد ذكر ابن النديم[٢٦] فى كلامه عن أبى سهل الفضل بن نوبخت أنه كان فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد ، وذكر فى ترجمة علان الشعوبى أنه كان منقطعا الى البرامكة وينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة[٢٧] . وحتى يتم مشروع ترجمة الكتب الأجنبية وحفظها فى بيت الحكمة ولى عدة علماء أمرها ، فعهد الى الفضل بن نوبخت[٢٨] أمر العناية بالكتب الفارسية والى يوحنا بن ماسويه وهو شيخ النقلة فى عصره ، ويقول ابن أبى أصيبعة « كان يوحنا بن ماسويه سريانيا قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أمينا على الترجمة»[٢٩] . ومنح العلماء الكثير من الحرية والتكريم ، وقد منح مرة أحد العلماء مائة ألف درهم[٣٠] . ومعظم الكتب التى وصلت عن الهنود فى الطب والفلك والرياضيات . وقد تم الانتهاء من نقلها فى عصر الرشيد ، وكان بعض علماء الهنود قد وفدوا الى بغداد منذ عهد المنصور سواء من تلقاء أنفسهم أو يدعوهم الخلفاء للحضور[٣١] . وقد وجهت العناية فى بداية أيام الرشيد الى الكتب الفارسية والهندية[٣٢] . فكما ذكرنا سابقا أن الرشيد هو الذى أسس بيت الحكمة وجعلها مقرا لنقل الكتب اليونانية والفارسية الى العربية ، بل لعله هو الذى بدأ تلك الحملات العسكرية ذات الهدف العسكرى ، وفى نفس الوقت ذات الهدف العلمى بقصد جلب نفائس المخطوطات اليونانية الى بغداد لتعريبها . ذلك أن الرشيد دأب على غزو الروم فى عقر دارهم فى غزوات أسماها الصوائف وكان يكسر شوكة الروم ويمنعهم من التفكير فى الهجوم على ديار المسلمين ، وفى نفس الوقت يوجه غزواته الى المدن اليونانية المتسورة لأنها معاقل الثقافة كعمورية وانقرة ، وكانت خزائن هذه المدن مليئة بالمخطوطات النادرة والكتب النفيسة التى كان سكانها قد جهلوا قيمتها[٣٣] .

---

(٢٦) ابن النديم ، محمد بن اسحاق أبى يعقوب . (**الفهرست**) (بيروت ـ لبنان ١٣٢٨ هـ) ص ٣٨٢ .

(٢٧) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

(٢٨) ابن القفطى : أخبار العلماء باخبار الحكماء . ص ٣٠٩ .

(٢٩) ابن أبى أصيبعة . عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣٠) السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن ابى بكر (**تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة**) (المطبعة الخيرية ـ مصر) ص ٢٨٥ .

(٣١) جلال مظهر ، (**حضارة الاسلام وأثرها فى الترقى العلمى**) (القاهرة ١٩٧٤ م) ص ٢٤٧ .

(٣٢) عبد الله عبد الدايم (**التربية عبر التاريخ**) (بيروت ط ٢ ٧٥ م) ص ١٥٨ .

(٣٣) محمد البرقوقى (**الخوارزمى العالم الفلكى الرياضى**) (الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٤ م) ص ٧٨ .

ولما جاء المأمون بعد ذلك كانت له فى العلم رغبة لما كان ينتحله فانبعث بهذه العلوم حرصا ، وأوفد الرسل الى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين وانتساخها بالخط العربى ، وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظار من أهل الاسلام وخدموا فى فنونها وانتهت الى الغاية أنظارهم فيها ، وخالفوا كثيرا من آراء المعلم الأول أرسطو واختصوه بالرد والقبول . ودونوا فى ذلك الدواوين ، وأربوا على من تقدمهم فى هذه العلوم(٣٤) . وبهذا نرى أن نشاط بيت الحكمة وصل الى ذروته فى عهد المأمون الذى كان واسع الثقافة حر الفكر . ولعل أحسن وصف للمأمون والحركة التى نشأت فى عهده وغذاها بماله ونفوذه وجهده وعلمه وجهاده هو قول القاضى صاعد الأندلسى(٣٥) فى كتابه « طبقات الأمم » حيث يقول : « ثم لما أفضت الخلافة الى الخليفة السابع منهم — يقصد بنى العباس — عبد الله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدى ابن أبى جعفر المنصور فتم ما بدأ به جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة ... » .

ولقد بنى الخلفاء والأمراء دورا للعلم والحكمة كانت تحوى كل منها مكتبة تفتح لطلاب العلم ، وبعضها يجرى فيها أرزاق على المشتغلين بالعلم وبعضها كانت مراكز للنقل والترجمة(٣٦) . وذلك لما طرأ على حركة الترجمة والتأليف من نشاط فى العصر العباسى ، وكذلك تقدمت صناعة الورق ، فكثرت المكتبات التى كانت تزخر بالكتب الدينية والعلمية والأدبية .

وعلى بن المنجم هو أول من أسس مكتبة عامة فتح أبوابها للراغبين فى تلقى العلم ، وعين فيها موظفين يتقاضون رواتبهم من ماله الخاص لمساعدة الوافدين عليها كما تفعل البلاد المتحضرة اليوم . ولم يكتف بهذا بل بنى أجنحة فى قصر له بضواحى ببغداد لاقامة الراغبين فى التعليم ومطالعة الكتب ، فكانوا يأكلون على نفقته وكأنما أراد أن يجعل من مكتبته جامعة عامة . وفضل على بن يحيى المنجم يفوق كل فضل فى هذا المضمار لأنه كان فردا واحدا ، وضع على عاتقه

---

(٣٤) ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون المغربى) (**المقدمة**) (المكتبة التجارية الكبرى — القاهرة ، بدون) ص ٨٩٢ ، ص ٨٩٣ .

(٣٥) صاعد بن أحمد الأندلسى (**طبقات الأمم**) (طبعة مصر) ص ٤٧ .

(٣٦) د. حسن ابراهيم حسن ، (**تاريخ الاسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى**) . (طبعة مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ١٩٥٣ م) ج ٢ ص ٢٥٨ .

هـذا العبء الكبير متطوعا كما كانت داره فى (سر من رأى) مضـافة لكل أديب وعالم يمنحهم الهبات وينتزع العطايا من الكبراء ويقربهم الى الخلفاء والأمراء . وقال أبو على التنوخى فى كتابه « نشوار المحاضرة » : « كانت لعلى بن المنجم نفيسة وقصر فيه خزانة كتب عظيمة نسميها خزانة الحكمة ، يقصـدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها صنوف العلم والكتب مبذولة فى ذلك لهم ، والصيانة مشتملة عليهم والنفقة من مال على بن يحيى »(٣٧) . وكان يحيى بن المنجم قـد خـدم المـأمون نادما واتصل على فى أيام شبابه بمحمد بن اسحاق المصعبى من زعمـاء ذلك العصر ثم اتصـل بالفتح بن خاقان وزير المتـوكل وصـديقه وأسس لـه مكتبة كبيرة من الكتب ، يستنسخ لهـا الكتب القيمة بنفسه أو يستأجر من يفعل ذلك تحت اشرافه حتى بلغت مبلغـا كبيرا واتصل بعـد ذلك بالمتـوكل وحظى عنده حظـوة عظيمة فكانا لا يفترقان تقريبـا(٣٨) .

وقـد أسس الخليفة المعتضد أيضـا دورا ومساكن ومقاصـد للتعليم وكانت دور الكتب سـواء العامة أو الخاصة عامرة بالكتب من جميع فروع العلم والمعرفة . وبلغ عـدد الكتب فى بعضها أكثر من مليون كتاب ، والى جانب دور الكتب انتشرت محال الوراقـة كمراكز للعلم والمعرفة والثقافة اذ كانت تعمل فى نسخ الكتب وتجويد الخط ، بالاضافة الى أهميتها كمراكز أدبية . وكانت خزانة سابور بن اردشير مركزا ثقافيا ممتازا يلتقى فيه العلماء والباحثون للقراءة والدرس ، وطالمـا أخـذت فيها المناظرات والمناقشات ، وذكر أن عـدد كتبها يزيد على عشرة آلاف مجلـد فى شتى العلوم والمعارف فنجد منها كتب الأدب والفقه والحـديث والفلسفة وغيرها . ومما يدلنا على أهميتها العلمية أن بعض المؤلفين كانوا يخلدون ذكرهم بتقـديم نسخة ممـا يؤلفونه من الكتب القيمة الى دار العلم ومنهم جبرائيل بن عبد الله بن بختيشوع فقـد وقف نسخة من كتابه « الكافى » على دار العلم المذكورة(٣٩) . وهناك أيضا مكتبة اسحاق بن سليمان العباسى ، وكانت تمتلىء بالكتب والأسفاط والرقوق والدفاتر والمساطر والمحابر(٤٠) . وأضخم منها مكتبة يحيى بن خالـد البرمكى ويقال انه لم يكن فى مكتبته كتاب الا ولـه نسخة(٤١) .

---

(٣٧) التنوخى ، أبو على الحسن بن على بن محمد بن أبى الفهم ، (**نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**) (دمشق ١٣٤٨ هـ) جـ ٨ ص ١٠٨ .

(٣٨) زكريا هاشم زكريا ، فضل الحضارة الاسلامية العربية على العالم ص ٢٨٢ ، ٢٨٥ .

(٣٩) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٠٥ .

(٤٠) الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحـر الجاحظ البصرى (**الحيـوان**) (مطبعـة السعادة بمصر ١٩٠٧ م) جـ ١ ص ٦١ .

(٤١) المصـدر نفسـه جـ ١ ص ٦٠ .

وربما فاق هذه المكتبة عظما وضخامة مكتبة الواقدى المؤرخ المشهور المتوفى ٢٠٧ هـ وكانت تشتمل على ستمائة صندوق مملوءة بالكتب(٤٢) . وكان لها مملوكان يكتبان له ليلا ، ولعل فى ذلك ما يدل دلالة واضحة على أن الكتب اصبحت مادة أساسية للمعرفة . والحق الخلفاء والأمراء وبعض الوزراء بقصورهم وبيوتهم مكتبات ضخمة فكان للمبشر بن فاتك (ت ٤٨٠ هـ) أحد اعيان أمراء مصر وعلمائها مكتبة قيمة فى العلوم الرياضية والفلسفية وغيرها . وكان للخليفة الناصر لدين الله مكتبة كبيرة جدا ، كما كان للخليفة المستعصم بالله مكتبة ضخمة فى داره تحوى نفائس الكتب فى مختلف العلوم(٤٣) . ومكتبة المستعصم بالله وهو آخر الخلفاء العباسيين وقتله المغول عقب سقوط بغداد ٦٥٦ هـ عظيمة جدا تحدثت عنها المراجع المختلفة حديثا ينبىء عما كان لها من عظمة وجلال .

ويقول ابن الفوطى(٤٤) . ان الخليفة أمر فى سنة ٦٤١ هـ بعمل خزانة للكتب فى داره وكتب على جهاتها أشعارا منها ما نظمها صفى الدين عبد الله بن جميل فيقدم شعر الديوان :

انشأ الخليفة للعلوم خزانة صارت بسيرة فضله اخبارها

اهدى مناقبه لها مستعصم بالله من لألائه انوارها

كما انه فى ذلك الوقت كانت الكتب تستهوى الناس أكثر مما يستهويهم الاستماع الى المدرس وهكذا . ومن هذا النوع دار العلم التى انشأها بالموصل أبو القاسم جعفر بن محمد الموصلى وجعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب علم ، ولا يمنع أحد من دخولها . واذا جاءها غريب طلب الأدب وكان معسرا أعطاه ورقا وورقا : وكانت تفتح فى كل يوم ويجلس فيها اذا عاد من ركوبه ويجتمع اليه الناس ويملى عليهم من شعره وشعر غيره(٤٥) .

وكان كثير من العلماء يوقفون نسخا مما يملكون على دار العلم هذه

---

(٤٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٨ ص ٢١٨ .

(٤٣) د. محمد عجاج الخطيب (**لمحات فى الكتابة والبحث والمصادر**) (مؤسسة الرسالة – بيروت لبنان ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م ط ٦) ص ٣٩ .

(٤٤) ابن الفوطى ، أبو الفضل عبد الرزاق ، (**الحوادث الجامعة والتجارب النافعة**) تحقيق مصطفى جواد (بغداد – المكتبة العربية ١٩٣٢ م) ص ١٨٤ .

(٤٥) ياقوت الحموى ، معجم الادباء جـ ٢ ص ٤٢٠ .

وقـــد فعـــل ذلك حمد بن على خيران الكاتب المصرى ، فقـــد أرسل جزاين من شعره ورسائله يستشير فى تجليدهما بدار العلم وأبدى استعداده أن ينفـــذ بقية الديوان والرسائل ، ان علم أن ما انفـــذه منها ارتضى واستجيب(٤٦) . وكذلك فعـــل جبريل ابن بختيشوع فانه لمـــا أتم مؤلفه الذى سماه الكافى وقف نسخة منه على دار العلم ببغـــداد كالتى بالبصرة ، والداران جميعا اتخـــذهما الأدباء والعلماء مرجعا ومصدرا لمـــا يبغـــون ، الا أن دار البصرة كانت أكبر وأعمـــر وأكثر كتبـــا وفى هـــذه بدأ شـــيخ يدرس عليـــه الكلام على مذهب المعتزلة(٤٧) . ونتيجـــة للحـــركة التى بداها فى بغـــداد بانشاء بيت الحكمة فقـــد أخـــذت معظم المدن(٤٨) الاسلامية فى انشاء المكتبات الكبرى التى تضم أمهـــات الكتب . ويمكن توضـــيح حركة نمـــوها بالجـــدول التالى :

---

(٤٦) المصدر نفسه ج ١ ص ٤٤٢ .

(٤٧) المقدسى ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابى بكر (**أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم**) (ليدن ، مطبعة بريل ١٩٦٧ م) ص ٤١٣ .

(٤٨) د. عباس صالح طاشكندى . (**مخطوطات الحرمين الشريفين قطعة من تراثنا**) . مجلـــة **الفيصـــل** العدد الأول – السعودية (١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م) . ص ٩ ، ١٠ .

المدينة	اسم المكتبة	منشئها	تاريخ الانشاء
بغداد	بيت الحكمة	هارون الرشيد	فى أواخر ٢ هـ
	دار العلم	سابور بن أردشير	٣٨١
	المكتبة النظامية	الب ارسلان	٤٥٧
	المكتبة المستنصرية	المستنصر	٦٣١
الموصل	دار العلم	ابن حمدون	٣٢٤
البصرة	مكتبة ابن ساوار	ابن ساوار	القرن الرابع
حلب	مكتبة الحمدانى	الأمير الحمدانى	القرن الرابع
القاهرة	مكتبة الأزهر	العزيز	٣٧٠
	دار الحكمة	الحاكم بأمر الله	٣٩٥
	المكتبة الفاطمية	القاضى الفاضل	
غزنه	مكتبة غزنه		٤٢٥
مرو	المكتبة النظامية	نظام الملك	القرن الخامس
	المكتبة العزيزية	عزيز الدين	القرن السادس
شيراز	مكتبة عضد الدولة	عضد الدولة	٣٦٧
قرطبة	مكتبة المستنصر	المستنصر	٣٥٠
فاس	مكتبة فاس	السلطان عبد الحق	٥٩٢

ثالثا ــ الأهــداف المراد تحقيقها من تاسيس بيت الحكمة :

ولم تكن الكتب والمساجد كل ما هيــأ لازدهار الحركة العلمية حينئذ فقد هيــأ لهــا ايضا مجالس الخلفاء والوزراء والأمراء والسراة اذ تحولت الى ما يشبه ندوات علمية يتناظر فيها العلماء من كل صــنف على نحــو ما يروى من مناظره الكسائى والكوفى واليزيدى والبصرى بين يدى المهــدى(٤٩) .

فبيت الحكمة مكتبة الدولة مفتوحة على مصراعيها ودور أخرى كثيرة ودكاكين الوراقين بالمثل تعرض كل ما يطلبه القارىء ، وحلقات المساجد تمــوج بالحاضرين فى مختلف فروع المعرفة ، ولكل شخص الحــق فى أن يستمع الى ما يرغب فيه من هــذه المحاضرات . وبالمثل صنعوا مــع الوزراء وذوى النباهة والشان . ومر بنــا فى حــديثنا عن خزانات الكتب ما اقام على بن يحيى المنجم فى صنيعه له من خزائن ضخمة للكتب كان الناس يؤمونها من كل بلد فيجــدون فيها نفعتهم ، وما يشاءون من كتب لا تكاد تحصى . وكان الخلفاء منذ المتوكل يسبغون عليه عطايا جزيلة فكان ينفقها على مكتبته وعلى الناس من شعراء وغير شعراء(٥٠) .

كما ازدانت بغــداد ببيت الحكمة التى اكسبتها مجــدا وعزا وجــذبت اليها العلماء ، والطلاب من مختلف أقطار العالم الاســلامى الكبير ففى تاريخ دار العلم أو بيت الحكمة ببغــداد لا تكاد تعثر على اسم امراة فى خــدمة هــذا الصرح العلمى اللهم الا عبارة وردت فى رسالة الغفران تشير الى أمة غير عربية اسمها « توفيقــة السوداء » كانت تخــدم دار العلم ببغــداد فتقــدم الكتب الى النساخ وهذه الوظيفة تقابل فى المكتبة الحــديثة المناولين(٥١) .

فالتشجيع العلمى والتزام الدولة الاسلامية بأداء واجبها فى هــذا الميدان واقبال الأمة على العلم ، وتفتح القلوب للاسلام عقيدة وعبادة وشريعة وأخلاقا ، كل ذلك ولــد نشاطا علميا واسعا فى مختلف ميادين العلم والمعرفة فى الدولة الاسلامية فى

---

(٤٩) د. شوقى ضيف . (**العصر العباسى الأول**) . (دار المعارف بمصر ــ القاهرة ١٩٦٣ م) ص ١٠٣ .

(٥٠) د. شوقى ضيف . (**العصر العباسى الثانى**) . (دار المعــارف بمصر ــ القــاهرة ط ٢ ١٩٧٣ م) ص ١٨٩ .

(٥١) د. عائشة عبد الرحمن . (**رسالة الغفران**) . (دار المعارف بمصر ــ القاهرة ١٩٦٣ م) ص ٣٨٧ .

القرون الستة الأولى نشاطا لم يعهد التاريخ مثله ، فحقق الازدهار الحضارى العظيم الذى خلد أعمال العلماء المسلمين وأمد التراث الانسانى بذخيرة علمية قيمة لا يزال العالم مدينا لها حتى هذا العصر . ولكن سنة الحياة التى جعلت من عصور القوة فى الدولة الاسلامية عصور ازدهار لحضارتها العلمية والفنية والعمرانية ، هى نفسها التى عرضت تلك الدور العلمية العامرة لمثل ما تعرضت له الدولة فى عصور ضعفها وانحدارها وواجهت معها نهاية واحدة . وبحكم ارتباطها مجتمعة بمصير واحد ، وبدأ التحول مع نهاية القرن الرابع الهجرى الذى هو فى حساب المؤرخين عصر القوة . وقد استمرت خزائن الحكمة فى العمل وتأدية رسالتها بعد المأمون ولكنها فقدت شيئا كثيرا من أهميتها مع توالى الزمن(٥٢) . وقد كانت لا تزال موجودة فى أواسط القرن الرابع للهجرة عندما ألف ابن النديم كتابه (الفهرست) اذ أنه استعمل مواد كانت موجودة فى بيت الحكمة كما يذكر هو نفسه ذلك أثناء حديثه عن القلم الحميرى(٥٣) . أما بيت الحكمة فيغلب الظن أنه استمر موجودا طوال العصر العباسى وانه دمر فيما دمر عندما احتل المغول بغداد(٥٤) سنة ٦٥٦ هـ . ومن أهم الأهداف التى سعى مؤسسو بيت الحكمة وعلى رأسهم الرشيد والمأمون لتحقيقها لاقامة هذا الصرح العظيم هو تنشيط حركة التأليف والترجمة والتصنيف . فقد بلغت الحضارة العربية الاسلامية أوجها فازدهرت ازدهارا عظيما فى العصر العباسى ، حيث وصلت الى المستوى الحضارى الذى تفخر به الأمم والشعوب المتحضرة حيث كان يقاس المستوى الحضارى بالآثار المكتوبة الفكرية يعنى الكتب والتأليف(٥٥) .

ولو رجعنا الى مادة الفكر والتأليف لرأينا العرب بلغوا من الدرجات ما لم يبلغ الغرب مثلها الا فى العصر الأخير . ومن ثم يصح القول بأن التصنيف ابتدأ فى العصر العباسى . معنى هذا أن تصنيف الكتب على أسلوب دقيق بدأ فى هذا العصر الا أن الكتابة والتأليف والجمع حدث قبل العصر العباسى . وأيا كان الأمر فالحركة العلمية فى العصر العباسى كانت قوية لدرجة تذهل الانسان ، فهذه البصرة تؤلف الكتب وتستخرج الآراء ، وتضع النحو . وهذه الكوفة تكتب فى

---

(٥٢) المرجع نفسه ص ٢٨٨ .

(٥٣) ابن النديم ، الفهرست ص ٨ .

(٥٤) القلقشندى . (**صبح الأعشى فى صناعة الانشا**) . (المطبعة الأميرية ـ القاهرة ١٩١٣ م) ج ١ ص ٤٦٦ .

(٥٥) د. يوسف العش : (**تاريخ عصر الخلافة العباسية**) . (دار الكتاب دمشق ١٩٦٨ م) ص ٢٢٣ .

التاريخ والأدب وتؤلف فى النحـــو . وهـــذه بغـــداد تضم خضما هائلا من العلمـــاء يتكاثرون فى المساجد ويكتبون العلم حتى اذا ما وصـــلنا الى عصر المـــأمون رأينـــا معظم المتعلمين ينكبون على اخراج الكتب(٥٦) .

واستفاد خلفاء بنى العباس من المدارس الموجودة فى عهدهم ، فنشطت حركة التأليف والترجمة حيث قاموا بالاتصـــال بعلمـــاء هـــذه المدارس واستدعوهم الى بغـــداد ، وكانوا ينفقون عليهم الأموال الكثيرة لترجمة الكتب الى اللغة العربية . ودامت هـــذه الأعمال ، أعمال الترجمة المحضة المثمرة بين عام (٧٥٠ ـــ ٩٠٠ م) وفى هـــذه الفترة عكف المترجمون على نقـــل أمهات الكتب من السريانية واليونانية والفهلوية والسنسكريتية ، وكان على رأس أولئك المترجمين المقيمين فى بيت الحكمـــة طبيب نسطورى هو حنين بن اسحاق (٨٠٩ ـــ ٨٧٣ م) وقـــد ترجم وحـــده كما يقول هـــو نفسه الى السريانية مئة رسالة من رسائل جالينوس ومدرسته العالمية والى اللغة العربية تسعا وثلاثين رســـالة أخرى ، وبفضل هـــذا نجت بعض مؤلفات جالينوس من الفناء . وكاد المـــأمون أن يفلس بيت المـــال حين كافأ حنين على أعماله بمثل وزن الكتب ذهبـــا(٥٧) .

ومن هنـــا يتضح لنـــا كيف حافظت بيت الحكمة على التراث العالمى وانقـــذته من الفنـــاء ، وخير مثال على ذلك مؤلفـــات جالينوس وهـــذا أحـــد أهـــداف بيت الحكمة . وقـــد انشأ المـــأمون فى بغـــداد مدرسة لتخريج المترجمين ، وهى مكمـــلة لدار الحكمة وعنى بها المـــأمون وجعل سهل بن هارون أمينا عليها(٥٨) .

وكانت رسالة بيت الحكمة الأساسية ترجمة الكتب اليـــونانية الى العربية على يد يوحنـــا بن ماسويه وحنين بن اســـحاق ، وســـلم خازن بيت الحكمة فى زمن المـــأمون ، وممن حاضر فيه وألقى دروسا الامام الخوارزمى(٥٩) . فقـــد زخرت خزائن بيت الحكمة بالكتب المترجمة وأقبل الناس على قراءة هـــذه الكتب والتمعن فيهـــا

---

(٥٦) ول. ديورانت : (**قصـــة الحضارة**) ترجمة محمد بدران (طبع الادارة الثقـــافية بجامعـــة الدول العربية) ج ٢ ص ١٧٧ .

(٥٧) ول. ديورانت : (**قصـــة الحضارة**) ج ٢ ص ١٧٧ . ١٧٨ .

(٥٨) محمد غفرانى خراسانى : **عبد الله بن المقفع**) . (مكتبة نهضة مصر بالفجالة ـــ القاهرة ١٩٧٠ م) ص ٣٦ .

(٥٩) محمد عبد الجواد الأصمعى : (**أبو الفرج الأصفهانى**) . (دار المعارف بمصر ـــ القـــاهرة ١٩٢٣ م) ص ٤٦ .

نادى ذلك الى حركة فكرية جديدة فى التاليف والنشر ، هذه الحركة انتجت ثقافة واسعة مبنية على القديم والحديث . كما كان من أهداف بيت الحكمة نشر التعليم والمعرفة بين المسلمين فانشاء هذا المعهد العالى ان جاز لنا التعبير كان نتيجة لهذا التقدم العلمى فى العصر العباسى(٦٠) ، ومما لا شك فيه أنه ساعد على نشر التعليم بين جمهور المسلمين ، ولم يكن انشاء دور الكتب مقصورا على العراق بل قامت فى مصر والاندلس دور كتب خاصة يتعهدها الخلفاء والأمراء والوزراء فكانت عاملا كبيرا فى تسهيل دراسة العلم والتعليم . كذلك لم يكن التعليم مقصورا على الجوامع والمساجد فكثيرا ما كانوا ينسقون حلقات التدريس بالمستشفيات والرباطات وغيرها من الأماكن(٦١) .

وبانشاء بيت الحكمة تم ادخال نظام جديد على العالم الاسلامى للمكتبات ، فقد كان لمحمد بن يحيى بن عبد الله العباسى بن محمد بن صول أبى بكر المعروف بالصولى وهو أحد العلماء كما يقول شاذان : « رأيت للصولى بيتا عظيما مملوءا بالكتب وهى مصفوفة وجلودها مختلفة الألوان ، كل صف من الكتب لون ، فصف أحمر وآخر أخضر ، وآخر أصفر وغير ذلك . قال وكان الصولى يقول : هذه الكتب كلها سماعى »(٦٢) . وهذا الترتيب البديع هو أحدث نظام متبع فى ترتيب مكتبات أوروبا .

ومن أهداف بيت الحكمة حرصها الشديد على المحافظة على الكتب والمصنفات التى تترجم أو تصنف . فقد ارتبط بظهور الحركة العلمية ونشاطها فى بغداد المحافظة على الكتب والمصنفات . ومن هنا جاء دورها الهام باقامة جهاز ادارى يتولى الاشراف والتنسيق داخل بيت الحكمة . وكان العلماء فى الدولة الاسلامية يودعون نسخا من مؤلفاتهم فى بيت الحكمة(٦٣) على أن يقوم الجهاز الادارى بالمحافظة على تلك المؤلفات من الضياع . وفى عهد العباسيين

---

(٦٠) د. نقولا زيادة : (**صور من التاريخ الاسلامى**) . (دار العلم الملايين – بيروت لبنان – بدون تاريخ) ص ٢٤١ ، ٢٤٣ .

(٦١) جورجى زيدان : (**تاريخ التمدن الاسلامى**) مراجعة وتعليق حسين مؤنس (طبع دار الهلال – القاهرة ١٩٠٢ م) ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٦٢) البغدادى ، ابو بكر احمد بن على الخطيب : (**تاريخ بغداد او مدينة السلام**) . (مطبعة السعادة بمصر – القاهرة ١٩٣٢ م) ج ٣ ص ٤٣١ .

(٦٣) د. عصام الدين عبد الرءوف : (**الحواضر الاسلامية الكبرى**) . (دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٧٦ م) ص ٢٤٧ .

« نراهم مستودع الذخائر العلمية فى العالم ، كما نرى وكلاء الخلفاء ينقبون فى كل بلد من بلاد العالم عن كنوز الثروة القديمة ثم يجلبونها الى العاصمة بغداد ويعرضونها عللى الناس فينظرون بعين الاعجاب والتقدير »(٦٤) .

كما كانت تقام ببيت الحكمة المراصد ، وتستخدم فيها أساليب التنجيم ، واستطاع الخليفة المأمون أن يجعل من هذا البيت كعبة للعلماء وأن ينظمهم التنظيم الدقيق . وكانت بيت الحكمة التى عنى بها الرشيد والمأمون مد يده وعينيه ؛ فكانت تكتظ بكتب الفلسفة وعلوم الأوائل فانقض عليها انقضاضا يقرأ ويستوعب ويستسيغ ويتمثل تمثلا نادرا(٦٥) .

أما الاستفادة من مزج الثقافات المختلفة والمعارف المتباينة ، فقد كانت من أهم أهداف بيت الحكمة ، وساعدها على ذلك دخول الموالى والبرامكة وغيرهم من الطوائف الأخرى فى أحضان الدولة العباسية . فقد كان يعمل فى بيت الحكمة علماء تنوعت ثقافاتهم ومعارفهم فسهل بن هارون صاحب خزانة بيت الحكمة كان حكيما شاعرا ، وجدير بالذكر أنه فارسى شعوبى المذهب شديد العصبية على العرب ، ويصف الجاحظ براعته وفصاحته وله عدة كتب ، وازداد عدد الكتب فى عهد الخليفة المأمون فلم تكن الكتب اليونانية هى التى حرص على نقلها الى بيت الحكمة بل نجد المأمون يطلب من يحيى بن البطريق احضار كتب لاتينية الى بغداد . وقد كان يحيى بن البطريق على علم بهذه اللغة . وبذلك ضم بيت الحكمة كتبا فى مختلف اللغات ومختلف العلوم(٦٦) .

وقد ساعد الموالى بدخولهم فى أحضان الدولة العباسية على أن يكون هذا العصر هو العصر الذهبى فى تاريخ الترجمة والنقل عند العرب ، واستطاعوا لاتقانهم السريانية واليونانية ان ينقلوا الى اللسان العربى كل ما كان معروفا من العلم والفلسفة والطب والنجوم والرياضيات والأدبيات عند سائر الأمم المتمدينة(٦٧) . وأضاف البرامكة الى هذه الخزائن الكثير من الكتب وخصوصا الفارسية فى آخر

---

(٦٤) سيد امير على : (**روح الاسلام**) ، ترجمة أمين محمود الشريف (مكتبة الآداب ـ القاهرة ١٩٦٣ م) جـ ٢ ص ٢٥٦ .

(٦٥) د. شوقى ضيف : العصر العباسى الثانى جـ ٢ ص ٢٩٨ .

(٦٦) ابن القفطى : أخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٢٨٠ .

(٦٧) د. خليل طوطح : (**تاريخ التربية عند العرب**) ، (القدس ١٩٣٣ م) ص ١٥ .

عهد الرشيد فقد ضمت خزائن بيت الحكمة كثيرا من الكتب بلغات متعددة منها العربية واليونانية والفارسية والسريانية وبعض اللغات الهندية(٦٨) .

كما أنفق المأمون أموالا طائلة فى جلب الكتب من الدولة البيزنطية . فبيت الحكمة هو مجمع علمى ومرصد فلكى ومكتبة عامة أنفق فى انشائه مائتى الف دينار (نحو ٩٥٠.٠٠٠ دولار أمريكى) . فأقام فيه طائفة من المترجمين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت المال . ويدلنا على عظمة بيت الحكمة وأهميتها ما يقوله ابن خلدون(٦٩) « ان الاسلام مدين الى هذا المعهد العلمى باليقظة الاسلامية الكبرى التى اهتزت لها أرجاؤه والتى تشبه فى أسبابها — وهى انتشار التجارة ، واعادة كشف كنوز اليونان — وفى نتائجها — وهى ازدهار العلوم والفنون » . نقول انها تشبه فى أسبابها ونتائجها النهضة الأوروبية التى أعقبت العصور الوسطى .

---

(٦٨) د. عصام الدين عبد الرءوف : المحاضر الاسلامية الكبرى ص ٢٤٦ .

(٦٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢٦ .

الفصل الثانى : إنشاء بيت الحكمة

١ ــ من هم منشئو بيت الحكمة ٠

٢ ــ الطرق والوسائل التى تم بها انشاء بيت الحكمة ٠

٣ ــ العوامل التى ساعدت على انشاء بيت الحكمة ٠

أولا — من هم منشأو بيت الحكمة :

ان العصر العباسى يعتبر عصر الابداع فى الحضارة الاسلامية فيه بلغت الحضارة الاسلامية أوجها وأثمرت ثمارها اليانعة ، فهو عصر الاسلام الذهبى الذى بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغه من قبل ولا من بعد ، اثمرت فيه الفنون الاسلامية ، وازدهرت الآداب العربية ، ونقلت العلوم الأجنبية ونضج العقل العربى فوجد سبيلا الى البحث ومجالا للتفكير ، ففى العصر العباسى حينما تلاقحت الثقافات وأقبل الناس على حياض العلم ظمأى ينهلون وتعمقوا فى فهم حقائق الكون على نسق فلسفى معلل . وانتشرت الترجمات من كتب الحكماء والمناطقة وأخذ العلماء يحللون ويعللون الأشياء والحوادث والأخلاق بعلل عقلية منظمة(٧٠) .

وقد عنى العباسيون سواء أكانوا خلفاء أو أفرادا بالمكتبات لأنها كانت طريقة القدماء فى نشر العلم فلما كان يتعذر على الأغنياء اقتناء الكتب نظرا لأنها كانت مخطوطات غالية الثمن ، لجأ من أحب تعليم الناس الى انشاء مكتبة تجمع فيها الكتب ويفتح أبوابها للناس كما فعل العباسيون فى بيت الحكمة . وكان خلفاء بنى العباس والأثرياء من رجال دولتهم يبذلون جهودا مشكورة فى جمع الكتب النادرة ، ويسهلون على أهل العلم الانتفاع بها . وكانت قصور الخلفاء والكبراء تتزين بخزائن تشتمل على العدد الكثير من الكتب . فقد أنشأ هارون الرشيد بيت الحكمة ليحفظ فيها الكتب التى جمعها مما يساعد على انتشار التعليم ، وحتى يتم المشروع بنجاح ولى عددا من العلماء أمر هذا البيت فعهد الى الفضل بن نوبخت امر العناية بالكتب الفارسية والى يوحنا بن ماسويه وهو من جنديسابور أمر الكتب الاغريقية التى جلبها هارون الرشيد معه من آسيا الصغرى ومنح العلماء الكثير من الحرية والتكريم . فقد منح مرة سفيان بن عيينة مائة ألف درهم ، ومنح اسحاق الموصلى فى مناسبة أخرى مائتى ألف درهم كما منح مروان بن أبى حفصة مقابل قصيدة مدح خمسة آلاف دينار .وخلع عليه ومنحه جوادا من جياده الخاصة وعشرة أرقاء يونانيين(٧١) .

والتفت جماعة كبيرة من العلماء حول هارون الرشيد مثل البرامكة والقاضى أبى يوسف والشعراء مثل مروان بن أبى حفصة وأبى نواس وغيرهم مما ألقى

---

(٧٠) د. محمد ماهر حماده : (**الوثائق السياسية والادارية العائدة للعصور العباسية المتتابعة**) . (مؤسسة الرسالة بيروت — لبنان ط ١ ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م) ص ٧ .

(٧١) خودا بخش (صلاح الدين) . الحضارة الاسلامية ص ١٣٠ .

ضـــوءا ساطعا على عصره . فالرشيد هـــو الذى بدأ تلك الحركة العلمية فحشد الكتب اليونانية والفارسية فى مكتبته وعرب لهـا من اللغات الأصلية الى اللغـة العربية ، بل لعله هـو الذى بدأ تلك الحملات العسكرية ذات الهـدف العلمى ، فقصـد جلب نفـائس المخطوطات اليونانية الى بغـداد لتعريبها ، ذلك أن الرشيد كان يقـوم بنفسـه بغزو بلاد الروم كل سـنة ، فكان يطلق على الغزوات اسم الصـوائف ، واذا تأملنا الباعث على هـذه الغزوات الصيفية اتضح لنـا أنهـا كانت غزوات علمية بمعنى أدق ، لأن الرشيد وان كان يقصـد منها القضاء على قوة الروم واخضاع شوكتهم ، كان يهتم الى جانب ذلك كل الاهتمام بالحصول على المزيد من الكتب والمخطوطات فى مختلف أنواع العلوم ، كالطب والفـلك والرياضـيات والفلسفة . أما طريقة حصوله على تلك الكتب فكان يهتم بأن يتجه بغزواته المشهورة لمعاقـل الثقافة اليونانية فى آسيا الصغرى كأنقرة وعمورية وغيرها . وكانت خزائن هـذه المدن مليئة بالمخطوطات النادرة والكتب النفيسة التى كان سكان تلك المدن قـد جهلوا قيمتها ولم يعودوا يعرفون من أمرها الا أنها مخلفات قـديمة(٧٢) .

وكان هارون الرشيد يحرز النصر دائمـا فى هـذه الصوائف ، وكان يجعل من شروط الصلح الحصول على الكتب التى كان يريدها حيث ذكرنا من قبـل أنه كان يقبل الجزية كتبا ، ولم يكن الرومان يبدون كبير معارضة بالرشيد فى الحصول على هـذه الكتب(٧٣) . فقـد روى أن الرشيد ولى يوحنا بن ماسويه ترجمـة الكتب الطبيعية القـديمة لمـا وجـدها بأنقره وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحهـا المسلمون وسبوا سبيها ووضعه أمينا على الترجمـة ورتب له كتابا حـذاقا يكتبون بين يديه(٧٤) .

وأوضح من هـذا ما ذكره ابن النـديم(٧٥) « بأن أبا سهل الفضـل بن نوبخت كان فى خزانة الحكمة لهـارون الرشيد ، وفى موضع آخر كان علان الشعوبى ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمـأمون والبرامكة » .

---

(٧٢) محمد البرقـوقى : الخوارزمى العالم الفلكى الرياضى ص ٧٨ .

(٧٣) د. محمد ماهر حماده : (**المكتبات فى الاسلام**) . (مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنـان ط ٢ ١٣٩٨ هـ/١٩٧٨ م) ص ٥٦ .

(٧٤) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٢٤ .

(٧٥) ابن النـديم : الفهرسـت ص ٢٨٤ .

نستطيع أن نستنتج من هـذا أن خزانة الحكمة فى عهد الرشيد كان يعمـل فيها علمـاء مختلفو الثقافات فيوحنا نصرانى سريانى لـه قـدرة على ترجمة الكتب اليونانية ، وابن نوبخت فارسى كما قال القفطى(٧٦) « ينقـل من الفارسية الى العربية من الكتب الفارسية ومعـوله فى كتبه وعلمه على كتب الفرس ، وعلان الشـعوبى راوية نسابة فارسى الأصـل » .

وكان الرشيد شـديد الاهتمام ببيت الحكمة حين عين لهـا رئيسا وأعـوانا فكانت كخلية النحـل الكل يجمع الرحيق من كل مكان ففيها النساخ والمترجمـون من اليونانية والفارسية وكان فيها مجلدون(٧٧) . أما من حيث الاسم الذى كان يطلق على هـذه الدار فهو خزانة الحكمة حينا ودار الحكمة حينا ، وحينا آخر يطلق عليها بيت الحكمة . أما خزانة الحكمة فهو اسم الموضع الذى يخزن فيه الكتب وفى القرآن الكريم : « وان من شى الا عندنا خزائنه »(٧٨) فاستعملوه للدلالة على المكان الذى حفظت فيه الكتب ، وقـد استعملت كلمة خزانة للدلالة على ذلك فى هـذا العصر كثيرا .

فقـد روى أن الجاحظ أراد أن يهـدى الى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم كتاب سيبويه فقال له ابن الزيات : أوظننت أن خزائننا خالية من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ : « ما ظننت ذلك ، ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائى وتهـذيب عمرو ابن بحر الجاحظ ، يعنى نفسه » فأخذها(٧٩) . وأما البيت فاستعملوه فى الدار واطلقوه على حـوانيت التجار والمواضع المباحـة التى تباع فيها الأشياء ويبيح أهلهـا دخـولها(٨٠) . وقـد أطلقـوا فى هـذا العصر كذلك بيت المـال على المكان الذى يحفظ فيـه مال الدولة ، فلا يبعـد أن يكونوا قـد اطلقوا كذلك بيت الحكمـة على المكان الذى حفظت فيه الكتب . أما كلمة الحكمة فقـد استعملوها فيما يرادف فلسفة فالظاهر أنهم أطلقوا خزانة الحكمة أو بيت الحكمة على مكان المجموعة من هـذه الكتب لأن كلها أو أكثرها ليست من الكتب الدينية بل من الكتب التى عنى بنقلها من الأمم الأخرى وأكثر هـذه كتب فلسفة أو حكمة ، وان كان فيهـا شىء من التحـف

---

(٧٦) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣٨٠ .

(٧٧) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٦٢ .

(٧٨) سورة الحجر ، الآية ٢١ .

(٧٩) ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد : (**وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان**) . (المطبعة الميمنية ـ القاهرة ، ١٣١٠ هـ) ج ١ ص ٥٤٩ .

(٨٠) ابن النديم : الفهرست ص ١٩٠ .

والآثار . كما كان سلم(٨١) وسهل بن هارون مشرفين على الخزانة ، أما متعاصرين ، ولكل دائرة اختصاص أو متعاقبين . ويظهر أن بيت الحكمة كان مجموعة خزائن ، كل مجموعة من الكتب خزانة ، وان سهل بن هارون كان مشرفا على القسم الذى أحضرته بعثة القسطنطينية — كذلك يغلب على الظن ان كتب الرشيد قد أفردت فى خزانة ، وكتب المأمون قد أفردت فى أخرى . فاننا نرى أن ابن النديم يستعمل أحيانا خزانة المأمون ، وأحيانا أخرى خزانة الرشيد(٨٢) .

وكل ما يدلنا فى تخطيط بغداد خبر عن بناء خاص للمكتبة ، وقد اعتاد الخلفاء أن يفعلوا هذا فى قصورهم(٨٣) . أما اذا انتقلنا الى عصر المأمون رأينا أن رغبته فى الفلسفة والعلوم العقلية ، اشد وميله أقوى وتبع ذلك اتساع العمل فى بيت الحكمة .

روى ابن النديم : « ان المأمون كان بينه وبين ملوك الروم مراسلات وقبه استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن فى انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلاد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع فأخرج المأمون بذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم وصاحب بيت الحكمة وغيرهم . فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمر بنقله فنقل ، وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه كان ممن نفذ الى بلاد الروم »(٨٤) .

قال ابن نباته عند الكلام على سهل بن هارون : وجعله كاتبا على خزائن بيت الحكمة ، وهى كتب الفلاسفة التى نقلت للمأمون من جزيرة قبرص وذلك أن المأمون لما هادن صاحب هذه الجزيرة أرسل اليه يطلب خزانة كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم فى بيت لا يظهر عليه أحد ، فأرسلها اليه واغتبط بها المأمون وجعل سهل بن هارون خازنا لها(٨٥) .

كما أرسل بعثة الى القسطنطينية لاحضار الكتب اليونانية من طبية وفلسفية ، وانه كان بين أفراد البعثة صاحب بيت الحكمة وهو سلم ، ومعروف انه كان فى

---

(٨١) سلم هذا هو صاحب دار الحكمة . جرونيباوم (جوستاف) ، حضارة الاسلام ص ٢٧ .

(٨٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٩٠ .

(٨٣) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٦٤ .

(٨٤) ابن النديم : الفهرست ص ٢٤٣ .

(٨٥) ابن نباته المصرى : (سرح العيون) . (القاهرة ١٢٧٨ هـ) ص ١٣٢ .

القسطنطينية مكتبة كبيرة أنشئت سنة ٣٦٦ هـ وعنى بعض الملوك بتوسيعها حتى بلغ ما فيها نحـــو مائة الف مجلد ، ومن التراجمة علان بن الحسن الوراق الشعوبى . وكان هـــذا فى خزانة الحكمة فى عصر الرشيد والمـــامون . كما انشئت المراصـــد والمكتبات والبيمارستانات والمدارس فى بيت الحكمة(٨٦) . واتجه المـــأمون الى بيت الحكمة فأفرد فيها لكل عالم ركنـــا فتزدحم جنبات هـــذا البيت بالعلماء والفلاســـفة والمترجمين والمؤلفين وائمـــة اللغة ورجال الأدب . الى جانب الكتاب المنشئين، كان هناك كتاب مؤلفون نذكر منهم عبد الله بن المقفع سنة ١٤٣ هـ وكان مختصا بالمنصور وله من الكتب كتاب كليلة ودمنة ، والادب الكبير ، والادب الصغير ، والدرة اليتيمة ورسالة فى الأخلاق ، وله كتب أخرى نقلها عن الفارسية منها كتاب التاج فى ســـيرة أنوشروان ، وكتاب سيرة ملوك العجم(٨٧) . كما أن سهل بن هارون سنة ١٧٣ هـ اقام فى بغـــداد يخـــدم المـــأمون وقـــد تولى له رياسة بيت الحكمة ولـــه من الكتب ديوان الرسائل والاخوان والمسائل وغيرها(٨٨) . وعلى بن عبيد الريحانى كان مختصا بالمـــأمون وقـــد ذكر له ابن النـــديم(٨٩) نحوا من خمسين مؤلفا ضاعت كلها .

---

(٨٦) ابن قتيبه ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى (**المعـارف**) (نور محمد . كراتشى – باكستان ١٢٩٦ هـ/١٩٧٦ م) ص ٩ . ١٠ .

(٨٧) ابن خلكان : وفيـات الاعيـان ص ١٤٩ .

(٨٨) الجاحظ : (**البيان والتبيين**) (تحقيق عبد السلام هارون . نشر مكتبه المثنى ببغـــداد ١٩٦٠ م) حـ ١ ص ٣٠ .

(٨٩) ابن النـــديم : الفهرســـت ص ١١٩ .

ثانيا ــ الطرق والوسائل التى تم بهـا انشاء بيت الحكمة :

وظـل بيت الحكمة يواصل رسالته فى الترجمة حتى بعـد انتهـاء العصر العباسى الأول ، وكانت الثروة العظيمة التى تجمعت لخلفـاء العصر العباسى الأول قـد أنفق الكثير منها فى هـذا الزاد العلمى العظيم وثمـة أمور أخرى كان لهـا اثرها فى الاقبـال على المعرفة القـديمة وورود مواردها ممثلة فى الحركة التعليمية ، وشيوعها وتقبل ملايين المسلمين من غير العرب للثقـافة العربية ، فنشأت العقليات التى لا تقنـع بالثقافات التقليـدية انمـا ترنو الى المزيد ارواء لتعطشها الى المعرفة وكان المورد الاغريقى الذى عبـوا منه عبـا(٩٠) .

وعصر الخليفة المـأمون عصر الازدهار العلمى الذى ازدهرت ونشطت فيه حركة الترجمة نشاطا واسع النطاق ، فقـد كانت بيت الحكمة من أهم مراكز الثقافة اليونانية ونشرها بين العرب الذين اقبلوا فى ذلك الحين اقبالا منقطع النظير وشجعهم على ذلك اقبال الخليفة نفسه على الثقـافة العقلية واعتزازه بالحرية الفكرية ، وتسامحه من الناحية الدينية ، تسامحا ادى الى تدعيم التيارات العقلية الجديدة ، التى اصطبغت بالثقافة اليونانية(٩١) . ومن هنا كان المـأمون من أكبر انصار مذهب المعتزلة الذى يقوم فى أساسه على تمجيد العقل والاعتزاز بحريته ، ولا يعنى ذلك أنه لم تكن هنـاك ترجمات قبـل عهد المـأمون فكما ذكرنا فقـد بذلت قبـل ذلك العهد جهـود ضخمة من قبـل الخليفة المنصور ثم هارون الرشيد من بعـده لنقل المـادة العلمية اليونانية الى اللسان العربى ، وقـد كان للبرامكة وزراء الرشيد نصيب كبير فى هـذه الجهود فقـد كانت عنايتهم بالثقافة اليونانية عناية كبيرة جعلتهم يعضدون العلماء ويشجعونهم على دراستها ونقلها(٩٢) . كما جعلهم يرسلون الرسل لشراء مخطوطات اغريقية من الأمبراطـورية الرومانية(٩٣) .

وقـد تركز الاهتمام على نقـل المؤلفات الفلكية والرياضية والطبية ، كما نقلت

---

(٩٠) د٠ حسن أحمد محمود وأحمد الشريف : (**العالم الاسلامى فى العصر العباسى**) (دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٧٣ م) ص ٢٧١ ، ٢٧٢ ٠

(٩١) كارل ، بروكلمان ٠ (**تاريخ الشـعوب الاسـلامية**) ٠ (بيروت ــ لبنـان ١٩٥٣) جـ ٢ ص ٣٨ ٠

(٩٢) د٠ عبد الحكيم بلبع : (**أدب المعتزلة فى القرن الرابع الهجرى**) (مطبعة الرسـالة ــ القاهرة ١٩٦٥ م) ص ٩٨ ، ٩٩ ٠

(٩٣) أوليرى : (**مسالك الثقافه الاغريقية**) ص ٢٢٨ ٠

بعض كتب أرسطو وغيرها . كما كانت بيت الحكمة تشتمل على الكتب الشرعية واللسانية وما ترجم عن اليونانية والفارسية والسنسكريتية والكلدانية والقبطية(٩٤) . ولقد كان الأمين على نقيض المأمون ينتمى الى المدرسة السنية ، ويروى انه حينما سمع بنظرية المريسى حول خلق القرآن هدد بأنه لو قبض عليه لقطع رأسه ، فقد رأى المأمون باعتباره أمير المؤمنين أن يصدر قرارا بخلق القرآن وطلب من القضاة تأييده وعارض ابن حنبل بشدة هذه البدعة ، ولكن بعض كبار الفقهاء أيدوا رأى المأمون بدون تردد(٩٥) . وقد شجع المأمون طلابه على التردد على بيت الحكمة للقراءة ودبر لهم سبل الاقامة وأسباب الراحة فذهب الى حد اقامة جناح ملحق بالدار يضم عدد ثلاث حجرات صغيرة خصصت لينال فيها من يشاء من رواد الدار قسطا من الراحة ، كما يقدم لهم الطعام والشراب دون مقابل(٩٦) .

ولم تال الدولة جهدا فى تزويد قاعات المكتبات بالخزائن والمناضد والمقاعد كما وفرت للقراء المحابر والأقلام والاوراق(٩٧) . ولا شك أن انتشار المكتبات العامة فى أرجاء العالم الاسلامى ، فى العصور الوسطى واتباعها هذه الأنظمة وفتح أبوابها لكل قارىء ، وتسخير كل هذه الإمكانيات لخدمته دليل ناطق على تقدم العرب الفكرى والعلمى ومدعاة للفخر . ويسجل لهم ولتاريخهم بمداد من نور . وقد اثبتت هذه الدار أنها أهم مجمع أسس لنشر الثقافة بين جمهور المسلمين ، وكانت الترجمة من بين أعمالها الرئيسية(٩٨) . فقد أنشأ المأمون ديوانا خاصا بالترجمة على رأسه حنين بن اسحاق وأمر بوضع خارطة للعالم سميت « الصورة المأمونية » وهى أول خريطة للعالم فى عهد العباسيين ، ولذلك يلقب بعض المؤرخين المأمون بأستاذ الحضارة العربية لأثره العلمى الكبير فى المجال الحضارى(٩٩) . كما أسند

---

(٩٤) عبد الله بن العباس الجرارى : (تقدم العرب فى العلوم والصناعات واستاذيتهم لأوروبا) . (دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٦٣ م) ص ٢٣٣ .

(٩٥) خودابخش (صلاح الدين) : الحضارة الاسلامية ص ١٣١ .

(٩٦) محمد ابراهيم الصيحى : (العلوم عند العرب) . (مكتبة نهضة مصر بالفجالة – القاهرة – بدون تاريخ) ص ٧٧ ، ٨١ .

(٧٩) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٣ .

(٩٨) HITTI, P. K. : The History of Arabs, London 1928, p. 310.

(٩٩) أحمد فريد رفاعى : (عصر المأمون) . (مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٢٨ م) ص ٣٧٥ .

الاشراف فى بيت الحكمة لحنين بن اسحاق ، وقد امدها المأمون بمختلف الكتب والمصنفات التى تحوى كل العلوم التى اشتغل بها العرب(١٠٠) .

كما انشأ المأمون وهو نفسه عالم رياضى دارا للتعريب ورصد فيها علماء لتهذيب الكتب المترجمة وتوجيه أسماء المعرفة من الاعلام والأجناس ، على ما يناسب المنطق العربى(١٠١) . وكان لهذه الدار الفضل الأكبر فى تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الاسماء المعربة ثم رقة الألفاظ لانغماس القوم فى الحضارة ، واخلادهم الى الترف ، وايثار الموالى للكلام السهل والأسلوب المبين ، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة لا بالتلقين والطبع(١٠٢) .

وقد كان حنين بن اسحاق الذى جعله المأمون على رأس المترجمين (١٩٤ هـ/٢٦٠ هـ) شديد العناية بعمله حتى قيل أنه كان لا يعتمد على أقل من ثلاث نسخ ليستطيع مقارنتها والاطمئنان الى مصدر صحيح ينقل عنه(١٠٣) . ويتضح هذا مما ذكر عما انفقته الدولة على ترجمة كتب اليونان فقد قدر ذلك وحده بـ ٣٠٠،٠٠٠ دينار فيما يرون .

وتلقى بيت الحكمة جديد المصنفات العربية التى شارك فيها علماء المسلمين من الفرس والروم ومصر وغيرها من أقطار الدولة ممن تعرب آباؤهم وأجدادهم بعد الفتح(١٠٤) . كما ذكرنا من قبل انه من اشهر من تولوا منصب القيم على بيت الحكمة فى عصر المأمون « سهل بن هارون » الفارسى الأصل فكانت تحت اشرافه مئات من المترجمين والخطاطين والنساخ وآخرين من المجلدين والمذهبين . ذكر ابن النديم فى كتابه الفهرست أسماء المشهورين الذين برعوا فى فن تذهيب المصاحف وصناعة تجليد الكتب فى خزائن بيت الحكمة كما ذكر أسماء مشهورى المترجمين(١٠٥) .

---

(١٠٠) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والثقافى ج ٢ ص ٢٧٤ .

(١٠١) مصطفى صادق الرافعى : (**تاريخ آداب اللغة العربية**) . دار الكاتب العربى ـ بيروت ـ لبنان ١٩٧٠ م ص ٢٠٥ .

(١٠٢) د. أحمد حسن الزيات : (**تاريخ الأدب العربى للمدارس الثانوية**) مطبعة الرسالة ـ القاهرة ـ بدون ص ٢١٣ .

(١٠٣) د. **بهى الدين زيان** : (**الغزالى مباحث فكرية عن حياته الاسلامية**) (دار نهضة مصر بالفجالة ـ القاهرة ـ بدون) ص ١٤ .

(١٠٤) **ابن القفطى** : أخبار العلماء باخبار الحكماء ص ٣٨٠ .

(١٠٥) ابن النديم : الفهرست ص ٣٢ .

وقـــد كان علماء العربية والاسلام خارج العراق يجعلون واجبهم الى بغـــداد واجبا علميا فيحجون(١٠٦) الى بيت الحكمة ويطلعون على ما فيه من نفائس المخطوطات فى زمن لم تكن المطبعة فيه قـــد عرفت لتيسر الاطلاع على هـــذه النفائس والتعريف بها ونشرها والافادة منها ، واستمرت كذلك لمدى قرون خمسة تقريبا .

(١٠٦) د. عائشة عبد الرحمن : تراثنا بين ماض وحاضر ص ١١ .

ثالثا ــ العــوامل التى ساعدت على انشاء بيت الحكمة :

كانت النهضة العلمية تساير عصر القــوة للدول الثلاث فكانت بيت الحكمة فى بغــداد عنوان هــذه النهضة ورمزا معبرا عنها وآية من آيات عزها كما كانت دور الكتب العامرة فى المشرق ومن أشهرها مكتبة المدرسة النظامية ، وخزائن كتب النجف الاشرف وخزانة سيف الدولة الحمدانى فى حلب وحماه ودمشق وطرابلس . كانت هــذه الدور الثقافية وأمثالها ممــا لا يتسع المجال لاستيعابه يعطى تفسيرا تاويخيا لهــذه النهضة التى حملت أمتنا لواءها فى العصر الوسيط(١٠٧) .

وفى الحــق أن انشاء المــأمون العباسى دار الحكمة فى بغــداد كان عاملا هاما وحاسما فى انتشار العلوم حيث اختار هــذا الخليفة أحــد البرامكة وزيرا له وهــذا البرمكى سليل أسرة قــديمة كان من أسلافها منذ قرون . وقــد عرف هــؤلاء البرامكة كيف يرغبون الخلفاء وحاشيتهم فى تذوق الدراسات والكتب ، وجعلوا من بغــداد مركزا علميا قــدر له أن يطغى على سمرقند بجمع الروائع الأدبية الصينية والسنسكريتية(١٠٨) ، والمؤلفات البيزنطية من الغرب فى وقت واحــد .

وكانت هــذه الدار من عــدة وجوه أعظم المعاهــد الثقافية التى أنشئت فى ذلك الزمان(١٠٩) . حيث أنشأ المــأمون مرصــدا فلكيا بالشماسية وطلب الكتب حيث سمع بوجودها فقــد طلب من أمير صقلية بعض الكتب الفلسفية والعلميــة فأرسلها لــه ونقــل من خراسان الكثير من الكتب الى بغــداد ، وأرسل جماعة من المترجمين الى بلاد الروم لترجمة عــدد من الكتب . وكانت الكتب التى يرسلها ملك الروم مزخرفة . وقــد وصــل فن بعضها ما يجعلها تحفــة فنيــة . ففى ســنة (٣٢٦ هـ/٩٣٧ م) وصــل كتاب الروم الى الخليفة الراضى ببغــداد ، وكانت الكتابة بالرومية والترجمة بالعربية بالفضــة(١١٠) .

---

(١٠٧) طرازى « الفيكونت فيليب » : خزائن الكتب العربية فى الخافقين ص ٥٤ ، ٥٥ .

(١٠٨) حاك. س. ريسلر : (**الحضارة العربية**) ترجمة محمود غنيم (طبعة الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ م) ص ٨٣ ، ٩٨ .

(١٠٩) د. عبد المنعم ماجد : (**العصر العباسى الأول**) . (مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ١٩٧٧ م) ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

(١١٠) ابن الجوزى . على بن عبد الرحمن : (**المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم**) (حيدر آباد ــ الدكن ــ الهند ــ دائرة المعارف العثمانية ١٣٥٧ هـ) ص ١٥٤ .

من هنا يتضح لنـــا ان الخلفاء والامراء لم يبخـــل احـــدهم بمـــال او جهـــد فى تزويدهم لهـــا بمختلف المؤلفـــات الثمينة ويسروا اسباب الراحـــة لروادها . فمـــا كان منهم الا ان ارسلوا البعوث للبحث عن الكتب والتراث الفكرى القـــديم(١١١) . وقـــد دخل ابو يوسف القزوينى المعتزلى المتوفى (٤٨٨ هـ/١٠٩٥ م) بغـــداد ومعه عشرة جمال عليها كتب(١١٢) .

ثم انشأ البغـــداديون المكتبات على مثال بيت الحكمة ، أشهرها مكتبة سابور ابن اردشير وزير بهاء الدولة فى محلة بين السورين سنة ٣٨١ هـ وجعل فيها أكثر من عشرة آلاف مجلد كلها بخطوط الأئمة المعتبرة ، وكان المؤلفون يقفون عليها نسخا من مؤلفاتهم ، واحترقت فيما احترق من محـــال الـــكرخ عند مجيء طغرلبك أول ملوك السلاجقة الى بغـــداد(١١٣) سنة ٤٤٧ هـ .

وممن تولى حفظ ما بقى فيها والاشراف عليها عبد السلام البصرى(١١٤) . اللغوى المتوفى سنة ٤٠٥ هـ . واشتهر بجمع الكتب من بنى العباس الخليفـــة الناصر بن المستضىء(١١٥) المتوفى سنة ٦٢٢ هـ . ولكن على الرغم من أن بيت الحكمة كانت ذات شأن فى العالم الاسلامى من حيث انها أول أكاديمية ومؤسسة علمية تشبه فى اقبـــال العلماء والطلاب عليها للبحث والدرس كخلية النحل يعودون محملين بالشهد الذى يشفى النفـــوس والعقول . فان ما نالته فى عهـــد الرشـــيد والمـــأمون كان ازهى عصورها . وتجلى ذلك فى الخليفة المـــأمون اكثر من حيث ما كان يهب للعلم من وقته ورعايته ، ونال العلماء كثيرا من عطفه وعنايته . لكن لم ينل بيت الحكمة من العناية العلمية ما ناله فى عهد الرشيد والمـــأمون ، بل ضعف ذلك فنجـــد ان الخليفة المعتصم قـــد أهمـــل شأن هـــذا البيت العظيم ، وقـــد توالت عليه الأحـــداث بعـــد ذلك ، ممـــا زاد فى الاقلال من شانه . ولكنه يظل يقاوم الى أن داهم التتار بغـــداد ، وقتل هـــولاكو المعتصم آخر الخلفاء العباسيين ، فانتهى بذلك مـــع الأسف امر هـــذه المؤسسة العظيمة ، واندثرت خزانة الكتب ، وعفت آثارها .

وحقا ان ما نالته هـــذه المؤسسة الثقافية وما انفـــق عليها من مال ورعاية من ترجمات الاغريق ممـــا يعـــد مضرب الأمثال .

---

(١١١) Madkour, L. Organon : D., **Aristote Dans Londe,** Paris 1934, pp. 28,29.

(١١٢) تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب السبكى : (**طبقات الشافعية الكبرى**) (المطبعة الحسينية بمصر – القاهرة ١٣٢٤ هـ) ج ٤ ص ٢٣٠ .

(١١٣) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ص ٢٢٦ .

(١١٤) ابن ابى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ١ ص ٤١٢ .

(١١٥) ابن خلدون : المقدمة ج ٤ ص ١٤٦ .

الفصل الثالث : النظام الإداري في بيت الحكمة

١ ــ القائمــون على تنظيم بيت الحكمــة ٠

٢ ــ المشرفــون على بيت الحكمــة ٠

٣ ــ رواتب العــاملين داخــل بيت الحكمــة ٠

اولا ـــ القائمـــون على تنظيم بيت الحكمة :

يكاد المؤرخـــون أن يجمعوا على ان القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) هـــو العصر الذى شهد قمـــة التطور فى المؤسسات الحضارية والثقافية الاسلامية ، وكانت بغـــداد فى هـــذا القرن قـــد اكتمل فيها عقـــد العـــلم ، وازدهرت بأجـــلة العلماء الذين نزحـــوا اليها من حـــواضر العالم الاسلامى ، وورثت المدينتين العظيمتين البصرة والكوفة ، فانتقل كثير من علمائهما اليها .

واذا نحن علمنا انه لم يكن فى ذلك العصر مطابع وانمـــا هناك مؤلفون يؤلفون ونساخ ينسخون أدركنا ما يقتضيه عمـــل مكتبة من الجهد العظيم والمـــال الوفير حيث لم تكن المكتبة مقصورة على الكتب بل كانت أحيانا مجتمعا يجتمع فيه طلاب العلم والعلماء ويتداولون فيما بينهم المسائل العلمية . وهـــذا ما جعل هـــذا العصر يزخر بالعلم والعلماء ، وكان بجانب هـــذه المكتبات العامة مكتبات خاصة لكل عالم تشتمل على الكتب التى يحتاج اليها فالغنى منهم يطلب النساخين أن ينسخوا له الكتب التى يريدها ، والفقير ينسخ بنفسه ، ورووا عن السجستانى المحـــدث أنه كان لـــه كم واســـع وكم ضيق فسئل عن ذلك فقال الواسع للكتب والآخر أحتاج اليه(١١٦) .

وروى عن أحـــد علمـــاء أصبهان أنه أنفق فى شراء كتبه ثلاثمائة الف درهم وقالوا ان أبا يوسف القزوينى المعتزلى دخل بغـــداد ومعه عشرة جمال عليها كتب . وليس أدل على عظمة تراثنا من أن بيت الحكمة كانت فى أيام هارون الرشيد تحـــوى مليون كتاب ، أما المـــأمون فقـــد نقـــل الى بغـــداد مائة بعير من الكتب من أوروبا حتى أنه جعل ذلك فى عقـــد الصلح بينه وبين ملوك الروم(١١٧) .

وقـــد جعل الخليفة هارون الرشيد يوحنا بن ماسويه مرشفا عاما على ترجمة الكتب ، بينما جعل المـــأمون سهل بن هارون وهـــو برتبة وزير مشرفا على بيت الحكمة لمـــا كان لها من أهمية فى نظره ونظر الدولة التى يرأسها . وزادت محتويات هـــذه الدار بمـــا قـــدم اليها هـــدية من الحكام العرب أو الاجانب تقربا الى الخلافة الاسلامية بالاضافة الى ما كانوا يبيعونه بأسعار مرتفعة جـــدا . فقـــد اهـــدى صاحب جزيرة قبرص مجموعة قيمة من الكتب الى بيت الحكمة ، وكذلك فعل قيصر القسطنطينية بعـــد ان طلبها المـــأمون . ولعـــل أشهر المترجمين أو المعربين انمـــا

---

(١١٦) د. عصام الدين عبد الرءوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ص ٢٤٧ .

(١١٧) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٣٨٠ .

ظهروا فى فترة حكم الرشيد والمأمون أمثال : أبو سهل الفضل ، ويوحنا بن ماسويه وابن البطريق وحنين بن اسحاق وعمر بن الفرخان وثابت بن قرة(١١٨) وكان العمل أقساما كل قسم له رئيس مسئول عنه ، ومساعدون مسؤواون أمامه ، وهذا فى رأينا يفسر ورود اسماء عدد من الأشخاص يوصفون بأنهم أصحاب بيت الحكمة .

وكانت بيت الحكمة مكتبة واسعة رتبت فيها الكتب ونضدت فى رفوف خاصة بحسب لغتها وفروع العلم الذى يتحدث فيه ، وزودت بالمقاعد للقراءة والمطالعة وجعل لها قيم لحفظها وترتيبها وتسليم كتبها الى القراء وما شاكل ذلك وكانت تضم فرقا خاصة للترجمة والنسخ(١١٩) .

ويقسم النشاط فى دار الكتب بين حجرات . فبعضها للنسخ وبعضها الآخر للاطلاع والمراجعة ، وثالث للدرس والمناقشة وربما اشتملت هذه الدار على حجرات للموسيقى يختلف اليها الدارسون للترفيه واستعادة النشاط كلما أعياهم الكد والسأم(١٢٠) . لم تخل مكتبة ذات شأن سواء كانت عامة أو خاصة عن فهرس يرجع اليه استعمال مجموعة الكتب ، وكانت هذه الفهارس منظمة للغاية فهى تشمل الكتب التى بالمكتبة مرتبة حسب موضوعاتها وبجانب هذه الفهارس العامة ، كانت هناك ورقة خاصة ملتصقة بكل دولاب من دواليب الكتب ، وقد كتب على هذه الورقة عناوين الكتب التى يحويها ذلك الدولاب ، وأرقامها فيه بالاضافة الى عنوان الكتاب ورقمه وكانت الفهارس تشمل ملاحظات عن الكتب التى فقدت أو بعض أوراقها ، ولم توجد جميع أجزائها(١٢١) ولنجل جولة سريعة فى مكتبات العالم الاسلامى لعرض ما عثرنا عليه من ذكر لهذه الفهارس التى عرفها المسلمون ونظموها منذ ذلك العهد المبكر ؛ ومن الواضح ان الفهارس ترتبط ارتباطا تاما بالمكتبات الكبيرة . من أجل هذا سيشتمل حديثنا عن الفهارس ايضاحا لنقطة هامة ، هى غنى المكتبات وما حوته من ذخائر . وأول ما نسوق من ذلك هو قول ابن سينا أنه اطلع على فهارس مكتبة السامانيين فى بخارى ، واختار بضعة كتب طلب أن يطلع عليها ، فأحضرت اليه فى الحال ، ويحكى ابن سينا انه رأى من الكتب ما لم

---

(١١٨) انور الرفاعى : (**الاسلام فى نظمه وحضارته**) ، (دار الفكر – بيروت – لبنان ١٩٧٣ م) ص ٥٤٤ .

(١١٩) انور الرفاعى . الاسلام فى نظمه وحضارته ص ٥٤٤ .

(١٢٠) زكريا هاشم زكريا . فضل الحضاره الاسلامية على العالم ص ٢٨٠ .

(١٢١) Islamic Culture (111-1929) p. 229.

يقـــع اسمه قط الى كثير من الناس ، وما كان رآه من قبل ولا رآه أيضا من بعد(١٢٢) .

وقام المـــأمون بتوسيع وتدعيم بيت الحكمة الذى انشأه ابوه (هارون الرشيد) واهتم بأنواع عـــدة من الثقافة ، فلم يقتصر اهتمامه على الثقافة الفارسية ، فقـــد اهتم بجمع الكتب الاغريقية وبعث وفـــدا الى ليـــو الارمنى لجمع الكتب الاغريقية ليطلع عليها واضطر القيصر الى الموافقة على ذلك . وفى ذلك الحين كان حنين بن اسحاق ويعقوب الكندى على استعداد تام لترجمة الكتب الاغريقية الى اللغـــــة العربية ، وقـــد درس حنين اللغة اليونانية فى الاسكندرية ، كما درس اللغة العربية على يد الخليل بن احمد الفراهيدى(١٢٣) فى البصرة ،وبعـــد اجادة هاتين اللغتين بدأ تحت رعاية المـــأمون بترجمة الكتب الاغريقية وكانت مهارته عامة بتقريب المـــأمون لـــه ، فكان لا ينقطع عن اغـــداق الصلات عليه ، ولمـــا كان حنين نفسه مغـــرما بالكتب فقـــد تحول الى آسيا الصغرى وســـوريا للبحث عن الكتب وكان أول كتاب ترجم الى اللغة العربية هـــو كتاب بطليموس فى الفلك وقام بترجمته ابراهيم بن صلت وراجعه وصححه حنين بن اسحاق(١٢٤) .

وقـــد اتخـــذ المـــأمون بطانته من علماء اليونان والسريان والفرس فانتقـــل الى بيت الحكمة علماء حران والرها وجنديسابور ونقلوا اليهاما امتازوا به فى التراث الانسانى فى مدارس اليونان والرومان والشرق الأدنى وشمال افريقيا فورثتها بغداد جميعا(١٢٥) . ويبـــدو أن المـــأمون ومن اتى بعـــده حاولـــوا أن يجمعـــوا فى هـــذه المؤسسة الثقافية العظيمة القسم الاكبر من تراث الاسلام حتى عهدهم مـــع عناية خاصة بالمواد التى لهـــا صلة باصلهم .

فقـــد ذكر بن النـــديم(١٢٦) أنه كان يوجـــد فى خزانة المـــأمون كتـــاب بخط عبد المطلب بن هلال الحميرى من أهـــل وزن عليه الف درهم فضـــة كيلا بالحـــديدة ومتى وعاه بها أجابه شهد الله والملكان .

---

(١٢٢) Barthold, W. : **Turkestan Down to the Mongol Invasion.** Luzac 1928, p. 9,10.

(١٢٣) للخليل بن احمد من علماء اللغـــة والأدب : ابن القفطى : أخبـــار العلمـــاء باخبـــار الحكماء ص ١١٨ . ومن المؤرخين من يرى ان الخليل بن أحمد كان بأرض فارس فلازمه حنين حتى برع فى لسان العرب : صاعـــد الأندلسى : طبقات الامم ص ٤٠ .

(١٢٤) خودابخش (صلاح الدين) الحضاره الاسلامية ص ١٣٢ .

(١٢٥) نجيب العقيقى : (**المستشرقون**) دار المعارف بمصر ١٩٥٨ م ج ١ ص ٧٩ .

(١٢٦) ابن النـــديم : الفهرســـت ص ١٧٤ .

ويبدو لنـــا أن خزانة بيت الحكمـــة كانت مقسمة الى اقسام كبرى بحسب اللغات فهـــذا قسم الكتب الفارسية ، وهـــذا قسم الكتب اليونانية ، وهـــذا قسم الكتب السريانية ... الخ . وكل قسم تحت رياسة شخص مشرف عليه ومسؤول عنه ، والجميع يعـــودون فى أمورهم الى شخص أعلى . ويقول المقـــدسى(١٢٧) وهـــو يواصـــل وصـــفه لمكتبة عضـــد الدولة فى شـــيراز : لـــكل نوع من الكتب فهـــارس فيها عنـــاوين كتب . ويسجل أبو الحسن البيهقى انه رأى بنفسه فهـــارس كتب الصاحب بن عباد وان تلك الفهارس كانت تقع فى عشرة مجلدات(١٢٨) .

وقـــد كانت الفهارس معروفة فى العراق منذ عهد خزانة الحكمة ، حدث الحسن ابن ســـهل قال : قال لى المـــأمون يوما : اى كتب العجم أشرف ؟ فذكرت كثيرا منها ثم قلت : جاد يذان خرد (يتيمة السلطان) يا أمير المؤمنين . فدعا المـــأمون بفهرست كتبه وجعـــل يقلبه فلم ير لهـــذا الكتاب ذكرا . فقال : كيف يسقط ذكر هـــذا الكتاب من الفهرست(١٢٩) . وكان لمكتبة المدرسة النظامية ببغـــداد فهرس شامل دقيق رآه ابن الجـــوزى المتوفى (٥٩٧ هـ) وهـــو يقول عنه : لقـــد نظرت فى بيت الكتب الموقوفة فى المدرسة النظامية فاذا به يحتوى على نحـــو ستة آلاف مجلد(١٣٠) .

ولمـــا فرغ المستنصر بالله من بناء مدرسته نقـــل اليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون جمـــلا ، وجعلت فى خزانة الكتب وتقـــدم المستنصر الى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور للمدرسة واثبات الكتب واعتبارها ، والى ولـــده العـــدل ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة فى داره ايضا ، فحضروا واعتبرها ، ورتبها احسن ترتيب ، مفصلا لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها(١٣١) .

وكان يتولى الأعمال فى دار الكتب طائفة من الموظفين وهم : الخازن والمترجمون وطائفة النساخ ، وطائفة المفسرين ، وطائفة المناولين ، وطائفة الكتبة ، وطائفة

---

(١٢٧) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ٤٤٩ .

(١٢٨) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٢ ص ٣١٥ .

(١٢٩) محمد كرد على : (**رسائل البلغاء**) . (مطبعة لجنة التاليف والترجمه ـ القـــاهرة ١٣٦٩ هـ/١٩٤٦ م) ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ .

(١٣٠) ابن الجوزى : (**صيد الخاطر**) . (تحقيق السيد عبد القادر عطـا . مكتبه الكليـات الازهرية ـ القاهرة ـ مصر ـ ١١٩٦ هـ) ص ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(١٣١) ابن الفوطى : الحوادث الجامعه والتجارب النافعة ص ٥٤ .

المجلدين . وكان الناسخ ينسخ ما يطلب منه نظير أجر وعليه أن يرتب أوراق كل نسخة بعد جمعها واصلاح ما قد يظهر فيها من أخطاء(١٣٢) . أما الخازن أو الأمين كما يسمى فى العصر الحاضر فكان يسند اليه الاشراف على أعمالهم الفنية والادارية جميعا ويجلب الكتب اليها ويلاحظ فهارسها ، وييسر للناس اسباب المراجعة والاطلاع ، لذلك كان يختار الخازن من الأدباء وأصحاب الأقدار بين المثقفين والعلماء كسهل بن هارون(١٣٣) .

وقد استدعى اختراع الورق(١٣٤) وانتشار استعماله ظهور طائفة من الناس يشتغلون بالورق والكتابة والكتب وهؤلاء هم الوراقون الذين لعبوا دورا مهما فى تاريخ الحضارة الاسلامية والثقافة الاسلامية ، ذلك أن الوراقين آنذاك كانوا هم الناشرون للكتب يقومون بنسخها وتجليدها وتصحيحها وبيعها وعرضها فى الواجهات والاتجار بها ، وقد اشتغل بالوراقة علماء أجلاء وأصبحت الوراقة مهنة راقية . وانتشرت دكاكين الوراقين فى طول البلاد وعرضها وأصبح للمؤلفين المشهورين وراقون يختصون بهم ، وأصبحت دكاكينهم أماكن ثقافية يرتادها الادباء وتعقد فيها المناظرات وتدور فيها المناقشات بحيث يمكن تشبيهها بيسر بالصالونات الأدبية التى انتشرت فى أوروبا وخاصة فرنسا ابان القرن الثامن عشر .

والحقيقة أننا نجد ذكر الوراقين منذ عهد الرشيد أى منذ استعمال الورق فى الدواوين والرسائل والكتب لأول مرة ، يدل على ذلك القصة التى يوردها ياقوت الحموى(١٣٥) فى معجمه حيث يقول : وحدث أبو مسحل عبد الوهاب قال كان اسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيدة من البصرة فى أيام الرشيد الى بغداد ، واحضر الأثرم وهو يومئذ وراق وجعله فى دار من دوره وأغلق عليه الباب ودفع اليه كتب أبى عبيدة وأمره بنسخها فكنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير الى الأثرم فيدفع الينا الكتاب والورق الأبيض من عنده ويسألنا نسخه وتعجيله ويوافقنا على الوقت الذى نرده اليه ، فكنا نفعل ذلك ، وكان الاثرم يقرأ على ابى عبيدة وكان أبو عبيدة من أضن الناس بكتبه ولو علم ما فعله الاثرم لمنعه من ذلك .

وقد كانت واجبات الوراق كثيرة اذ كان الوراق ينتخب الورق وينسخ الكتاب أو ينسخ تحت اشرافه ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه .

---

(١٣٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٢١ .

(١٣٣) زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الاسلامية العربية على العالم ص ٢٨٠ .

(١٣٤) د. محمد ماهر حماده : المكتبات فى الاسلام ص ٧٥ .

(١٣٥) ياقوت الحموى : معجم الادباء جـ ١٥ ص ٧٧ ، ٧٨ .

وارتبطت صناعة الورق بمهمة نسخ الكتاب ، والنساخون هم الوراقون الذين ينسخون المخطوطات ويسوقونها . وكان على الوراق أن يختار نوع الورق ويقوم بنسخ الكتاب أو يشرف على نسخه ، وقد ظهرت طائفة من الكتاب الذين يحترفون النسخ للوراقين أو لأصحاب المكتبات العامة أو الخاصة نظير أجر . أى أن النسخ كان مهنة بعض المتعلمين يكتسبون منها . وكانت هناك صورتان للنسخ صورة فردية بان ينسخ الناسخ الكتاب بنفسه ، وصورة جماعية بأن يجلس عدد من النساخ بعدد النسخ المطلوبة ، ثم يملى عليهم من النص المطلوب نسخه وهم يكتبون . وبعد الفراغ من نسخ المخطوط لابد من مقابلته بالأصل .

ومن الشروط الأساسية للصناعة أن يكون الناسخ دقيقا فى عمله وأمينا ، صحيح أن الناسخ المحترف قد يقصر فى عمله (ولكن قل أن نجد ناسخا كان يتعمد الأخطاء قصد تغيير نص أو تحريفه) على حد تعبير روزنتال(١٣٦) .

ولعل ما يوضح لنا هذا التثبت الشديد بالدقة والأمانة ما نراه لدى بعض النساخ الذين كانوا يضطرون أحيانا الى الاسراع فى نسخ المخطوطة التى كتبوها فنجدهم ينبهون القارىء بقولهم : (اننى لم أراجع قراءة المنسوخ لاصلاح الأخطاء التى ربما وقعت فى هذا الكتاب ولست متيقنا من أن النسخة هذه خالية من الأخطاء وذلك لأننى كنت مسرعا جدا)(١٣٧) . وكانوا يشترطون أيضا مقابلة ما ينسخونه بأصل صحيح موثوق به ، لأن المقابلة متعينة للكتاب الذى يراد النفع به . قال الامام الشافعى ويحيى بن أبى كبير : (من كتب ولم يعارض — أى لم يقابل — كمن دخل الخلاء ولم يستنج) .

وهناك ناحية هامة وهى معرفة المسلمين للنشر المتخصص ، اى أن بعض الوراقين كانوا يتخصصون فى نشر لون معين من المعرفة كالفلسفة أو الأدب او الشعر أو يتخصصون فى نشر أعمال مؤلف بعينه فمثلا يحدثنا ابن النديم عن (وراقى المبرد) ويحدثنا فى مكان آخر عن (تلاميذ الكندى ووراقيه)(١٣٨) .

وكانت تجارة الكتب تجارة رائجة ومنظمة ، لها اسواقها المعروفة وتعقد

---

(١٣٦) فرانتز ، روزنتال . (**مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى**) . ترجمه انيس فريحه . (بيروت — لبنان ١٩٦١ م) ص ٦٢ .

(١٣٧) المرجع نفسه . ص ٦٢ .

(١٣٨) ابن النديم : الفهرست ص ٣٥٠ ، ٣٧٩ .

فى أسواقها مزادات لبيع الكتب وعرف بعضهم بسمسار الكتب وكان بعض هؤلاء علماء ومؤرخين مثل أبى المعالى سعد بن على بن القاسم الأنصارى الخزرجى الوراق الحظيرى المعروف بدلال الكتب (سمسار الكتب) مؤلف كتاب زينة الدهر فى التاريخ(١٣٩) (زينة الدهر فى لطائف شعراء العصر) .

كذلك زخر العالم الاسلامى بالمكتبات وبهواة جمع الكتب ومحبيها حتى أصبحنا نرى علماء وهواة بلغ عدد كتبهم أرقاما خيالية . ومما ساعد على هذا التطور اختراع الورق الذى يعد من النعم التى أسداها المسلمون الى الحضارة العالمية واستدعى هذا بالتالى ظهور الوراقين وفتحهم الدكاكين الكثيرة وازدهار تجارة الكتب ووجود طائفة هم النساخون الذين أصبحت مهمتهم نسخ المخطوطات واعدادها للبيع(١٤٠) .

فلا عجب ان هم اعتنوا بها وأحلوها أعلى منزلة عندهم . تقول أولغا بينتو فى مجلة « الثقافة الاسلامية » : « أن كل ما له علاقة بالكتب تطور بشكل رائع ملحوظ ، فقد نسخت الكتب وزخرفت وجلدت بشكل أنيق جدا ، وقد أحيطت بأعظم ضروب العناية والرعاية ونشرت بين الناس ، وان جميع ذلك كان هدف واهتمامات الثقافة الاسلامية »(١٤١) .

ولقد حوت أكاديمية بيت الحكمة فريقا من المجلدين همهم تجليد الكتب وحفظها حتى لا تتأثر بكثرة الاستعمال ، وقد حفظ لنا ابن النديم اسم أحد مجلدى بيت الحكمة هذه فيذكر « ابن أبى الحريش وكان يجلد فى خزانة الحكمة للمأمون »(١٤٢) .

وبذلك ساهم بيت الحكمة فى ترجمة كتب فى علوم مختلفة وبلغات متعددة الى العربية . وكان المترجم يملى كتابه المترجم على عدد من النساخ حتى تتعدد نسخ الكتاب الواحد وتجلد هذه الكتب وتودع نسخ منها فى بيت الحكمة(١٤٣) حتى تتاح الفرصة للقراء للاطلاع عليها والاستفادة منها .

---

(١٣٩) أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده : (**مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم**) ، تحقيق كامل بكرى وزميله (دار الكتب الحديثة – مصر) ج ١ ص ٢٦٣ .

(١٤٠) د. محمد ماهر حمادة : (**الكتاب العربى مخطوطا ومطبوعا تاريخه وتطوره حتى مطلع القرن العشرين**) (دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٢ هـ/١٩٨٤ م الرياض – السعودية) ص ١٠١ .

(١٤١) بينتو ، أولغا : (**المكتبات العربية فى العصر العباسى**) فى « الثقافة الاسلامية » (المجلد الثالث ١٩٢٩ م) ص ٢١٢ .

(١٤٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٤ .

(١٤٣) المصدر نفسه ص ١٠ .

وكان بيت الحكمة عبارة عن مجلس للترجمة والنسخ والتاليف فيجلس النساخ فى اماكن خاصة بهم ينسخون لأنفسهم او بأجـــور . وكذلك المؤلفون والمطالعـــون . ومن نساخ بيت الحكمة علان الشعوبى اصله فارسى وكان راوية عارفا بالأنساب والمنافرات وكان ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمـــأمون والبرامكة وله كتاب فى مثالب العرب هتك فيه العرب وأظهر مثالبها(١٤٤) . وقيـــل أنه أهـــداه لطـــاهر بن الحسين قائد المـــأمون فأنعم عليه بثلاثين الف درهم تنشيطا وتشجيعا له . وكان اعـــلان الشعوبى هذا حجة بالرغم من ذلك فان له كتبا عديدة فى المثالب فله كتب أيضا عن فضائل بعض القبائل ككتاب فضائل كنانه وفضائل ربيعه ، ولكن نشاطه العلمى اتجه على وجـــه التخصيص الى ذكر مثالب العرب . ولقـــد ضاعت هـــذه الكتب ولكننـــا نجـــد بعض القطع منها هنا وهناك فى الكتب التاريخية والأدبية(١٤٥) .

ولم يلبث أن صار التجليد مـــع الأيام صناعة رابحة وفنا أصيلا **يشيع التذهيب** والتزويق وتفنن(١٤٦) بعضهم فى تجليد الكتب وزخرفتها والعناية بخطها **وأيضا تحلى** بالذهب ، ويتنافس رواة الكتب فيما كتبه الخطاطون كابن مقلـــة وابن البـــواب . وكانت المكتبات على وجه العموم تزود بالحبر والورق ، وبعض الأغنياء يتبرع بذلك حسبة لوجـــه الله .

أما المناولون فكان عملهم أن يرشـــدوا القراء الى مواضع الكتب على الرفوف ، او ينقلونها من أماكنها الى حيث يطلبونها ، وكانوا يعملون فى دور الكتب العـــامة والخاصة ويحفظ لنـــا التاريخ أسماء طائفة من دور الكتب العظيمة التى لهـــا فى نشر الثقافة وخـــدمة العلم فضل مذكور ومقام كبيت الحكمـــة فى بغـــداد ودار الحكمـــة فى القاهرة ودار الكتب فى قرطبة(١٤٧) .

ويمكننا القـــول ان هـــذه المؤسسة المسماة باسم بيت الحكمة قـــد اصبحت زمن المـــأمون اكاديمية بالمعنى العلمى الدقيق للكلمة تحوى أماكن للدرس وأماكن لخزن الكتب وأماكن للنقـــل وأماكن للتأليف الى جانب الرصـــد الفلكى والنشاط الفلكى الذى مارسته .

---

(١٤٤) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٢ ص ٢٢٦ .

(١٤٥) أبو الفرج الاصفهانى : (**الأغـانى**) . (طبعـة دار الكتب المصرية والساسى ١٢٨٥ هـ) ج ١٢ ص ١٥٦ .

(١٤٦) أحمد أمين : ضـحى الاسـلام ، ج ٢ ص ٢٢٣ .

(١٤٧) زكريا هاشم زكريا : فضل الحضارة الاسلامية على العالم ص ٢٨١ .

ثانيا ـــ المشرفـــون على بيت الحكمة :

وكان لبيت الحكمة قيم يدير شئونه يسمى صاحب بيت الحكمة ، وأشهر مديريها سهل بن هارون وهـــو فارسى شعوبى شـــديد التعصب على العرب وله فى ذلك كتب كثيرة ، وقـــد انتقل هـــذا الى البصرة ثم الى بغـــداد وكان شاعرا حكيما عظيما وله رسائل فى البخل ، كما كان يتولى الهيمنة على ادارة بيت الحكمة الخاصة بالدولة المـــأمونية فى بغـــداد ، وكان يتولى تنظيم خزائن المـــأمون . وسعيد بن هارون الكاتب شريك سهل بن هارون فى بيت الحكمة وكان بليغا فصيحا ويحكى عنه الجاحظ ولـــه من الكتب كتاب الحكمة ومنافعها وله رسائل مجموعة . وكان سلم صاحب بيت الحكمة مـــع سهل بن هارون وله نقول من الفارسى الى العربى(١٤٨) .

أما رئاسة بيت الحكمة فكانت لسهل بن هارون حيث كان المـــأمون ميالا الى جمع الكتب من مختلف الثقافات ، وقـــد استطاع ان ينقل ـــ من جزيرة قبرص ـــ كثيرا من الكتب اليـــونانية التى زخر بهـــا بيت الحكمة ، كما حفلت بها مكتبته الخاصـــــة(١٤٩) .

ولمـــا كان مثل هـــذا العمل فى حاجـــة الى جهابذة العلماء والادباء والمترجمين فقـــد حشد لـــه القوى وجعل عليه سهل بن هارون(١٥٠) ، ومن ثم فقـــد عاش هـــذا الكاتب فى هـــذا الجـــو العلمى الخالص الذى جعل منه عالمـــا ضليعا ، وكاتبا بليغا ، ومؤلفا بارعا ، أطراه الجاحظ وأشاد بعبقريته العلمية ومواهبه الادبية .

وقـــد رأى المرحوم محمد كرد على(١٥١) : « ان سهل بن هارون تولى خزانة المـــأمون الخاصة وتولى خزانة الحكمة لـــه أى أن لـــه منصبين وكلا العملين عظيم فى بابه ولكنهما من نمط واحـــد وفى ذلك ما يشير الى أن المـــأمون لم يكن يضن عليه من قصره ولا يقنعه منه انصرافه الى المصالح العامة فقط » .

وكان أبو عثمان الجاحظ يفضل سهل بن هارون ويصف براعته وفصاحتـــه

---

(١٤٨) ابن النـديم : الفهرســت ص ١٧٤ .

(١٤٩) ابن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد : (**العقـد الفريد**) تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين وابراهيم الابيارى . ط ٢ (لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٨ م) ج ٣ ص ٢٧٤ .

(١٥٠) ياقـوت الحموى : معجم الأدباء ج ١١ ص ٢٦٦ .

(١٥١) محمد كرد على : (**أمراء البيان**) . (مطبعه لجنه التأليف والترجمه والنشر ـ القاهرة ١٩٥٠ م) ص ١٥٢ .

ويحكى عنه فى كتبه ويصف ابن النديم أنه كان بخيلا وعمل رسائل فى البخل وعمل الحسن بن سهل رسالة يمدحه فيها ويرغبه فيه ويستسمحه فى خلال ذلك فأجابه الحسن على ظهر رسالته : وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام(١٥٢) ولم يصله عنها بشىء . أما سلم(١٥٣) فقد كان أحد الأفراد الذين أرسلوا الى بلاد الروم للحصول على المخطوطات ويبدو أنه قد عهد اليه برئاسة قسم الكتب الفارسية ، وفى نفس الوقت الاشراف على النقل من الفارسية الى العربية وكلا العملين مهم فى ذاته .

والفضل بن نوبخت هو أبو سهل الفضل بن نوبخت(١٥٤) فارسى الأصل ، وقد ذكر نسب آل نوبخت فى كتاب المتكلمين ولهذا الرجل نقل من الفارسية الى العربية ومعوله فى علمه على كتب الفرس . وكان فى خزانة الحكمة لهارون الرشيد . عهد اليه الرشيد بالقيام بشئون خزانة كتب الحكمة ويذكر القفطى عن الفضل بن نوبخت ابى سهل « انه مذكور مشهور من ائمة المتكلمين ... وكان فى زمن هارون الرشيد وولاه القيام بخزانة الحكمة ، وكان ينقل من الفارسية الى العربية ما يجد من كتب الحكمة الفارسية »(١٥٥) .

وكذلك عهد الرشيد بتعريب الكتب التى وجدها فى أنقرة وعمورية الى يوحنا ابن ماسويه وكان شيخ النقلة فى عصره ووضعه أمينا على الترجمة(١٥٦) . وفى رأى محمد عاطف البرقوقى أنه هو الذى نصح هارون الرشيد بانشاء دار كبيرة للكتب وهى تلك الدار التى اتسعت واشتهرت فيما بعد واصبحت تدعى دار الحكمة(١٥٧) .

يبدو لنا أن خزانة بيت الحكمة كانت مقسمة الى أقسام كبرى بحسب اللغات فهذا قسم الكتب الفارسية وهذا قسم الكتب اليونانية وهذا قسم الكتب السريانية ... الخ . وكل قسم تحت رئاسة شخص مشرف عليه ومسؤول عنه ،

---

(١٥٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٤٧ .

(١٥٣) المصدر نفسه ص ١٧٤ ، ٣٨٢ .

(١٥٤) أبو الفتوح الترانسى . (**من أعلام الطب العربى**) . (دار الكاتب المصرى - القاهرة ١٩٧٣ م) ص ٢٢ .

(١٥٥) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٥٥ .

(١٥٦) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٢٤ .

(١٥٧) محمد عاطف البرقوقى : الخوارزمى العالم الفلكى الرياضى ص ٧٩ .

والجميع يعـــودون فى أمورهم الى شخص أعلى مسؤول عنهم وهم مسؤولون أمامه . هـــذا فى رأينا يفسر ورود أسماء عـــدد من الأشخاص يوصفون بأنهم أصـــحاب بيت الحكمة . من أمثال محمد بن موسى الخوارزمى العالم الرياضى الفلكى الذى ظهر فى عصر المـــأمون وكانت لـــه مكانة سامية لـــديه ، فأحاطه بالرعاية ووكل اليه شئون « دار الحكمـــة »(١٥٨) .

(١٥٨) مصطفى الشهابى : (الجغرافيون العرب) . (دار المعارف بمصر – القـــاهرة – سلسلة اقرأ – عـــدد ٢٣٠ – فبراير ١٩٦٢ م)ص ٤٠ .

ثالثا ــ رواتب العـــاملين فى بيت الحكمـــة :

وكان يلحـــق ببيت الحكمة علمـــاء لهم رواتب محـــددة وتنوعت اختصاصاتهم ، ومن بين هـــؤلاء علماء فلكيون ذلك لان المـــأمون الحق ببيت الحكمة مرصـــدا لاصلاح آلات الرصـــد ، وكانت أعماله بالضرورة من بيت الحكمـــة ، بل كان بعضـــهم من خارجـــه . وصاحب بيت الحكمـــة يشرف على العـــاملين فيها وعليه ان يرتب الكتب ويعـــد فهارسها ويصنفها . وقـــد قيل ان يحيى بن أبى منصور الموصلى المنجم المعروف هـــو أحـــد أصحاب الارصـــاد فى القصر المـــأمونى كما كان جـــد احمـــد الطيبى المعروف بالصنوبر الحلبى وأولاد موسى بن شاكر(١٥٩) (محمد وأحمد والحسن) وغيرهم من رجال بيت الحكمـــة فى العصر المـــأمونى أو ممن كان يتردد على هـــذه الدار للعمل فيها بصفة رسمية أو للمطالعة والنسخ أو الترجمة والتاليف .

ولا ندرى كم كان ينفق المـــأمون على مكتبته هـــذه شهريا أو سنويا ولابد أنه مبلغ ضخم جـــدا بالنسبة للعمل الذى قامت به تلك المكتبة وبالنسبة للمهمة التى اخـــذت تنفيذها على عاتقها ، وكذلك بالنسبة للأشخاص الذين كانوا يعملون فيها ، ذلك أن اغلبهم بحاثة وعلماء من الطراز الأول ونعتقد أن رواتبهم كانت أعلى رواتب يمكن أن يتقاضاها أمثالهم .

ونستطيع بشىء من الموازنة ان نصل الى رقم تقريبى لرواتب الموظفين فيها ، ذلك ان ابن ابى اصيبعة يذكر نقـــلا عن السجستانى أن بنى شـــاكر وهم محمد واحمد والحسن كانوا يرزقـــون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحاق وحبيش بن الحسن **وثابت** بن قره(١٦٠) وغيرهم فى الشهر خمسمائة دينار للنقل والملازمة(١٦١) . واما محمد ابن عبد الملك الزيات الذى كان وزيرا أيام الواثق ، فقـــد كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ فى كل شهر الفى دينار(١٦٢) . وقـــد ذكرنا سابقا عطاء المـــأمون لحنين بن

---

(١٥٩) أولاد شاكر : محمد واحمد والحسن من رعاة العلم والأثرياء وممن عنى باخراج الكتب من بلاد الروم ، ومن انشـــط العناصر التى كانت فى بيت الحكمـــة . (د. الشحات السيد زغلول : **(الصريان والحضارة الاسلاميه)** . (دار الكاتب المصرى فرع الاسكندرية ١٩٧٣ م) ص ١٩٢ .

(١٦٠) ثابت بن قره ولد سنة ٢٢١ هـ وتوفى ٢٨٨ هـ عمـل فى جملة منجمى المعتضد ، وكان ذا منزلة عالية عنده ، وله دور كبير فى حركة الترجمة ، وهـو الذى أدخـل رئاسة الصابئة الى أرض العراق **(ابن جلجل ، أبو داوود سلمان بن حسان الأندلسى المعروف بابن جلجل) . (طبقات الأطباء وحكماء)** . تحقيق فـؤاد السيد (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ــ القاهرة ١٩٥٥ م) ص ٧٥ .

(١٦١) ابن ابى أصيبعه : عيون الانباء فى طبقات الاطباء ج ٢ ص ١٤٣ .

(١٦٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ١٧٦ .

اسحاق عما كان ينقله من اليونانية الى العربية ، وكيف ان ذلك العطاء كان زنة ما ينقله مثلا بمثل(١٦٣) . فاذا كان الأمر كذلك واذا كانت رواتب الموظفين الذين ينسخون وينقلون لدى وزير من وزراء الدولة يبلغ الفى دينار فى الشهر ، فكم يجب أن تكون رواتب موظفى ومستخدمى بيت الحكمة ؟ . اعتقد أن الجواب هـو لا أقل من عشرين الف دينار فى الشهر وربمـا اكثر من ذلك باستثناء النفقات الأخرى كثمن الحبر والورق وأجـور التجليد وثمن الكتب الجاهزة واثاث المكتبة وغيرها .

ووجـه الواثق عناية كبيرة للمترجمين الذين نقلوا الذخائر الأجنبية للسـان العربى ، وكان ابن ماسويه يده اليمنى فى ذلك ، فأعـد الواثق نعما متوالية ، وخيرا وغيرا ، وفى احـدى المرات أعطاه دراهم تساوى ثلاثمائة الف روبية(١٦٤) .

ويورد لنـا المقريزى(١٦٥) قائمة بالنفقات السنوية لمكتبة دار الحكمة مفصـلة تفصيلا واضحا ولكنها أقل سعة وسخاء وفيما يلى نصها :

ورق النسخ (ربما كان ذلك يشمل مرتبه أيضا)	٩٠ دينارا
مرتب الخـازن	٤٨ دينارا
مرتب الفـراش	١٥ دينارا
لتجليد الكتب (ربما شمل أجرة المجلد)	١٢ دينارا
ورق وحبر وأقـلام للمطالعين	١٢ دينارا
ثمـن الحصر العبـدانى	١٠ دنانير
ثمـن المـاء	١٠ دنانير
ثمـن لبـود للفرش فى الشتاء	٥ دنانير
ثمـن طنافس فى الشتاء	٤ دنانير
مرمة السـتارة	١ دينار

وكانت المرتبات لموظفى المدرسة المستنصرية محـددة على الوضع التالى : لخازن الكتب فى كل يوم عشرة أرطال خبزا ، وأربعة لحما ، وفى كل شـهر عشره دنانير ، وللمشرف فى كل يوم خمسة أرطال خبزا ، ورطلان لحما ، وفى كل شهر ثلاثة

---

(١٦٣) ابن ابى أصيبعه : عيون الانباء فى طبقات الاطباء جـ ١ ص ١٨٧ .

(١٦٤) Khuda Bukhshi, Contribution to the History of Islamic Civilization, Calcutta 1905, p. 269.

(١٦٥) المقريزى : الخطط والآثار جـ ١ ص ٤٥٩ .

دنانير ، وللمنازل فى كل يوم أربعة أرطال خبزا وغرف طبيخا فى كل شهر دينار ان(١٦٦) .

ومن مكتبات بغداد(١٦٧) الشهيرة المكتبة التى الحقت بالمدرسة المستنصرية وهى ذات قاعات واسعة للمطالعة مجهزة بما يساعد على القراءة من مقاعد وصهاريج لتبريد مياه الشرب وساعة حائط لمعرفة الوقت والتنبيه الى أوقات الصلاة .

هذا الى أن كثيرا من الأغنياء والوزراء كانت لهم مكتبات خاصة فابن العميد وزير عضد الدولة كان له مكتبة فلما نكب حمد الله كثيرا على أن بقيت له مكتبته لأنها أهم شيء عنده(١٦٨) .

وكان على بن المنجم ممن جالس الخلفاء ، وكان له خزانة كتب عظيمة فى ضيعته وسماها خزانة الحكمة ، وكان يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون ، والكتب مبذولة والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن المنجم(١٦٩) . وهو الذى أعد مكتبة الفتح بن خاقان وأشرف عليها ، وكان من خاصة ندماء المتوكل ، وخصص أيضا بمن جاء بعده من الخلفاء الى أيام المعتمد ، وكان راوية للأشعار والأخبار ، شاعرا محسنا وله صنعة مقدما عند الخلفاء(١٧٠) .

على أن أكثر هؤلاء الخلفاء المثقفين الذين شجعوا ورعوا حق الرعاية مؤسسة بيت الحكمة ولم يبخلوا بالجهد ولا بالمال ولا بكل شيء فى سبيل دفع عجلة التقدم الى الامام من أمثال الرشيد والمأمون والواثق ومن بعدهم . هذا الى جانب جهود عدد لا يحصى من الأمراء والوزراء والحكام المحلبين والأفراد المتميزين السابق ذكرهم . ولا ننسى استقرار المجتمع الاسلامى وتدفق الثروة عليه مما جعله يؤسس المؤسسات العلمية العظيمة أمثال بيت الحكمة كما نجد عددا من العلماء والفضلاء والوجهاء والرؤساء انقطعوا للعمل فى هذه الأكاديمية مثل ابناء شاكر والخوارزمى وعلان الشعوبى وسلم وسهل بن هارون وسعيد بن هارون وغيرهم .

---

(١٦٦) عواد كوركيس : (**خزائن الكتب القديمة فى العراق**) . (مطبعة المعارف - بغداد - العراق ١٩٤٨ م) ص ١٦٥ .

(١٦٧) أنور الرفاعى : الاسلام فى نظمه وحضارته . ص ٥٤٥ .

(١٦٨) أحمد أمين : (**ظهر الاسلام**) . (ط ٣ - دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٣٦ م) ج ٢ ص ٢٢٠ .

(١٦٩) المرجع نفسه ص ٢٢١ .

(١٧٠) ابن النديم : الفهرست ص ٢٠٥ .

الفصل الرابع : أثر بيت الحكمة فى حياة المجتمع العباسى

١ ــ تشجيع الحركة العلميــة فى بيت الحكمــة ٠

٢ ــ التغييرات التى طرأت داخــل بيت الحكمــة فى التصنيف والترجمة ٠

٣ ــ نشر روح اليقظــة الاسلامية فى المجتمع العباسى ٠

٤ ــ انقــاذ التراث بادخال نظام المكتبات على العــالم الاسلامى لحفظ التراث من الضــياع ٠

اولا ـــ تشجيع الحركة العلمية فى بيت الحكمـــة :

ادى التمـــازج الحضـــارى والثقـــافى بين مختلف الأقـــوام والعروق والأجناس والثقافات الى بروز الحضارة الاسلامية ذات الشخصية الواضحة المميزة التى اشترك فى انتاجها عـــدد كبير من العروق والأجناس ، وذوى الحضارات المختلفة والديانات المختلفة ، وفيه بلغت هـــذه الحضارة درجة كمالها وبلوغها الأوج . وقـــد تطورت فيه جميع المعارف الانسانية وانتشرت فى ارجاء العالم الاسلامى من حـــدود الصـــين والهنـــد شرقا الى الأندلس وحـــدود فرنسا وايطاليا وسويسرا غربا . ثم لم تلبث هـــذه ان انتقلت الى اوروبا وساهمت الى حـــد كبير ، فى انهاضها وايقاظها من سباتها ، وفى جعلها تأخـــذ من الحضارة بنصيب موفـــور(١٧١) .

وقـــد بلغ العصر الذهبى ذروته فى عهـــد هارون الرشيد وابنـــه المـــأمون ، حيث استكمل المجتمع الاسلامى تطـــوره بعالميته الجامعـــة ، وموارده الاقتصـــادية الهـــائلة ، وحياته الثقافية الرفيعة ، يغـــذيها تقـــابل الفكر والثقافة العربيين مـــع الحضارات الاغريقية والهندية والفارسية ، بينما ينحسر دور الجزيرة فى توجيـــه الثقـــافة العربيـــة(١٧٢) .

ونريد بالحضارة(١٧٣) ما تبلغ اليـــه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوســـع فى أسباب الترف والرغـــد فى ارقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية ادركت تلك الدرجات اولا فى العصر العباسى ببغـــداد فى اواســـط القرن الثانى للهجرة (الثامن الميلادى) الى أواسط القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

فبلغت بغـــداد(١٧٤) ذروة الرخاء فى عصر هارون الرشيد (١٧٠ هـ/١٩٣ هـ ـــ ٧٨٦ م/٨٠٩ م) وابنه المـــأمون (١٩٨ هـ/٢١٨ هـ ـــ ٨١٣ م/٨٣٣ م) وصارت أهم مدن الشرق وذاع صيت الرشيد فى الآفاق ، فأرسلت بلاد التتر والهنـــد والصين

---

(١٧١) د. محمد ماهر حماده : (**الوثائق السياسية والادارية العـائدة للعصر العباسى الاول**) . (مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩ م) ص ٥ .

(١٧٢) جـون. بادوا وآخرون : (**عبقرية الحضـارة العربية ينبوع النهضـــة**) (مركز الوثائق والدراسات بابو ظبى ١٣٩٧ هـ/١٩٧٧ م) ص ٣٨ ، ٣٩ .

(١٧٣) جرجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى ج ٥ ص ٦١٦ .

(١٧٤) جوستاف لوبون : (**حضارة العرب**) ترجمة اكرم زعيتر (دار احياء الكتب العربيه ط ٣ ـ القـاهرة ـ ١٩٥٦ م) ص ١٧١ ، ١٧٢ .

رسلا الى بلاطـــه وأرسل عاهـــل المغرب الحقيقى وصـــاحب الحـــول والشوكة والامبراطور شرلـــان ، الذى كان يملك ما بين المحيط الاطلنطى ونهر الالب ، وهو الذى لم يملك غير أناس سوى الهمج وفـــدا ليبلغ الرشيد ، أطيب تحياته ويلتمس منه الحماية لحجيج القـــدس فأجابه الرشيد الى سؤله .

وبلغت الدولة العباسية(١٧٥) أوج العظمة والاستقرار فى العصر العباسى الأول ، بسبب توالى كثير من الخلفاء الأقـــوياء على حكم الدولة ، فانتشر الأمن والاستقرار فى أرجاء الامبراطورية العباسية . ممـــا دفع معظم خلفاء هـــذا العصر الى طبـــع عصرهم بطابع العظمة والفخامة والترف . وكانت البيئة الثقافية(١٧٦) من اقوى العوامل فى النهضة العباسية اذ أخـــذ الخلفاء يشجعون الحركة العلمية فى نواحيها المتعـــددة ويمدونهـــا بمالهم وجاههم ، وقـــد بالغـــوا فى اكرام الأدباء فجالســـوهم وولوهم أحيانا المناصب العالية ثم حـــذا الأمراء والوزراء حـــذو الخلفاء فى اكبر مدن الدولة ، فكانوا يتنافسون فى ذلك كما يتنافسون فى فتح دور العلم ، وأظهر الجيل الجـــديد ميلا شـــديدا الى الحياة العلمية وتشجيعها . لا عجب فى ذلك فقـــد رأينا ما كان هنالك من نمـــاذج مدنيات واختلاف حضارات ووعى عام أرهفـــه ما نالـــه القـــوم من ثقافات الشـــعوب المتمدينة .

---

(١٧٥) د. توفيق سلطان اليوزبكى : (**الوزارة نشأتها وتطورها فى الدولة العباسية**) . (مطبعة الرسالة – بغداد ١٩٧٠ م) ص ٦٨ .

(١٧٦) د. طه الحاجرى (**الجاحظ حياته وآثاره**) . (دار المعارف بمصر – القاهرة ١٩٦٨ م) ص ٣٤٦ .

ثانيا ــ التغييرات التى طرأت داخــل بيت الحكمــة فى التصنيف والترجمة :

أن الثورة العباسية التى جاءت بهــذه التغييرات الجــذرية كانت قبل كل شىء نصرا للاسلام والداعين الى الاصلاح الدينى ومن هنا نشأت العلوم الاسلامية فى هذه الفترة جنبا الى جنب مــع العلوم الأجنبية ، فالعلماء العباسيون هم الذين وضعوا معظم المصــادر الأساسية والمؤلفــات الممتازة فى الدراسات القرآنية والفقه وعلم الكلام وقواعــد اللغــة والمعاجم والبلاغة ، والأدب من جهة أخرى . ومن الظواهر التى تستحق التسجيل فى هــذا العصر وهــو العصر العباسى الأول وعصر ظهور بيت الحكمــة هــو تدوين التراث العربى كله شعره ونثره ، فكان هــذا العمــل الجليل من أهم منجزات بيت الحكمة فى تاريخ الفكر العربى(١٧٧) .

وفى الحق لا نريد أن نمر بهــذه الظاهرة مرورا عابرا فهى من أهم آثار بيت الحكمة التى نحن بصــددها ، انما ينبغى أن نقف عندها ونسأل عن الدوافــع التى أدت الى مثل هــذا الحادث الفكرى ثم نتحــدث عن تفاصيله مشيرين الى نتائجه ، فالطاقات الجــديدة التى دخلت فى الاسلام واستعربت والمــلايين المتعطشة الى المعرفة لم يكن من المعقول أن تقنع بالتراث الذى يحتكر روايته شفاها جماعة من الحفاظ انمــا كانوا فى حاجــة الى أن يجــدوا بين أيديهم التراث كله مجموعا ليكون غــذاء لروحهم ووقــودا لنهضتهم ، كما أن النظرة العلمية الجادة التى جاءت نتيجة للاحتكاك بالفكر الهلينى بوجــه خاص نتيجة لاسلام الموالى واستقرارهم .

ولم يكن من المعقــول أن ننظر نظرة الاعتبار الى التراث المروى مشافهة لمــا كانت الحاجة ماسة الى متون بين يديها تقتلها درسا وبحثا . وثمة اعتبار آخر نبــع من المفكرين العرب أنفسهم الغيورين على تراثهم الفكرى هــو خــوفهم الى أن تمتد الى هــذا التراث غير المكتوب يد الوضع والانتحال والتزييف بسبب الاعتبارات التى استجدت على الحياة العربية فى القرن الثانى الهجرى ، كالشعوبيين الذين كانوا ينقلون من الثقافة العربية ويزدرون بكل ما هــو عربى(١٧٨) .

وكان العربى فى حاجة الى مواجهة هــذه الحركة وبعث أمجاد العرب القديمة والتاريخ المــاضى العربى ، كما أن الفرق الدينيــة والتيارات السياسية المتضــاربة

---

(١٧٧) د. حسن أحمد محمود وزميله : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ٢٦١ .

(١٧٨) د. حسن أحمد محمود وآخرون ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

كانت تمتد الى التراث العربى لتلتمس منه ما يؤيد وجهة نظرها ، وتكسب نشاطها طابعا مشروعا . وهذا ما جعل الخلفاء العباسيين يهتمون بالمؤسسات العلمية والثقافية كبيت الحكمة حيث عينوا له جلة العلماء ، للترجمة والتصنيف والنسخ والتجليد والاشراف ورتبوا لهم المرتبات والأجور السخية لكى يخدموا النهضة العلمية وليقوموا على وجه الخصوص بأعمال الترجمة ومن هؤلاء يوحنا بن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وحنين بن اسحاق وغيرهم .

ثالثا ــ نشر روح اليقظة الاسلامية فى المجتمع العباسى :

لو نظرنا لتمازج الثقافات الذى حـــدث فى بغـــداد وفى بيت الحكمة ومن يعمل بها لوجـــدنا أنه لمـــا عمرت بغـــداد(١٧٩) توافـــد الناس اليها من كل حـــدب وصوب فريق يطلب الكسب وفريق تستهويه الحيـــاة العلمية والفكرية وفريق يطلب حيـــاة الترف ، فاذا بغـــداد معترك تشارك فيه الى جانب العربى الفارسى والرومى والنبطى والتركى والصينى والهندى والبربرى والزنجى وفيهم المسلم والنصرانى واليهـــودى والصـــابئى والسامرى والمجوسى والبوذى وغيرهم .

وهـــؤلاء بلا شك قـــد حملوا الى بغـــداد الـــوانا من الفكر والثقافة سرعان ما انتفعت بها بغـــداد وأثرت فيها . وقـــد شهد المجتمع البغـــدادى(١٨٠) تكتلات اجتماعية قائمة على أساس قـــومى منذ العقد الأخير من القرن الثانى الهجرى . وتمثل ذلك أيضا فى انقسام عنصرى ومناقشات بين العرب والعجم . ويلمس المقدسى(١٨١) : وجـــود ظاهرة التكتل القـــومى والمذهبى فى أسواق بغـــداد ، عندما يشير الى وجـــود المجوسى ضمن العاملين فى أسواق بغـــداد (العاصمة) بالاضـــافة الى اهـــل الذمة . سواء أكانوا من النصارى أو اليهود ، مـــع وجود اغلبية مسلمة من الحنابلة والشيعة . وما بين أولئك من مشاحنات تنعكس على علاقاتهم مع بعضهم البعض .

وقامت الدولة العباسية(١٨٢) على رأس مواليها من أهـــل خراسان والعراق . وكان لهؤلاء الموالى شأن كبير فى السياسة والعلم والتعليم . فمن هؤلاء الموالى علان الشعوبى وسلم وغيرهم ممن قام بدور بارز فىتنظيم بيت الحكمة واعـــلاء شـــانها . وساهم أهـــل الذمة فى بغـــداد فى ازدهار الحركة العلمية فى العصر العباسى الاول ونشر المعرفـــة ، فأسسوا المدارس وقاموا بالتدريس لابناء كبار رجال بغـــداد ، وترجموا من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية . ذلك أن الخلفاء العباسيين الاوائل عنوا بترجمة الكتب العلمية ، واستعانوا بأهل الذمة فى حركة الترجمة(١٨٣) .

---

(١٧٩) ابن قتيبة : المعـارف ص ٢٩ ، ٣٠ .

(١٨٠) د. حمدان الكبيسى : (**أسواق بغـداد فى بداية العصر البويهى**) ، (مطبعة وزارة الاعلام ــ بغداد ــ العراق ١٩٧٩ م) ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(١٨١) المقـدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ص ١٢٦ .

(١٨٢) الشيخ محمد الخضرى : (**التشريع الاســلامى**) ، (المكتبة التجاريه الكبرى ــ مصر ــ القـاهرة ١٩٧٠ م) ص ١٧٠ .

(١٨٣) د. عصام الدين عبد الرءوف : الحواضر الاسلاميه الكبرى ص ١٨٢ .

وقـــدر الخلفاء جهودهم ومنحوهم الرواتب الجزيلة ، وكان الخلفاء يرسلون العلمـــاء الموثوق بهم من أهـــل الذمة الى الدولة البيزنطية لابتيـــاع طرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ، ويعهدون الى التراجمة من أهـــل الذمة بنقل هـــذه الكتب الى العربية(١٨٤) .

ومن أشهر من ساهم فى حركة الترجمة بنصيب موفـــور من أهـــل الذمة حنين ابن اسحاق ، نشأ على حب العلم ، وتتلمذ على الطبيب الحاذق يوحنا بن ماسويه ، وتوجـــه الى الدولة البيزنطية ، وأقام بها فترة من الوقت يدرس خلالها اللغـــة اليونانية ، وعـــاد الى العراق ودرس اللغـــة العربية دراســـة مستفيضة على الخليل ابن أحمد ، ثم عاد الى بغـــداد ومكنته معرفته القـــوية باللغتين اليونانية والعربية من القيام بنشاط كبير فى حركة الترجمة(١٨٥) .

ان بغـــداد(١٨٦) لم تكن العاصمة السياسية ومركز الخلافة فحسب بل كانت الى جانب ذلك ملتقى العلماء والتجار ، وزعماء الحركات السياسية والمذهبية . لكن أكبر حزبين كانا بهـــا ، فى بداية القرن الرابع الهجرى ، هما الحزبان المتشددان فى التمسك بمذهبهما وهما الحنابلة والشيعة . وليس هذا غريبا فى المجتمع العباسى(١٨٧) الذى تمثل الاسلام وعرف قـــدر العلم ومكانته ، فهيأ له وسائله وأخـــذ بأيدى أهله الى أعلى الدرجات ، وليس عجبا أن يسارع المسلمون الى المكتبات ، وحـــوانيت الوراقين ، ومؤسسات التعليم ما دام الاسلام قـــد فتح أبواب العلم أمام المسلمين جميعا ، وحث على التعليم ، وجعـــل العلم اساسا فى رفـــع الدرجات وان كان كل ذلك لمـــا يدهش له الباحثون من غير المسلمين ، لأنهم لم يقفوا فى التاريخ على أمة أمدت الحضارة الانسانية بالتراث الفكرى كأمة الاسلام .

وكانت الدولة العباسية فى أولى مراحلها وايامها تحتـــاج الى توطيـــد أركانهـــا واستكمال بنيانها مثلها فى ذلك كمثل كل دولة حـــديثة ناشئة ، ولقـــد كانت عناصر الحياة الاجتماعية فى بغـــداد ثراء عريضا ينصب فى أيدى الخلفاء من منابع عـــديدة

---

(١٨٤) Hitti, P. K. : The History of Arabs, London 1949, p. 327.

(١٨٥) د٠ عصام الدين عبد الرءوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ص ١٨٢ ٠

(١٨٦) آدم متز : (**الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى**) ترجمة د٠ محمد عبد الهـــادى ابو ريده (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ط ٢ ـ القاهرة ١٩٤٧ م) ج ١ ص ٨٧ ٠

(١٨٧) د٠ محمد عجاج الخطيب : لمحات فى الكتبة والبحث والمصادر ص ٤١ ٠

وحياة عقلية راقية بلغت مبلغها من النضج واقبلت على بغـــداد من كل مكان فنـــــا وغناء وحياة طرية مترفة ، بدأت فى الحجاز وانتقلت الى الشام والكوفة ثم جنت ثمارها بغـــــداد(١٨٨) .

(١٨٨) أحمد عبد الستار الجوارى : (**الشعر فى بغـداد حتى القرن الثالث الهجرى**) ، (مطبعـه وزارة الاعـلام – بغـداد – العراق ١٩٦٥ م) ص ٣٦ .

رابعا ــ انقاذ التراث بادخال نظام المكتبات على العـــالم الاســـلامى لحفظ التراث من الضـــــياع :

أما الحياة العقلية(١٨٩) فقـــد شهد العراق بواكيرها من قبـــل أن تنشأ بغـــداد او تظهر الدولة العباسية الى الوجـــود . فكانت نشأة المعتزلة فى البصرة ، وكانت نهضة الرواية وعلم اللغة فى الكوفة . ثم قام الخليـــل بن أحمد وتلاميذه فى البصرة والكوفة فكانت المذاهب النحـــوية والدراسات اللغـــوية والأدبية . وعلى الجملة فقـــد قامت بغـــداد وربيع الفكر فى ابانه والحياة العقلية مزدهرة تؤذن بثمار دانيـــة القطـــوف . وتلاقت هـــذه المقـــومات الاجتماعية فى المجتمع البغـــدادى فطبعتـــه بطـــابع متميز ، عرفه التاريخ بالمزاج البغـــدادى ، واشتهر بالظرف وتذوق الحياة ، والاستمتاع بألوانهـــا وضروبها المختلفة ، وكانوا الى جانب استمتاعهم بالحياة وترفها يقبلون على العلم ويطلبون منه نصيبا حسنا حتى لقـــد قال فيهم أحـــد المحـــدثين « ما رايت اعقل فى طلب الحـــديث من اهـــل بغـــداد »(١٩٠) .

ومن عوامل التجديد فى بغداد غلبة الاعاجم على الحياة الاجتماعية وصيرورتهم عنصرا اساسيا من عناصر التوجيه الاجتماعى ، فانطبع المجتمع العباسى فى كثير من نواحى الحياة فيه بطابع غير عربى ، وعرف الترف والبـــذخ واصبح اللهو والشراب والانس أشبه شىء بالضرورة اللازمة للحياة . وكان فـــوق ذلك من تزلزل بعض القيم الاجتماعية التى سار عليها المجتمع الاسلامى محتفظا بالتقاليد العربية(١٩١) .

وحـــدث من جراء ذلك ايضا أن اعان القـــوم على تسرب الحضارة الفارسية الى الحضارة العربية ، ودخـــول الأفكار الغريبة والعقائد الأجنبية التى اتضح أن من أغراضها ومراميها زلزلة العقيدة الاسلامية ، ومهاجمة الدين الذى حمله العرب فى عقر داره(١٩٢) . ولعله من المسلم به القـــول بأن العصر العباسى الأول(١٩٣) شـــهد

---

(١٨٩) أحمد عبد الستار الجـــوارى : الشعر فى بغداد حتى نهـــاية القرن الثالث الهجرى ، ص ٤٠ ، ٤٥ .

(١٩٠) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١ ص ٥٠ .

(١٩١) أحمد عبد الستار الجـــوارى : الشـــعر فى بغداد حتى نهـــاية القرن الثالث الهجرى .

(١٩٢) أحمد الشايب (**العـــامل السياسى فى ادب العصر العبـــاسى الاول**) . (مكتبة نهضـــة مصر بالفجاله ــ القاهره ــ بدون تاريخ) ص ٢٥ .

(١٩٣) د. فاروق عمر : (**العباسيون الأوائل**) . (مطبعة الرسالة ــ بغـــداد ــ العراق ١٩٦٣ م) ج ١ ص ٩١ .

نشاطا كبيرا فى الحقول الفكرية والعقلية فى المجتمع الاسلامى وما نتج عنه من ظهور المدارس المختلفة فى التفسير والتشريع واللغة والآداب والتاريخ وعلم الكلام وغيرها من العلوم العقلية والنقلية . مما جعل تنظيم المعارف يبدأ الى جانب التدوين الذى فتح أمام المجتمع العباسى آفاقا جديدة فى المعرفة ، فاطلعوا على طائفة من الآثار الأجنبية فى العلوم والفلسفة وبخاصة الآثار اليونانية والفارسية والهندية فأدى ذلك الى النهضة العلمية التى رعاها الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء والأدباء والشعراء . فقد وصلت بغداد فى عهد الرشيد الى قمة مجدها ومنتهى فخارها ثم لما أفضت الخلافة الى المأمون أتم ما بداه جده المنصور فأقبل على طلب العلم فى مواضعه واستخراجه من معادنه . فداخل ملوك الروم وسألهم عما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو وأقليدس وجالينوس وبطليموس وغيرهم(١٩٤) .

على أن أكثر هؤلاء الخلفاء قربوا اليهم العلماء والأدباء واستوزروهم وزادوا فى انشاء المكتبات وجلبوا لها نفائس الكتب ، ولم يضنوا فى سبيلها بمخزون التلاد فقامت المكتبات العلمية بدور فعال فى نشر العلم والثقافة بين أبناء الأمم الاسلامية ، وقامت أيضا بحفظ التراث من الضياع ، فلا يقل دورها عن دور المساجد والمدارس فى النهضة العلمية لأن الكتب فى ذلك الوقت لم تكن ميسرة(١٩٥) . وكان المهتمون بالعلم والمعرفة يذهبون الى المكتبات العالمية حيث تتوافر الكتب والمراجع فيقراون ويطلعون على آراء الأقدمين من العلماء عن طريق كتبهم وآثارهم .

ويحق لنا أن نطلق على المكتبات اسم « المعاهد العلمية » لأن الدور الذى كانت تقوم به لا يقل عن دور المعاهد الرسمية ، وكثيرا ما كانت تمثل هذه المكتبات النوادى الفكرية حيث يجتمع طلاب المعرفة ومحبوها تدور بينهم المناظرات والمناقشات . فالتشجيع العلمى والتزام الدولة بتقديم كل ما يلزم لكل طلاب العلم والمعرفة . ولا شك أن انتشار المكتبات العامة فى أرجاء العالم الاسلامى فى العصور الوسطى واتباعها هذه الأنظمة وفتح الأبواب لكل قارىء ، وتسخير كل هذه الامكانيات لخدمته دليل ناطق على تقدم العرب الفكرى والعلمى ومدعاة للفخر ، ويسجل لهم ولتاريخهم بمداد من نور . فقد أثبتت مؤسسة بيت الحكمة الثقافية أنها ساهمت فى انقاذ التراث وادخال نظام المكتبات على العالم الاسلامى لحفظه من الضياع . وهكذا بقيت بغداد مهد الحضارة ، ومقر العلم والنور وعين العالم الاسلامى وقلبه .

---

(١٩٤) محمد عبد الجواد الأصمعى : أبو الفرج الأصفهانى . ص ٢٦٥ .

(١٩٥) د. محمد فاروق النبهان : مبادىء الثقافة الاسلامية . ص ٣٣ .

الباب الثانى

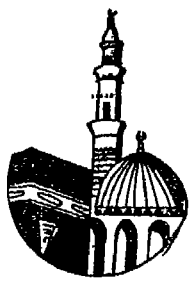

ويشمل الفصـــول الآتيـــة :

الفصـــل الأول : تاريخ المدارس الاسلامية وأثر بيت الحكمة فيها ٠

الفصـــل الثانى : التدريس والمدرســـون فى بيت الحكمة ٠

الفصـــل الثالث : حركة التأليف فى بيت الحكمة ٠

الفصـــل الرابع : المباحثة والمناظرة بين العلماء والخلفاء والوزراء فى بيت الحكمة ٠

الفصل الأول : تاريخ المدارس الإسلامية وأثر بيت الحكمة فيها

١ ــ نشأة المدارس الاسلامية قبــل انشاء بيت الحكمة .

٢ ــ المدارس الاسلامية حالتها بعــد انشاء بيت الحكمة .

٣ ــ أثر بيت الحكمة فى المدارس الاسلامية .

ان الأمم التى تبغى مجـدا عليها أن تخلق فى الأفراد روح الايمان بقابليتهم على الابتداع ، وأن تنشىء فيهم الشعور بالعزة القومية وذلك الاهتمام بماضيها وربطـه بحاضرها وتعريف الناشئة بجهود أسلافهم ومآثرهم فى ميادين العلوم وما كان لهـا من أثر فى تقـدم الحضارة(١) .

وبغـداد كما وصفها المقـدسى فى قـوله : « بغـداد (لأهلها) الخصائص والظرافة ، والقرائح واللطافة هـواء رقيق وعلم دقيق كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ، وكل قلب اليها ، وكل حرب عليها ، وهى أشـهر من أن توصف ، وأحسن من أن تنعت ، وأعلى من أن تمـدح »(٢) .

بلغت بغـداد حاضرة بنى العباس من الرقى درجـة لم تبلغها مدينة غيرها فى تلك العصور ، فكانت زهرة المشرق وجنـة الدنيا . شيدت فيها القصور حتى سميت مدينة القصور ، وغرست فى أنحائها البساتين والحـدائق الغناء ، وامتلأت بالميادين الكبيرة ، منها (الميدان المربع) وكان ميدانا فسيحا أمام قصر الخليفة تقـام فيـه استعراضات الجند والمباريات الرياضية وسباق الخيل ووضعت بطرقاتها المصابيح للانارة ليلا ، وازدحمت المدينة بالمساجد الكبيرة التى شيدت فى بناء ضخم على شكل هندسى جميل وازدانت جـدرانها بالزخارف البديعة والنقوش الزاهيـة . وبزت بغـداد سـائر المدن بمـا حـوته من أسباب المدنية الزاهرة اذ امتلأت بالمدارس ، ودور العلم التى كانت تدرس بها سائر العلوم ، واقيمت بها دور الشفاء والملاجىء ، وأتى النـاس أفواجا من جميع أنحـاء الدولة الى (دار السلام) واتخـذوها مقرا لهم ، وبلغ عـدد سكانها فى ذلك الحين قرابة مليونين من السكان(٣) وخلاصة القول :

---

(١) قـدرى حافظ طـوقان : (**تراث العرب العلمى فى الرياضـيات والفلك**) . (دار الشروق ـ بيروت ـ لبنان ١٩٦٣ م) ص ٢٣ .

(٢) المقـدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١١٩ .

(٣) د. محمود أحمـد الحفنى : (**اسـحاق الموصلى**) . (المؤسسة المصرية العامة للتاليف والنشر ـ القـاهرة ١٩٦٤ م) ص ٥٢ .

كانت بغداد عروس المدائن ومنارة الحواضر . أما الخلفاء العباسيون الأول فكانت لهم أثناء قرن كامل من (١٣٢ هـ/٢٣٢ هـ) الكلمة العليا التامة على العالم الاسلامى شرقا وغربا يأتمر الناس بأمرهم ، وليس لأحد مهما علت منزلته وكبر شأنه أن يرد لهم قولا أو يعصى لهم أمرا . وكانوا فى حياتهم مثال الأبهة والجلال ، وكان الخليفة يجمع بين السلطتين المدنية والدينية ، وهو الرئيس الأعلى فى الأمور السياسية والعسكرية ، ومصدر القوة ومرجعها وقد أخذت الدولة العباسية من مظاهر الأبهة والعظمة ما لم تعرفه الدولة الأموية من قبل(٤) .

كانت مدينة العصر العباسى أزهى عصور العروبة والاسلام تتجلى فى مناحى مختلفة ومذاهب من الفنون والعلوم متعددة نشهدها فى مجالى الحياة المشرقة بعمران المدن ، وازدهار الحضارة التى تترجم عنها دور الحكمة . وتعبر عنها المدارس والمعاهد ومجالس العلماء ومناظراتهم فى مساجد بغداد والبصرة والكوفة تلك المدينة التى شع نورها حتى شملت كافة الأقطار الاسلامية . وترتبط الحياة الثقافية بالعواصم والمدن الكبرى ، ويمكن أن يرد تاريخ الثقافة فى أمة الى تاريخ بعض مدنها ، وهذه المدن مقصد طلاب العلم والمعرفة ، يحجون اليها كما يحجون الى الأماكن المقدسة ، وقد لا يقنعون لمجرد الرحلة والزيارة ، بل يستقرون ويقيمون حيث اطمأنت نفوسهم فطاب لهم البحث والدرس . والمدن العلمية كانت ولا تزال ملتقى الأجناس والشعوب المختلفة ، وهى تتنافس عادة فيما بينها وتتسابق فى انشاء المعاهد والكليات وبناء قاعات البحث والمكتبات واقتناء الكتب والمخطوطات واجتذاب العلماء وكبار الباحثين(٥) .

وبغداد من أكبر عواصم الدنيا فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ورثت ملك كسرى ومعظم بلاد الدولة الرومانية وفتحت أبوابها لثقافات الشرق والغرب فأخذت منها ما أخذت وأضافت اليها ما أضافت وأصبحت أكبر مركز ثقافى فى العالم قامت فيها طوال أربعة قرون أو يزيد دراسات دينية ولغوية وعلمية وفلسفية قد لا يكون لها نظير فى مدينة أخرى(٦) .

---

(٤) المرجع نفسه ص ٥٣ .

(٥) د. محمود أحمد الحفنى : اسحاق الموصلى ص ٨١ ، ٨٢ .

(٦) د. أحمد فكرى : (أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة) . (دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٧٨ م) ج ١ ص ٥١ ، ٥٣ .

فقد كان العراق فى القرن السادس الهجرى يموج بحركة ثقافية لا حدود لها شغلت الجميع على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم وأعمارهم وديانتهم . لقد كانت المدارس والجوامع والمكتبات البغدادية تغص بطلاب العلم وعشاق المعرفة من الأقطار المجاورة والبعيدة على حد سواء ، حتى ليندر أن نجد عالما اشتهر وذاع صيته فى العالم الاسلامى يومذاك دون أن تكون بغداد صاحبة الفضل عليه ، ويكفى العراقيين فخرا أن المدرسة النظامية ببغداد كانت المعهد الذى يطمح كل عالم ان يدرس فيه(٧) .

(٧) د. حسين أمين : (تاريخ العراق فى العصر السلجوقى) . (مطبعة الارشاد - بغداد - العراق ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م) ص ٢٢٨ .

اولا ــ نشأة المدارس الاسلامية قبل انشاء بيت الحكمة :

ان التربية والتعليم فى الاسلام ترمى الى هدف مزدوج وهو سعادة المرء فى الدنيا والآخرة . فقد سمحت للفرد بالتنعم فى الدنيا والعمل للحياة الآخرة . فقد دعا الاسلام الى الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ، والاستقامة فى السلوك والى ضبط النفس والى التعاون والبذل والمفاداة ، كما مجد الحرية والمساواة فعاشت الأمة الاسلامية كريمة مرهوبة الجانب محببة للنظام تعمل اذا دعيت للعمل ، وتبذل الغالى والرخيص اذا أريد منها البذل والمفاداة(٨) .

وللقرآن الكريم الفضل الأكبر فى انتشار التعليم والتهذيب بين العرب والمسلمين ، فقد تناول الأخلاق والمزايا الشريفة ، وحدد علاقة الفرد والعائلة ، ووضع للمرأة حقوقا وواجبات وحض على تعلم العلم ، وصار القرآن العظيم اصل التعليم فى العالم الاسلامى ، واختلف المسلمون فى اقطارهم فى طرق تعليم القرآن للولدان باختلافهم . واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ المسجد للدراسة واستمر المسجد مكانا لتعليم القرآن والحديث والقصاص ينطقون والفقهاء يعلمون الفقه مدة العهد الأموى ــ وكان هناك حلقات علوم الدين وحلقات لعلوم اللغة العربية(٩) .

لقد وجه الاسلام جل عنايته واهتمامه بطلب العلم وجعل القرآن الكريم الاشخاص غير المتعلمين فى عداد الأموات فى حين جعل المتعلمين فى مصاف الأحياء وقد اعترف الرسول الكريم بأن حبر العلماء يرتقى الى مصاف دم الشهداء(١٠) . وقال ايضا ان الطريق الموصل الى معاهد العلم هو الطريق الموصل الى السموات ، وان الله عز وجل حينما يريد أن يكرم شخصا يمنحه نور العلم والمعرفة ، معرفة الدين والاحاطة بأصوله وفروعه(١١) . ان هذه الأقوال وما يماثلها من اقوال وتعاليم أخرى قد تركت انطباعا عميقا فى أذهان جمهرة المسلمين ، ففى فترة وجيزة من التاريخ أنجب الاسلام مشاهير العلماء . ويكفى أن نشير الى أنه

---

(٨) عمر رضا كحاله : (**المرأة فى عالمى العرب والاسلام**) . (المطبعة الهاشمية ــ دمشق ١٣٧٩ هـ/١٩٥٩ م) ج ٢ ص ١١٢ .

(٩) المرجع نفسه ص ١١٣ .

(١٠) محمد رستم غيوان : (**المكتبات فى العصرين العربى والاسلامى فى العصر الوسيط**) . مجلة الاسلام والعصور الحديثة ، نقلا عن مجلة المورد عـ ٤ ، (بغداد ــ العراق-١٤٠١ هـ/١٩٨١ م) ، ترجمه بوسف عبد القادر ، ص ٢٨٤ .

(١١) المرجع نفسه ص ٢٨٤ .

فى القرن السادس الميلادى ظهرت المبادىء الاسلامية التى دعا اليها الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنذ انبثاقها كان التعليم قرينا لهـا وكانت اولى الآيات القرآنية تشير الى العلم كما قال تعالى : « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** »(١٢) .

وهناك آيات عـديدة تدعـو المسلمين الى طلب العلم وتحثهم على التعلم ، قال تعالى : « **يرفـع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات** »(١٣) . كما كانت الآيات القرآنية الكريمة ترفع من قـدر العلم وتعلى شأن العلماء وتمجـد العقل والمعرفة وتخفض من الجهل واهله وكثيرا ما تقرنه بالعمى وتشبهه بالضلالة والظلمات الحالكة كما قال تعـالى : « **وما يستوى الأعمى والبصـير ولا الظلمـات ولا النـور** »(١٤) . « **قـل هـل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** »(١٥) . « **لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بمـا انزل اليك وما انزل من قبلك ... أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما** »(١٦) .

وقـد اعتبر القرآن الكريم التعليم من وظائف النبى صلى الله عليه وسلم حيث جاء فى قوله تعالى : « **وقـل رب زدنى علمـا** »(١٧) . « **ربنـا وابعث فيهم رسـولا منهم يتـلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتـاب والحكمـة ويزكيهم ، انك أنت العـزيز الحكيم** »(١٨) . « **فاسـألوا أهـل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »(١٩) .

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التى تدعـو للعـلم وتمجـد العلمـاء قـول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : « وان العلماء ورثة الأنبياء ورثوا العلم من أخـذه أخـذ بحظ وافر »(٢٠) . « ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله لـه

---

(١٢) سـورة العـلق ، الآيات من ١ الى ٥ .

(١٣) سـورة المجـادلة ، الآية ١١ .

(١٤) سـورة فاطـر ، الآيات من ١٩ الى ٢١ .

(١٥) سـورة الزمـر ، الآية ٩ .

(١٦) سـورة النسـاء ، الآية ١٦٢ .

(١٧) سـورة طـه ، الآية ١١٤ .

(١٨) سـورة البقـرة ، الآية ١٢٩ .

(١٩) سـورة النحـل ، الآية ٤٢ .

(٢٠) الامام الحافظ ابو عبد الله بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه البخـارى الجعفى امير المؤمنين فى الحديث : (**صحيح البخارى**) . (عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م) ج ١ ص ٤٥ .

طريقا الى الجنة »(٢١) . « ومن يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين »(٢٢) . « ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما صنع »(٢٣) . « اطلبوا العلم ولو بالصين »(٢٤) . « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدماء الشهداء »(٢٥) . « طلب العلم فريضة على كل مسلم »(٢٦) . « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب »(٢٧) . « غدوة فى طلب العلم ، أحب الى الله من مئة غزوة »(٢٨) .

وقال سيدنا على رضى الله عنه(٢٩) :

وما الفخر الا لأهل العلم انهم — على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرىء ما كان يحسنه — والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا له أبدا — الناس موتى وأهل العلم أحياء

وما من شك أن التعليم من مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانسانى وهو من أبسط مظاهره ، ليس سوى تكييف الفرد مع ضروريات الحياة ولوازمها فى بنيته ، واذا كان الاسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهرها فقد كان فهمه ودراسته أمرا لابد منه لأفراد الجماعة الاسلامية ، فالتعليم اذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التى تهدف الى الدعوة الاسلامية .

ومن الواضح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يستهدف بناء أمة جديدة وانشاء حكومة تضاهى الحكومات القائمة فى عصره من وجود طبقة متنورة تتحمل عبء الدولة والدعوة . ولها قوة الحجة والمقدرة على الاقناع بالطرق العلمية . وتذكر المراجع(٣٠) التاريخية أنه لم يكن بين العرب عدد كثير من الذين يتقنون القراءة والكتابة .

ويذكر القلقشندى(٣١) : « ان عدد الكاتبين من بين العرب عند بعث النبى

---

(٢١) ، (٢٢) المصدر نفسه .

(٢٣) الغزالى : (**احياء علوم الدين**) . (مطبعة الحلبى — القاهرة ١٣٥٨ هـ/١٩٣٩ م) جـ ١ ص ١٨ .

(٢٤) ، (٢٥) ، (٢٦) ، (٢٧) ، (٢٨) ، (٢٩) : المصدر نفسه جـ ١ الصفحات : ١٨ ، ١٥ ، ١١ ، ١٦ ، ٣٢١ ، ١٧ .

(٣٠) د. حسين أمين : (**نشأة الحركة العلمية فى العراق**) . مجلة المؤرخ العربى — بغداد — العراق . ع ٤ (١٩٧٧ م) ص ٩ .

(٣١) القلقشندى . صبح الاعشى جـ ٣ ص ١٥ .

صلى الله عليه وسلم لم يكن يزيد على بضعة عشر نفرا » . ولهـذا كان من اهـداف النبى صلى الله عليه وسلم العمل على نشر التعليم بين المسلمين وتشجيعهم على ارتياده وواكب المسجد الدعوة الاسلامية ولازمها كما كانت المعاهـد الاولى للتعلم فى صـدر الاسلام ، وأصبح المسجد المكان الطبيعى والملائم لتلقى العلوم . وانتشرت المساجد فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، فقامت بدورها ورسالتها الدينية والتهذيبية والتعليميـة .

ولا شـك أن المسجد فى صـدر الاسلام كان هـو المنتدى الوحيد فى اى مدينة اسلامية ، فيه يلتقى العرب المسلمون بغيرهم من ابناء الشعوب المختلفة ، وهـذا الالتقاء ادى الى أن يتعرف الفرس مثلا فى العراق على الأفكار الدينية الجـديدة . ويتلقونها باللغـة العربية الفصحى ، كما يتعرفون على تراثهم الفكرى ، وبخاصـة التراث الأدبى . ويعتبر المسجد من مظاهر الحضارة وعناصرها فى الاسلام ، بأهميته الكبرى فى الحياة الدينية والسياسية والفكرية ، ففيه تقـدم فرائض الدين وفيـه يبايع الخلفـاء والأمراء وتبحث أمور الحرب والسـلم ، وكثيرا ما تحـدث فيـه التجمعات السياسية وكان الأمير يعلن فيـه ما أنيـط به وما اعتزمه من أمر . وبقى المسجد الى أواخر القرن الثالث الهجرى على الأقـل المدرسة التى يتلقى فيها الناس العلم والمعرفة ويلتقى فيها العلمـاء والأدباء فيتناقشون او يلقـون المحاضرات فى حلقـاتهم وينشرون علمهم كما يقـول القصاصون والوعاظ بوسط النـاس وارشادهم وتبصيرهم بمبادىء الدين الاسـلامى .

وقـد صنف الكثير من الكتب فى المساجد الاسلامية ويؤكد ذلك المخطوطات الكثيرة المنتشرة فى أنحاء العالم(٣٢) وفيها يشير مؤلفـوها وناسخوها بأنهـا الفت ونسخت فى عـدد من المساجد كما أن كتب التاريخ والتراجم تزخر بأخبار العلمـاء والفقهاء الذين اتخـذوا من المساجد أمكنة فيها يتزودون بالعلوم والمعارف وفيهـا يقيمون ويعيشون ويتدارسون ويدرسون ويؤلفون آثارهم الفكرية . فلم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدى فيها الصلوات فحسب بل كانت منبرا للعلوم والمعارف كما ارتفعت كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم فـوق مجـد التدين الاعمى . « حبر المطالب اقـدس من دم الشهيد » .

وحـول أعمـدة الجامع كان يجلس الاستاذ ويلتف حوله الطلبة او التلاميذ

---

(٣٢) محمد سعيد الطريحى : (**خزائن الكتب الاسلامية القديمة فى الكوفة**) . مجلة المورد المجلد ٩ عـ ٤ (١٤٠١ هـ/١٩٨١ م) ص ٣٠١ .

لتلقى العلم وكانوا يسمونه فى ذلك الوقت حلقة وينسبون كل حلقة فى الغالب الى أستاذها فيقولون حلقة أبى اسحاق الشيرازى فى جامع المنصور . وهـذه الحلقـة أبوابها مفتوحـة لمن يشاء رجـلا كان أو امرأة لكل الحـق فى سـؤال الأستاذ أو مقاطعته معارضا ، وكان هـذا النظام أكبر دافـع للأساتذة يدفعهم دائما للاعـداد المتقن فى دروسهم والتعمق فيها . كما كان لأى معلم الحق فى أن يلقى ما شـاء من محاضرات وأن يتخـذ الأستاذ الموضوع الذى يريد الحـديث فيه ولكن الجمهور المثقف الواعى بنقـده الدائم ويقظته كان يحمى تلك المجالس من أن يتسرب الى قيادتها مدعى علم أو من لم تنضج ثقافته وتكتمل(٣٣) .

وحـول أعمـدة المساجد اتيحت دائما للطلاب فرصة الاستماع الى الأساتذة الزائرين من كل أنحـاء العـالم المترامى الأطراف . ولقـد كان المتعلمون فى طريقهم يزورون مراكز الثقافة الاسلامية الواقعـة فى بغـداد ودمشق .

وقـد أدت مساجد العراق قسطا كبيرا فى نشر العلوم والمعارف وكانت بحـق مراكزها منارات للاشعاعات الفكرية ، وقـد اشتهرت مساجد عـدة كانت أشـبه بالجامعات اليوم وأهمها جامع المنصور ببغـداد . وكان لهـذا الجامع العظيم المكانة العلمية فى بغـداد وكان لا يفـوز بالتدريس فيه الا كبار العلماء الذين أوتوا حظـا كبيرا من العلم والمعرفة . فقـد انشأ هـذا الجامع الخليفة العباسى عندما بنى مدينة بغـداد عام ١٤٦ هـ وجعله ملاصقا لقصره الشهير (قصر الذهب) وأعاد الرشيد بناءه مـع زيادة مساحته ، ثم أضيفت زيادات كثيرة فى عهد الخلفاء العباسيين(٣٤) .

أما جامع البصرة فقد كان من أهم المراكز العلمية فى العراق . وشهد هذا الجامع حلقات المعتزلة التى أحدثت حركة الاعتزال ، فلعبت دورا كبيرا فى الاتجاهات الفكرية والسياسية فى العالم الاسلامى فى العصر العباسى الأول . وفى مسجد البصرة هذا كان الشعراء والأدباء يجتمعون ، وقـد ذكر الجاحظ انه ادرك بالبصرة رواد المسجد بين المربدين ، واتخـذ الخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى عام ١٧٤ هـ المسجد مقرا لـه . ويعتبر الخليل أول من رسم علم اللغة واول من صنف فيه ويذكر ابن خلكان

---

(٣٣) زغريد مونكه : (**شمس العرب تسطع على الغرب**) ، ترجمـة فاروق بيضـون وكمال دسوقى ، (المكتب التجارى للطباعة والتوزيع – بيروت – لبنان ط ١) ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(٣٤) د. محمد حسين الزبيدى : (**المراكز الثقافيـة فى العراق فى القـرنين الرابع والخامس الهجريين**) ، مجلة المؤرخ العربى – بغداد – العراق عـ ١٥ (١٩٨٠ م) ص ٢٠٤ .

سبب وفاته أنه دخل المسجد فصدمته سارية وكان يقطع بحرا من العروض(٣٥) . كما يعتبر الخليل بن أحمد أول من وضع علم العروض وفن المعاجم فى العربية وقد عاش معظم حياته فى البصرة متزهدا متعففا ومن أشهر طلابه سيبويه المتوفى سنة ١٨٠ هـ والذى يعتبر امام البصريين فى النحو .

وهناك المسجد الجامع فى الكوفة الذى بنى فى عام ١٤ هـ وأنشأه سعد بن أبى وقاص وجدده زياد بن أبيه عام ٥٠ هـ وقد كان لانتقال على بن أبى طالب الى الكوفة واتخاذه اياها عاصمة له أثر كبير فى اذكاء النهضة العلمية فيها(٣٦) . واشتهر مسجد الكوفة هذا بأنه كان مدرسة لاقراء القرآن ففيه كان يجلس الشيوخ الأمراء فيلقنون طلاب العلم القراءات التى رووها بأسانيدهم ومن اشهر قراء الكوفة عبد الله بن حبيب ربيعة الضرير وكان أول من جلس لاقراء القرآن الكريم فى مسجد الكوفة(٣٧) .

كما كان مسجد الكوفة مركزا من مراكز دراسة الفقه وازدهارها . ففى هذا المسجد ظهرت بوادر مبادىء الفقه المبنى على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة ، كما ظهرت فى مسجد الكوفة أيضا مدرسة لتفسير القرآن الكريم ، واشتهر من رجالها سعيد بن جبير حيث كان عالما بالتفسير ، وعلى بن حمزة الكسائى الذى انتهت اليه رياسة الاقراء بعد حمزة بن حبيب فكان يجمع طلابه ويجلس على كرسى يتلو عليهم القرآن الكريم ويسمعون ويضبطون فيه(٣٨) .

ويحيى بن زيد الفراء عنى بدراسة القرآن الكريم وتفسيره ويعتبر الفراء من نحاة الكوفة وشيوخها فى العربية قال ثعلب : « لولا الفراء لما كانت اللغة لانه حصلها وضبطها ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع »(٣٩) . لانها تاثرت باللغات الأخرى وبذلك كادت أن تفقد خصائصها الأصيلة لذا انبرى الفراء وأمثاله الى وضع قواعد الضبط فى اللغة للحفاظ على تلك الخصائص كما نجحوا نجاحا

---

(٣٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٩ .

(٣٦) ابن الجزرى ، شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد : (**غاية النهاية فى طبقات القراء**) . (مكتبة الخانجى – مصر ١٣٥ هـ/١٩٣٢ م) جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٣٧) المصدر نفسه .

(٣٨) ابن الجزرى : غاية النهاية فى طبقات القراء جـ ٢ ص ٤١٣ .

(٣٩) الأنبارى ، ابو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد (**نزهة الألباء فى طبقات الأدباء**) تحقيق محمد الفضل ابراهيم . (دار نهضة مصر للطبع والنشر – القاهرة – بدون) ص ٦٥ .

بعيدا فى جعل اللغة العربية سهلة المنال لمن يريد تعلمها وضبطها ومطاوعة لارادة الكتاب للتعبير عن آرائهم وأفكارهم أعنى بهـذا انهم نجحوا فى جعل اللغة العربية سهلة المنال لمن يريد تعلمها وضبطها ، وبتطورها قادرة على مواكبة التطور الحضارى والمعايشة بين اللغـات الانسانية عامة .

وهكذا أصبحت المساجد الاسلامية فى العراق معاهـد مهمة تشد اليها الرحال للدرس والتدريس كما كان يطمع العلماء فى أن ينالوا منصبا تدريسيا فى تلك الجوامع لمكانتها العلمية(٤٠) . ومن أجـل أن يحقق المسجد مطامع مريديه وتيسير عملهم العلمى فقـد الحقت فى كل مسجد مكتبة عامرة تضم عـددا وفيرا من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وقـد تسابق الناس الى تزويد تلك المساجد بالكتب وان بعض المسلمين كان يوقف كتبه على المساجد ، طلبا للأجر أو الحفـاظ عليها من أن تبـددها الأيدى وهكذا صارت بعض المساجد اشبه بالأكاديميات الثقافية .

وكان لهـذا الأثر الكبير فى نجاح الدرس والتدريس والبحث والتصنيف . والى جانب المسجد كمعهد للتعليم كانت توجـد أماكن أخرى لتعليم الأطفال وهى الكتاتيب ومفردها (كتاب) وفى الكتاب يتعلم الطفل القراءة والكتابة ومبادىء الدين الاسلامى ، وبعض المعلومات من الحساب والنحو وشيئا من اشعار العرب ، وتوجـه العنـاية فى الكتاب الى تحفيظ الصبيان القرآن الكريم(٤١) . ويتقاضى المعلم أجرا على عمله ، والدراسـة فى الكتاتيب أشبه بالدراسـة فى المدارس الابتدائية فى يومنا هـذا . أما الربط وهى جمع رباط وأصل الربط ما تربط فيه الخيول المعـدة للدفاع والمجاهـدة والمرابط هـو المجاهـد يدافع عمن وراءه فالرباط جهاد النفس والمقيم فى الرباط مجاهـد نفسه ويطلق أيضا على بيت الصوفية . ولم تكن الربط دورا مقصورة على التعبد والتزهـد ، وانما كانت فضلا عن ذلك مواضع للتأليف والتصنيف والاقراء والتثقيف والاجازة والمحاضرة وغيرها وكان من عادة واقف الرباط أن يجعل فيـه وقفا من الكتب للمطالعة والدرس والاستنساخ والمراجعة والاستشهاد ، وكان لخزائن الكتب فى الربط قـوام يتولون خزنهـا وصيانتها ومناولتها وترتيبها(٤٢) ومن أشـهر الربط فى بغـداد فى العصر البويهى :

---

(٤٠) ياقـوت الحمـوى : معجم الأدباء ج ٤ ص ٢٤٣ .

(٤١) د. عصام الدين عبد الرءوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ص ٢٤٣ .

(٤٢) د. محمد حسين الزبيدى : المراكز الثقافية فى العراق فى القرنين الرابع والخامس الهجريين ـ ١٥ ص ٢٠٥ .

(أ) رباط الزوزنى المتوفى عام ٤٥١ هـ(٤٣) .

(ب) رباط شيخ الشيوخ وقد بناه عميد العراق وقد اشار ابن الأثير الى ذلك بقوله « أما عميد العراق فقتله البساسيرى وكان فيه شجاعة ولـه فتوة وهو الذى بنى رباط شيخ الشيوخ وقد شيد هذا الرباط على نهر المعلى »(٤٤) .

(جـ) رباط ابن رئيس الرؤساء الاولى ويعرف برباط الدركاه أما رئيس الرؤساء فهو الوزير أبو القاسم على بن الحسين بن أحمد المعروف بابن مسلمه وكان كاتبا للخليفة القائم بأمر الله فاستوزره « ولقبه رئيس الرؤساء شرف الوزراء جمال الورى » ولما احتل البساسيرى بغداد باسم الدولة الفاطمية قطع خطبة بنى العباس وخطب للمستنصر بالله الفاطمى وقبض على هذا الوزير وصلبه حتى مات مصلوبا سنة ٤٥٠ هـ .

وهكذا نرى أنه بجانب المجالس الزاهرة ورعاية الامراء والوزراء للعلم والمعرفة هناك سبب آخر لازدهار الفكر فى هذه الحقبة من الزمن هو تيسير الاطلاع والقراءة وتيسير التعليم وحضور الدرس الذى ادى الى ظهور مراكز لتدريس العلوم والمعرفة وهى اشبه بالمدارس اليوم ، فكان معظم هذه المراكز عبارة عن حلقات يجتمع فيها الطلاب حول مدرسهم ويلقى المدرسون على طلبتهم ما يحذقون من علوم دينية ودنيوية ثم تجرى مناظرة بين الطلاب ومدرسيهم وكانت معظم هذه الحلقات بصورة عامة تهتم بالمسائل الدينية بالدرجة الأولى ثم بالمسائل الدنيوية التى تتكون من دراسة اللغة العربية والفلسفة والمنطق والفلك وغيرها . ولم يكن نصيب العلوم البحتة كالطب والرياضيات والصيدلة بأقل من نصيب العلوم الدنيوية والدينية .

فكانت تجرى دراسة الطب فى أغلب الأحيان فى المستشفيات التى اعدت لمعالجة المرضى كما جعلت معاهد علمية لتعليم الطب والحقت بها مكتبات كبيرة زودت بعدد كبير من الكتب الطبية الى جانب الكتب العلمية الاخرى .

وخلاصة القول انه لم تظهر المدارس العلمية المنظمة فى وقت مبكر لان هناك مراكز أساسية فى العراق كانت تقوم بنفس الدور الذى تقوم به اليوم ومن أهمها ما ذكرناه سابقا من مساجد ومنازل العلماء والربط والمستشفيات ودور العلم والمكتبات .

---

(٤٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ١٢ ص ١١٥ .

(٤٤) ابن الأثير ، أبو الحسن على بن الكرم محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى : (**الكامل فى التاريخ**) . (الطبعة المنيرية – مصر ١٣٤٩ هـ) جـ ٨ ص ٢٥٠ .

ثانيا ــ المدارس الاسلامية حالتها بعــد انشاء بيت الحكمة :

ان اتساع الحلقات العلمية داخــل المساجد وكثرة المناقشات والمناظرات التى كانت تدور داخلها قــد أبعــدت هــذه المساجد عن مهمتها الأساسية وهى العبادة ولهــذا نجــد أن بعض المساجد قــد أصبحت تتخــذ طابع المدرســة من حيث بناؤها وتنظيمها وتوفير الغرف فيها للطلاب والأساتذة كما أنه لم تكن هنــاك نفقــات معينة تبــذل فى سبيل نشر العلم ، فظهرت الحاجة الملحــة الى تأسيس مكان يخصص لرعاية العلم ، ونشر الثقافة وظهرت فى الوقت نفسه فكرة أن يوقف على هــذا المكان أو المعهد وقف ينتج ايرادا يكفى للانفاق على شئونه وشئون القــائمين بالعمل فيه وكان المــأمون أول من أبرز هــذه الفكرة للوجــود فانه لم يشأ أن يكون نشاط بيت الحكمة متوقفا على سخاء الخلفاء والأمراء بل أراد أن يجعل نشاطه قويا متصلا سواء كان الخليفة شحيحا أم كريما فهيأ للعلماء رزقا سخيا يتقاضونه من وقف ثابت يفيض ريعــه عن التكاليف المطلوبة لهــذه المؤسسة الثقافية(٤٥) .

ومن المعروف أن تأسيس بيت الحكمة قــد اكتمل على يد المــأمون (٢١٧ هـ/ ٨٣٢ م) ولكنها لم تكن مدرســة نظامية بالمعنى المتعارف عليه بقــدر ما كانت دارا للنسخ والترجمة الى جانب كونها أول مكتبة عامة ذات شأن فى العالم الاسلامى .

ويميل بعض المؤرخين الى الاعتقاد بأن نشأة المدارس الاسلامية يحيط بهــا كثير من الغموض ولا يمكن تحــديدها بتاريخ معين كما يرى آخرون أنه من المرجح أن تكون المدارس قــد سبقت فى ظهورها نشأة المدرسة النظامية فى عام ٤٥٩ هـ أى فى منتصف القرن الخامس الهجرى(٤٦) .

ومهما يكن الأمر فان المرجح أن تكون بعض المصادر قــد خلطت بين المدارس كمؤسسات تعليمية مستقلة وبين أماكن التعليم الأخرى مثل الكنائيب والمساجد وغيرها . حيث لم يصل الينا من الكتب التى تبحث فى المدارس وأماكن التعليم الا عــدد ضئيل اذا قيس بتلك الأعــداد الزاخرة التى ألفها العرب فى الشئون العلمية والحضارية الأخرى . ولعل من اهم الاسباب التى أدت الى ذلك أن هــذه المؤلفات وضــعت فى العصور العباسية المتأخرة ولم يمض عليها الوقت الكافى لاستنساخها واطــلاع

---

(٤٥) Sayed Ameer Ali : Short History of Saracens, London 1916, P. 274.

(٤٦) د. ابراهيم الجيار : (دراسات فى الفكر التربوى) . (وكالة المطبوعات ــ الكويت طبعة ١٩٧٤ م) ص ١٤٣ .

الناس عليها فسرعان ما عصفت بالبلاد الاسلامية موجة المغول التى دمرت مدنا اسلامية كاملة واجتاحت أقطارا واسعة فى بلاد المشرق وأتت على بغداد والدولة العباسية من القواعد فضاعت مئات الألوف من الكتب الخطية ومحقت دور علم وخزائن كتب لا تعد ومحيت معاهد ومدارس مشهورة وقضى على عدد كبير من جلة العلماء والأدباء . ولما حلت ببغداد نكبة تيمورلنك وايامه السود كانت اشد وطأة عليها من تلك العواصف الهوج فلم تبق حروبه ولم تذر من دور الكتب وخزائنها شيئا يذكر . ولم يبق من الكتب الا ما كانت منه نسخ عديدة انتسخت وامتلكها أناس كانوا فى نجوى من هذا الاعصار او احتوتها معاهد ومساجد كانت بعيدة عن حروبه ونفوذه يضاف الى ذلك جهل الناس أبان هذه الفترة بقيمة كثير من هذه المؤلفات(٤٧) .

أما الكتب التى كانت بخطوط مؤلفيها ولم يكتب لها الاستنساخ فقد فقدت كلها أوضاع اكثر اجزائها وخير مثال على ذلك كتاب ابن الفوطى المعروف « تلخيص مجمع الآداب فى معجم الأسماء والألقاب » والذى تنص احدى الروايات على انه كان فى ثمانين مجلدا لم يصل الينا منه الا المجلدان الرابع والخامس وهما بخط المؤلف وقد وجد الرابع فى المكتبة الظاهرية بدمشق ووجد الخامس فى لاهور بالباكستان . وذكر ابن الفوطى(٤٨) أن كتبا صنفت عن المستنصر والمستنصرية ولكنها لم تصل الينا .

ان انشاء المدارس فى الاسلام من المنجزات العظيمة التى حققت الاهداف العلمية والتربوية وقدمت الخدمات الجليلة للانسانية جمعاء . وتشير المؤشرات التاريخية أن مدينة نيسابور كانت رائدة المدن الاسلامية فى انشاء المدارس فقد شيد أهلها مدرسة للفقيه الشافعى أبى اسحاق الأسفراييني المتوفى سنة ثمانى عشر وأربعمائة للهجرة(٤٩) .

كما تشير المصادر ان مدرسة اخرى انشئت فى تلك المدينة للعالم ابى بكر

---

(٤٧) د. ناجى معروف : (**المدارس الشرابية ببغداد وواسط ومكة**) . (مطبعة الارشاد - بغداد - العراق ١٣٨٣ هـ/١٩٦٤ م) ص ٩ .

(٤٨) ابن الفوطى : (تلخيص مجمع الآداب فى معجم الالقاب) . تحقيق مصطفى جواد (وزارة الثقافة والارشاد القومى - دمشق ١٩٦٤ م) ج ٥ ص ٥٢٨ .

(٤٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٩ .

البيهقى المتوفى سنة ثمـــان وخمسين وأربعمائة للهجرة(٥٠) . ان انشاء المدارس فى الاسلام يظهر انها مبادرات شعبية حققت للناس طموحاتهم فى أن تكون تلك الأمكنة مراكز علمية تدرس فيها مختلف العلوم والآداب وهى فى عهدها الأول وان لم تستكمل شروط المدرسة فقـــد تكونت من بيت لـــه رحبة واسعة فيه بعض الغرف للدرس ، وقـــد تختلف المدرسة من حيث السعة ومن حيث الوقوف التى توقف للصرف عليها وكذلك من حيث الشيوخ الذين يدرسون بها ومكانتهم العلمية واشتهارهم(٥١) .

ويمكننا اعتبار سنة ٤٥٩ هـ حـــدا فاصلا بين عهدين فى تاريخ المؤسسات التعليمية الاسلامية . ففى هـــذا العام انشئت المدرسة النظامية فى بغـــداد مؤذنة ببداية عهـــد جـــديد انتقلت فيه اماكن التعليم من الكتاتيب ـــ التى كانت فى العصر العباسى الأول تقام لتعليم مبادىء القراءة والكتابة وبعضها كان يعلم فيها أيضـــا اللغـــة العربية وما اليها من نحـــو وعروض(٥٢) ـــ والقصور والمساجد ودور الحكمة وحوانيت الوراقين ومنازل العلماء الى المدارس المنظمة(٥٣) .

ويعتبر ظهور المدارس فى العصر الاسلامى أهم محاولة جـــديدة لتنظيم الدراسة واستمرارها لتوفير وسائل التفرغ لهـــا ، اذ جعلت مرتبات للمدرسين وزود الطلاب فى حالات كثيرة بالمسكن والمـــأكل ممـــا ساعد بالضرورة على ايجاد نظـــام ثابت وتقاليد مرعية للمدرس والادارة وعمل على استقرار تلك المعاهـــد(٥٤) .

وقـــد كان التعليم الأولى عاما للجميع وخاصة فى عصر الدولة العباسية التى تبنى فيها الخلفاء العلم والعلماء وأبدوا اهتماما كبيرا بالتعليم والمتعلمين ، فعملـــوا على توفير فرص التعليم الأولى لكل طفـــل والحقوا بكل مسجد مدرسة لتعليم القراءة والكتابة ومبادىء العلوم بالاضافة الى تحفيظ القرآن .

وكان من نتائج ذلك أن انتشر التعليم فى الدولة الاسلامية اثناء عصورها المزدهرة حتى كادت الأمية أن تختفى تمـــاما . ويعلق أحـــد الباحثين على ذلك بقوله : « لقـــد

---

(٥٠) المقريزى : الخطط جـ ٢ ص ٣٦٣ .

(٥١) د. حسين امين : نشأة الحركة العلمية فى العراق عـ ٦ ص ٦ .

(٥٢) عمر رضا كحالة : المراة فى عالمى العرب والاسلام جـ ٢ ص ١١٣ .

(٥٣) د. ابراهيم الجيار : دراسات فى الفكر التربوى ص ١٤٢ .

(٥٤) أسماء فهمى : (**مبادىء التربية الاسلامية**) . (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ـ القـاهرة ١٩٤٧ م) ص ٣٣ .

كانت هـــذه الليبرالية العظيمة التى أبداها المسلمون نحـــو تعليم أبنائهم من أهم عـــوامل ازدهار وتقـــدم حضارتهم ، فقـــد كان التعليم فى كل أرجاء الدولة الاسلامية لدرجـــة أنه يروى انه كان من العسير أن تعثر على فرد من المسلمين لا يعرف القراءة والكتـــــــابة »(٥٥) .

أما بالنسبة للتنظيم الداخلى للمؤسسات التعليمية الاسلامية فمن المرجح أن معاهـــد التعليم لم تتبع نظام تقسيم الدراسة الى سنوات تعليمية كما لم يعرف تقسيم التلاميذ الى فصول دراسية ، وانما كان التلاميذ يجلسون فى حلقات حـــول الأستاذ الذى يجلس على خشبة أو منصة ويستند الى حائط أو سارية من ســـوارى المسجد . ويرى كثير من الباحثين ان نظام التربية الاسلامية فى العصور الوسطى قـــد تميز بقـــدر من الحرية ومراعاة الفروق الفردية تحسده عليها المدارس والجامعـــــات الحـــديثة فقـــد كان الطالب هـــو الذى يختار أستاذه وينتقى ما يدرسه من علوم وعندما بدأ عهد المدارس النظامية استحدثت بعض القيود اذ كانت تتطلب استمرار الدراسة والتفرغ لهـــا ، ولذا كان الطالب فى المدارس النظامية عادة من المتفرغين للدراسة والمنقطعين لطلب العلم(٥٦) .

ويقول المستر (درابر) الأمريكى المشهور : ان المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهـــل العلم من النصارى والنسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام ، بل فوضـــوا اليهم كثيرا من الأعمال الجسام ورقـــوهم الى مناصـــب الدولة ، حتى أن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه — ولم ينظر الى البلد الذى عاش فيه العالم ولا الى الدين الذى ولد به ، بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة(٥٧) .

أما بالنسبة لتنظيم المدارس الاسلامية فيمكن أن نستخدم لغـــة العصر الحديث فى اعطائه بنية السلم التعليمى على النحو التالى :

١ — المرحلة الأولى : وكانت تقـــدم فى الكتاب من سن ٦ — ١٤ تقريبـــا . وكان الكتاب يوجـــد غالبا خارج المسجد فى منزل الفقيه (المعلم) او فى الحوانيت .

---

(٥٥) E. H. WILDS : The Foundations of Modern Education). London 1959, p. 216.

(٥٦) د. ابراهيم الجبار : دراسات فى الفكر التربوى ص ١٤٤ .

(٥٧) د. مصطفى السباعى : (من روائع حضارتنا) . (المكتب الاسلامى — بيروت — لبنـــان ط ٢ ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ م) ص ٩١ .

٢ ــ المرحلة الثانوية أو المتوسطة : كانت مدارس هــذه المرحلة تعرف باسم مدرسة المسجد او الحلقة أو المدرسة ويتراوح سن التلاميذ فيها من ١٤ الى ١٨ .

٣ ــ مرحلة التعليم العالى : وتبــدأ من بعــد انتهاء التلميذ من حفظ القرآن الكريم وكانت توجــد فى احــدى المؤسسات التالية : بيت الحكمة ، المكتبات ، الصالونات الأدبية ، دور العلماء ، المساجد الكبيرة مثل الأزهر وجامــع القرويين وجامع الزيتونة(٥٨) . وذكر ابن خلكان المتوفى (٦٨١ هـ/١٢٨٢ م) أن الــوزير السلجوقى نظام الملك الطــوسى المتوفى ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م أول من أحــدث المدارس فى الاسلام وأن أول مدرسة انشئت هى المدرسة النظامية التى شرع بانشائها ببغــداد ٤٥٧ هـ/١٠٦٤ م وافتتحها فى ذى القعدة ٤٥٩ هـ/١٠٦٦ م(٥٩) .

فنظام الملك الطــوسى مؤسس المدرسة النظامية ببغــداد والنظاميات التسع الأخرى فى المشرق والعراق ، لم يكن رجــلا سياسيا فحسب بل كان فقيها متحــدثا ايضا . حــدث بمرو ونيسابور والرى وأصبهان وبغــداد ، وأملى الحــديث فى جامع الرصافة وفى مدرسته النظامية ببغــداد وكان يقول : « انى لأعلم أنى لست أهــلا للرواية ولكن أريد أن أربط نفسى على قطار النقلة بحــديث رســول الله صلى الله عليــه وســلم(٦٠) .

وكانت هــذه المدرسة فى الجانب الشرقى من بغــداد وقــد انشئت لتدريس الفقه الشافعى وشرط الوقفى فيها أن يكون المدرس والواعظ ومتولى الكتب من الشافعية أصلا وفرعا(٦١) ، وكان نظام الملك قــد أمر بانشاء عــدة مدارس أصبحت نموذجا للمدارس الجــديدة ، وغــدا نظام الملك نفسه قــدوة حسنة يحتذى بهــا كبار رجال الدولة من الوزراء والأمراء فى انشاء المدارس كما أن اهمية عمل نظــام الملك ترجــع الى كونه بداية عصر جــديد من الازدهار للمدرسة اذ أصبح السلطان ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس ، كما أن تكوين المدرسة على الوضع الذى رسمه نظام الملك وما ألحقه من أقسام داخلية لاقامة الطلاب أصبح فيما بعــد نمــوذجا يحتذى فى سائر المدارس التى انشئت فى العصور التالية(٦٢) .

---

(٥٨) د. ابراهيم الجيار : (**تاريخ التعليم الحديث**) . (دار الثقافة ــ القاهرة ط ١٩٧١ م) ص ١٠ .

(٥٩) ابن خلكان : وفيــات الاعيــان جـ ١ ص ٣٩٦ .

(٦٠) ابن الاثير . الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٦٢ .

(٦١) ابن الجــوزى : المنتظم جـ ٩ ص ٦ .

(٦٢) Encyclopedia of Islam. Art Masjid.

ان الدافع على الأرجح من تأسيس المدارس النظامية كان مذهبيا وسياسيا فقد كان نظام الملك شافعيا اشعريا حريصا على مذهبه وعاصرت نظام الملك آراء وأفكار متباينة كانت منتشرة فى العالم الاسلامى كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة من أصحاب الملل والنحل . كما أن اندحار البويهيين سياسيا لم يكن يعنى ابدا أن آثار مذهبهم الشيعى فى المشرق قد زالت لذا كان لابد من اجراء سريع يزيل ما علق فى اذهان الناس ونفوسهم من آثار هذا المذهب(٦٣) .

وهذا ما قامت به المدرسة النظامية والمدارس الأخرى فى بغداد واصبهان ونيسابور حيث بنى نظام الملك مدرسته النظامية على شاطىء دجلة ورتب فيها العلماء لدراسة العلوم الدينية واللسانية وبنى حولها اسواقا ووقف عليها أوقافا دارة . ولقد كان لهذه المدرسة شأن كبير فى العالم الاسلامى تخرج منها جماعه من فحول العلماء ، وكان من اساتذتها ابو اسحاق الشيرازى وابو حامد الغزالى وكمال الدين الانبارى ، ثم امتلأت دمشق وحلب وحمص وحماه وبعلبك وغيرها من بلاد الشام وقرطبة واشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها من بلاد الأندلس ثم مصر والاسكندرية بالمدارس المجانية على غرار المدرسة النظامية(٦٤) .

وتكاد تجمع المصادر العربية مثل الأصفهانى وابن الاثير وابن الجوزى والسبكى وغيرهم على عظمة المدارس النظامية وكثرتها ووفرة ما اغدق عليها من أموال وما بها من كتب حتى قيل انه انشأ فى كل مدينة مدرسة من العراق وخراسان(٦٥) .

ولقد قيل ان ما كان ينفقه نظام الملك على المدارس النظامية بلغ مائة الف دينار . وكان وقفها ببغداد خمسة عشر الف دينار سنويا ونظامية اصبهان عشرة آلاف دينار وهكذا(٦٦) . وبكاد يكون غالبا بجانب هذه المدارس اربطة للصوفية والسابلة وكتاتيب لصغار المتعلمين ودور كتب عظيمة لمراجعة العلماء والطلاب غير خزائن كتب الملوك والوزراء التى كانت تحوى مئات من المجلدات(٦٧) .

---

(٦٢) د. نجاح القادسى : (**المعاهد والمؤسسات التعليمية فى العالم الاسلامى**) . مجلة المؤرخ العربى – بغداد – العراق عـ ١٩ (١٤٠١ هـ/١٩٨١ م) ص ١٨٠ . ١٨٨ .

(٦٤) مصطفى امين : (**تاريخ التربية**) . (دار المعارف بمصر – بدون) ص ١٧٦ .

(٦٥) د. عبد الحليم منتصر . (**تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه**) . (دار المعارف بمصر – القاهرة ط ٦ . ١٩٧٥ م) ص ٥٤ . ٥٥ .

(٦٦) د. عبد الحليم منتصر . تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ص ٦٨ . ١٦٠ .

(٦٧) د. محمد عبد المنعم خفاجى : (**الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى**) . (المكتبة الأزهرية – القاهرة ١٩٥٧ م) ص ٢٣ .

ونظام الملك هذا كان رجلا دينا لـــه مجالس يحضرها ائمة الدين من قراء وفقهاء ومحـــدثين كما انه انشأ المدارس فى الأمصار المختلفة لتعليم الحـــديث بل كان هـــو يمليه ، وفى ذلك يقول ابن الأثير : « كان عالمـــا دينا جـــوادا عادلا حكيما كثير الصفح عن المذنبين طـــويل الصمت ، كان مجلسه عامرا بالقراء والفقهاء ، وائمة المسلمين واهـــل الخير والصلاح . امر ببناء المدارس فى سائر الأمصار والبلاد وأجرى لهـــا الجرايات العظيمة وأملى الحـــديث ببغـــداد وخراسان »(٦٨) .

وعرف عن نظام الملك حبه للعلم واصطفاؤه النابغين من العلماء فتوفر الآباء على تعليم ابنائهم حتى يحظوا بالمناصب التى كان يقسمها درجات ويرشح لكل بحسب فضله وعلمـــه . فيذكر العمـــاد الأصفهانى « فى أيامه نشأ للناس اولاد نجباء على تهـــذيب الأبناء ليحضروهم فى مجلسه ويحظوا بتقريبه فانه كان يرشح كل أحـــد لمنصب يصلح له بمقـــدار ما يرى فيه من الرشد والفضل ومن وجـــد فى بلد قـــد تميز وتبحر فى العلم بنى لـــه مدرسة وقف عليها وقفا جعل فيها دار كتب »(٦٩) .

وساعدت حياة الرخاء والرفاهية وما نالته بغـــداد من الشهرة فى آفاق العالم الاسلامى على رغبة العلماء والطلاب فى الذهاب اليها وتلقى العلم بها وقـــد وصف لنـــا ابن جبير ما تركته هـــذه المدينة فى نفسه عنـــد ذهابه اليهـــا من أحاسيس وانعكاسات مبهجة لمـــا فيها من الحياة الزاهرة بأنواع السرور والبهجة حتى اشتهرت فى آفاق العالم الاسلامى بذلك وأصبح اسمها علمـــا على البهجة والأناقـــة والانس ومن اهم من اقاموا فيها دروس الأدب أبو منصور الجـــواليقى المتوفى ٥٣٩ هـ وشيخه التبريزى ودرس بها على بن ابى زيد القصبى وابن الجـــوزى(٧٠) .

ان المدارس الاسلامية ـــ على ما اعتقـــد ـــ كان هـــدفها واحـــدا هـــو العناية بالمواضيع الدينية اساسا ثم الاهتمام بالدراسات الأدبية والعلمية ، ان هذه المدارس ساعدت على اشاعة العلم والمعرفة بين الناس عامة وربط المسلمين برباط الثقافة ، وان اتاحـــة الفرصة للمسلمين القبول فى اى مدرسة فى بغـــداد والبصرة والقاهرة وتونس والرباط واصبهان كان لـــه الأثر المحمود فى توحيد الفكر الاسلامى وزيادة الترابط الانسانى ممـــا يساعد على اتاحـــة الفرصة للعراقى والسورى والمصرى

---

(٦٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ١٠ ص ٧٢ .

(٦٩) العماد الأصفهانى . الامام عماد الدين محمد بن محمد بن حامد : (**تاريخ دولة آل سلجوق**) . طبعة ١ مطبعة دار التأليف ـــ مصر ـــ القاهرة ١٣٧٢ هـ) ص ٥٤ .

(٧٠) ياقوت الحموى . معجم الأدباء جـ ٥ ص ٢٣٩ .

والفارسي والتركي أن يتعارفوا وأن تتماس العقول وتحتك الافكار وتتصهر جميعها في بوتقة العلم لتبرز افكارا مدروسة وآراء مجددية في حقول الادب والعلم(٧١) .

وهذا على ما اعتقد من أبرز ما قدمته تلك المدارس في ذلك العصر من خدمة للانسانية ولتراثها الخالد . كما ساعد ذلك اللقاء بين شعوب البلدان المختلفة ، في تعرفهم على عادات ، وتقاليد بعضهم البعض وانتشار اللغة العربية التي اصبحت لغة الدراسة والثقافة والعلم . مما ادى الى الاهتمام بهذه اللغة وتطويرها وازدهارها . ويرجع انتشار تلك الثقافات في البلاد الى المدارس والترجمات وتشجيع الخلفاء ونشرهم لها . فمدارس جنديسابور والرها ونصيبين وحران كانت تنشر الثقافة اليونانية ومدرستا الرها ونصيبين كانتا تزخران بالفلسفة اليونانية والتعليم المسيحية فكان في حران جماعة وثنية تسمى الصابئة نبغت في الدراسات اليونانية من علمية وأدبية ، أما جنديسابور فقد أسس النساطرة فيها مركزا مهما للثقافة اليونانية ، ونالت شهرة فائقة في الطب . وكانت هذه المدارس كلها منارات اشعاع في جميع العالم العربي والاسلامي(٧٢) .

ان المدارس العراقية قامت بأداء رسالتها العلمية والتعليمية وقدمت خدمات جليلة في نهضة العلوم الدينية كالتفسير والحديث والفقه والفرائض والعلوم العربية كاللغة والنحو والصرف والعروض والآداب والعلوم الرياضية والعقلية كالمنطق وعلم الكلام والاصول والعلوم الطبيعية كالطب والصيدلة وعلم الحيوان ، وأصبحت لتلك المدارس شخصية بارزة في عالم الثقافة وفي تربية النشء واعدادهم لحياة أفضل(٧٣) . كما أن تلك المدارس كانت مراكز للتطور الفكري فظهرت المؤلفات والتصانيف في شتى مواضيع الفكر والمعرفة مما ادى الى تطوير الآداب والعلوم وازدهارها ، فكانت تلك المدارس بحق مصادر الاشعاع الفكري ومنبع الثقافة الانسانية في العصور الوسطى الاسلامية حيث انتشر طلابها مشرقا ومغربا ونقلوا تراث بغداد والمدن العراقية الأخرى كما أصبحت تآليف أساتذة المدارس العراقية المعين الذي يغترف منه المتعلمون في جميع انحاء العالم مراكز لالتقاء العلماء والأدباء وأمكنة البحث والتأليف كل ذلك بلا شك ساعد على تطوير العلوم والآداب ، وعمل على ازدهارها خدمة للعلم والثقافة والانسانية .

---

(٧١) د. حسين أمين : نشأة الحركة العلمية في العراق عـ ٦ ص ١٠ .

(٧٢) حنا الفاخوري : (الجاحظ) ، (دار المعارف بمصر - القاهرة ١٩٥٨ م) ص ١٤ .

(٧٣) د. حسن أمين : نشأة الحركة العلمية في العراق ، عـ ٤ ص ١٨ ، ١٩ .

كانت المدارس العراقية أمكنة صالحة للعلم والتعليم ، وقد عنيت تلك المدارس فى تدريس العلوم والآداب وتربية المواطنين تربية صالحة واعدادهم الاعداد الذى يليق والمجتمع الاسلامى . وقد عنيت المدارس العراقية بالاختصاص فقد كان لكل موضوع مدرسه المختص وكان هذا واضحا كل الوضوح فى المدرسة النظامية والمستنصرية ، فعندما توفى أبو زكريا التبريزى أستاذ الأدب فى النظامية أصبح على ابن محمد الفصيحى صاحب ذلك الكرسى(٧٤) لاشتهاره بالأدب .

وكان مجال المناقشة مفتوحا أمام الطلاب ، وكانت للمناقشة بين الأساتذة وطلابهم آداب خاصة تكفل للأستاذ وقاره وهيبته ومكانته ، كما تحقق للطالب طريق الفهم والتعليم ، ذلك أن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به الا بتعظيم العلم وأهله وتعظيم الأستاذ وتوقيره . وكان الاستاذ هو الذى يضع برنامج التدريس وهو الذى يختار المادة العلمية التى يلقيها على طلابه . وكانت الدراسة حرة أى أن الطالب هو الذى يختار الاساتذة الذين يرغب فى مصاحبتهم وحضور دروسهم .

وارتقت المدارس العراقية فى سلم درجات التدريس مرتبة المعيد ووظيفته أن يساعد المدرس أو الشيخ ويوضح ما يصعب على الطلبة من أمور فى مادة الدرس . وهذا ما كانت تشترطه المدرسة المستنصرية أن يكون لكل طائفة من المذاهب الأربعة مدرس وأربعة معيدين وأن يكون بالمدرسة طبيب حاذق يشغل عشرة أنفس يعلمهم الطب(٧٥) .

أن كثرة المدارس والانفاق عليها بسخاء وميل الناس وخاصة الأثرياء الى بناء مدارس جديدة أو وقف دورهم وقصورهم لتكون مدارس كل هذا يدل على نهضة ثقافية ووعى علمى لا شك فيه .

ويظهر الصراع المذهبى واضحا فى تأسيس المدارس وفى الدراسة والتدريس بها فلكل مذهب طريقته التى يحاول عن طريقها نشر تعاليمه وتشجيع كبار العلماء على اعتناقها ليستطيعوا التدريس فى مدارس المذهب الخاصة ، فقد كانت المدارس النظامية وفيها نظامية بغداد من أسباب انتشار المذهب الشافعى لأن كل طالب لا يقبل فيها الا اذا كان شافعيا وكذلك المدرسون(٧٦) .

---

(٧٤) الاربلى ، عبد الرحمن سنبط بن ابراهيم بن قنيتو : (**خلاصة الذهب المسبوك مختصر من سير الملوك**) تحقيق مكى السيد جاسم (مكتبة المثنى – بغداد – العراق ط ٢ ، ١٩٦٤ م) ص ٢١٢ .

(٧٥) الزرنوجى ، برهان الاسلام : (**تعلم المتعلم طريق التعلم**) (القاهرة ١٩٤٨ م) ص ١٨ .

(٧٦) د. حسين أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

قال أبو البقاء العكبرى : وكان حنبلى المذهب ، جاء الى جماعة من الشافعية ، فقالوا : انتقل الى مذهبنا ونعطيك تدريس النحـو واللغة والنظامية فانقسمت وقلت لو أقمتمونى وصببتم على الذهب حتى ارتوى ما رجعت عن مذهبى(٧٧) .

قال المقريزى : « والمدارس ممـا حـدث فى الاسلام ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة ولا التابعين وانما حـدث عملها بعـد الأربعمائة من سنى الهجرة »(٧٨) . ولا شـك أن المقريزى يعنى بالمدارس هنا مؤسسات تعليمية خاصـة توقف لهـا الأوقاف والأموال ، وتجرى على نظم معينة كالنظامية فى بغداد ، ودار العلم والازهر فى مصر ، والا فان التعليم سابق للدولة العباسية ، ولكنه لم ينتظم الا بعـد القرن الرابع الهجرى . واهم مراكز التعليم فى العصر العباسى : بغـداد ودمشق ومصر والكوفة والبصرة وقرطبة والقـدس ويليها حلب وطرابلس مدائن كثيرة من أمصار مختلفـة(٧٩) .

واهتم العلماء فى مختلف أنحاء الدولة الاسلامية بالرحيل الى المدن الكبرى للاتصـال بالعلمـاء المشهورين للاستفادة من علمهم وفضلهم ، والسبب فى ذلك أن الناس يأخـذون معارفهم تارة علما وتعليما والقـاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة فعلى قـدر كثرة الشيوخ يكون حصـول الملكـات ورسوخها ، وهـذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهـداية ، فالرحلة لابد منها فى طلب العلم واكتساب الفوائد(٨٠) .

قال صلى الله عليه وسلم : « من سلك طريقا يطلب به علمـا سهل الله لـه طريقا الى الجنة »(٨١) وقوله صلى الله عليه وسلم : « من جاءه الموت وهـو يطلب العلم ليحيى به الاسلام فبينه وبين الأنبياء فى الجنة درجـة واحـدة »(٨٢) .

لقـد جرت العادة أن تنسب المدرسة الى منشئها وهـو الغـالب او الى مدرسها اذا كان مشهورا جـدا أو الى العالم الذى تنشأ لـه او الى الموضع الذى

---

(٧٧) ابن رجب ، زين الدين ابن الفرج عبد الرحمن شهاب : (**ذيل طبقات الحنابلة**) . (مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م) ج ٢ ص ١١١ .

(٧٨) المقريزى : الخطط ج ٤ ص ١٩٢ .

(٧٩) Khaleil Tutah : Th Contribution of the Arabs to **Education**) p. 23, London.

(٨٠) ابن خلدون : المقدمة ص ٥٤١ .

(٨١) البخارى : صحيح البخارى ج ١ ص ٤٥ .

(٨٢) الغزالى : احياء علوم الدين ج ١ ص ١٩ .

أقيمت فيه ، ولابد لنا ان نذكر نبـذة موجزة عن احـوال المدارس العباسية(٨٣) منذ أن تأسست بغـداد حتى نهاية القرن السابع الهجرى . وممـا يلاحظ فى مواقـع هـذه المدارس أن كثيرا منها كان على ضـفة دجلة او على مقربة منها ومن هـذه المدارس :

١ ـ مدرسة أبى حنيفة أو المدرسة الشرقية بباب الطاق وقـد يطلق عليهـا (مدرسة الحنفيين بباب الطاق) أنشأها شرف الملك أبو سـعد محمد بن منصور العميد الخـوارزمى مستوفى المملكة بالسلطان ألب ارسلان السلجوقى سنة ٤٩٥ هـ/ ١٠٦٦ م عند مشهد أبى حنيفة . وقال الصـفدى فى ترجمة أبى طالب الزينبى الملقب نور الهـدى المتوفى ٥١٢ هـ : « ودرس بالشرقية التى انشأها شرف الملك ببـاب الطـاق » ... وانتهت اليـه رياسـة أصحاب الرأى ببغـداد . وقـد اشـتهر عـدد كبير من مدرسيها وخزان مكتبتها وكان لا يخرج من خزائنها شىء الا الى ذى أمانة نستظهرا بالرهن عن ذلك(٨٤) .

٢ ـ مدرسة (تركان خاتون) زوجـة السلطان ملك شـاه بن الب أرسلان السلجوقى بنتها للحنفية بالجانب الشرقى .

٣ ـ المدرسة التاجية(٨٥) نسبة الى تاج الملك أبى الغنائم المرزبان ابن خسرو مستوفى ملك شاه السلجوقى بنـاه للشافعيين ببـاب ابرز ببغـداد الشرقية سنة ٤٨٢ هـ ومن أشهر مدرسيها فخر الاسلام أبو بكر الشاشى صاحب المدرسة المعروفة باسمه أحد كبار مدرسى النظامية ببغداد ، وسراج الدين النهرقلى أقضى القضاة(٨٦) .

٤ ـ المدرسة الفخرية(٨٧) : أو دار الذهب أو مدرسة فخر الدولة بعقـد المصطلح فى المـأمونية بالجانب الشرقى من بغـداد وهى للشافعية بناها الوزير فخر الدولة أبو المظفر الحسن بن عبد الله بن على أبى المطلب الكرمانى البغـدادى المتوفى ٥٧٨ هـ . وقـد بناها لأبى القاسم يحيى بن فضلان الشافعى ودرس فيهـا

---

(٨٣) د. مصطفى جواد : (**بحث ممتع فى مدارس بغداد**) ، مجلة الأستاذ ، بغـداد ـ العراق عـ ٥ ، ٦ (٩٥٨ م/١٩٥٦ م) ص ١١٠ ، ١١٩ ص ٨٦ ، ١١٣ .

(٨٤) د. ناجى معروف : المدارس للشرابية ص ١١٧ . ١١٨ .

(٨٥) ابن الجوزى : المنتظم : ج ٩ ص ٣٨ . ٢٦٠ .

(٨٦) المصدر نفسه ج ١٠ ص ٣٨ ، ٤٨٠ .

(٨٧) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٦٣ .

هـــو وابنه من بعـــده أبو عبد الله محمد بن يحيى أول مدرس للمذهب الشـــافعى بالمدرسة المستنصرية . ومن مدرسيها أيضا مجـــد الدين أبو طاهر على بن محمـــد الواسطى البغـــدادى الفقيه . وممن سكن « دار الذهب » أبو المعالى القاسم بن أبى الحـــديد المدائنى وقـــد تولى الاعادة بها فيما بفن العربية والفقه والجـــــدل والأصـــول والخلافة والحكمة والطب(٨٩) .

٥ ـــ مدرسة درب القيار(٩٠) : أو « مدرســـة الحرانى » بدرب القيار شرقى بغـــداد بـــ « مدرســـة ابن بكروسى » وهـــو أبو العباس أحمد بن محمد بن بكروسى الحمامى الحنبلى . بنـــاها للحنابلة وكانت تجاور منزله . وكانت ولادته سنة اثنين وخمسمائة ووفاته فى سنة ٥٧٣ هـ ودفن بمقبرة الامام أحمد بن حنبل . وكان قـــد تزهـــد واعتزل الناس . وتردد الناس اليه فأقرأ جماعة وتفقه به جماعة .

٦ ـــ « مدرســـة زمرد خاتون » زوجـــة الخليفة المستضىء بالله وام الخليفـــة الناصر لدين الله . وتعرف « بمدرسة الأصحاب » أى أصحاب الشافعى . وتسمى « مدرســـة أم الخليفة » وسميت « بالمدرســـة الغربية » لوقوعها فى الجانب الغربى فى بغـــداد وتوصـــف بـــ « الميمونة » بنتها زمرد خاتون للشافعية بالجانب الغربى عند مشهد معروف الكرخى بجوار تربتها . ويظهر أنها بقيت الى عهد سليمان باشا الكبير والى بغـــداد . وكانت زمرد خاتون من أرغب النساء فى فعـــل الخير ، وتكثرهن له فعلا ولهـــا بر وأفضال فضلت به أمثالها فى الصـــدقات الجارية وعمارة المساجد والمشاهد والأربطة والمدارس وغير ذلك مما لاخفاء له عن نظر متأمل . عمرت التربة قبر معروف الكرخى والمدرسة الى جانبها ووقفت عليها الأوقاف وكان افتتاح المدرسة فى سنة ٥٨٩ هـ ووفاة مؤسسها(٩١) سنة ٥٩٩ هـ .

٧ ـــ المدرســـة الثقفية(٩٢) : أو مدرســـة ثقـــة الدولة بنـــاها لأصـــحاب الشافعى وكيل الخليفة المقتفى لأمر الله أبو الحسن على بن محمد الانبارى الدربنى

---

(٨٩) د. ناجى معروف : المدارس النظامية ص ١١٨ .

(٩٠) الحنبلى ، ابن العماد أبو الفلاح عبد الحى الحنبلى : (**شذرات الذهب فى أخبار من ذهب**) . (القاهرة ١٣٥٠ هـ) جـ ٤ ص ٢٤٤ .

(٩١) ابن الساعى ، أبو طالب على بن أنجب تاج الدين الملقب بابن الساعى : (**الجامع المختصر فى عيون التواريخ وعيون السير**) تحقيق د. مصطفى جواد (المطبعة السريانية الكاثوليكية ـ بغـــداد ١٩٣٤ م) جـ ٩ ص ١٨٨ ، ٢١٧ .

(٩٢) ابن الفوطى . تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب جـ ٤ ص ٢٧٣ ، ٣٣٩ .

الملقب ثقة الدولة المتوفى سنة ٥٤٩ هـ على دجلة تحت راية الخلافة فى باب الأزج بالجانب الشرقى . وكان ثقة الدولة أول أمره حدادا فقدمه المقتفى وقربه وهو زوج الكاتبة العالمة شهده بنت أحمد بن الأبرى المتوفاة سنة ٥٧٤ هـ . وقد دفنت بباب أبرز قرب المدرسة التاجية وممن درس فيها يعيش بن صدقة المتوفى سنة ٥٩٣ هـ وكان اماما فى الفقه(٩٤) . وكان أجل الشافعية فى زمانه . وعز الدين بن عمر الطيارى التسترى وشرف الدين يوسف بن بندار الدمشقى المتوفى سنة ٥٦٣ هـ وهو الذى بنى له ثقة الدولة المدرسة الثقنية المنوه بها . وعفيف الدين الزبيدى الواسطى وكمال الدين أبو المظفر عبد الودود الواسطى البغدادى . وكيل الخليفة ، وموفق الدين أبو النصر أحمد بن اسفندنار بن عبد الرحمن البغدادى الفقيه المؤدب المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ومحى الدين أبو المكارم منصور بن الحسن الزنجانى وقد تولى التدريس بها سنة ٥٩٣ هـ وممن سكن بهذه المدرسة محمود الزنجانى وقد أعاد بها الدرس لكمال الدين عبد الودود(٩٤) .

٨ ــ مدرسة بنفشه(٩٥) وتسمى « المدرسة الشاطئية » بنتها بنفشه زوجة الخليفة المستضىء بالله للحنابلة بباب الأزج بالجانب الشرقى فى بغداد سنة ٥٧٠ هـ وبذكر ابن الزوجى أنها كانت دارا لنظام الدين أبى نصر بن جهير وكانت وصلت ملكيتها الى الجهة بنفشه فجعلتها مدرسة وسلمتها الى أبى جعفر ابن الصباغ وبعد أيام سلمتها لابن الجوزى فذكر فيها الدروس وحضر قاضى القضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد .

٩ ــ المدرسة الموفقية(٩٦) : وهى مدرسة للحنفية بنتها بنت السلطان ملك شاه السلجوقى وزوجة الخليفة المستظهر بالله ببغداد الشرقية بدرب « زاخا » على نهر دجلة .

قال ابن الجوزى يذكر قتالا جرى سنة ٥٤٣ هـ ببغداد فى نهر دجلة بين الأتراك وجيش الخليفة : « وكان القتال تحت مدرسة موفق » ولعلها هى مدرسة

---

(٩٣) د. ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ١٢٠ .

(٩٤) د. ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ١٢٠ .

(٩٥) الغسانى : **العسجد المسبوك الورقة ١٩٣ ــ أ ، مخطوط .**

(٩٦) ابن الجوزى : المنتظم ج ٩ ص ٢٢٧ ، حـ ١٠ ص ٩ ، ١٣٢ .

الخاتون المستظهرية التى ذكرتها بعض المصادر التاريخيـــة . وقـد نسبت الى مملوكها الموفق بن عبد الله الخاتونى الذى دفن بالمدرسة وذكر ابن الساعى أن موفق الخادم هـو واقفها . ومن مدرسيها علم الدين أبو زكريا بن محرز البغـدادى ، ومجـد الدين ابن اللمغـانى مدرس مشهد أبى حنيفة .

١٠ ــ مدرســة زبرك « او مدرســة سوق العميد » وهى مدرسة الحنفيـة بالجانب الشرقى وهى مدرســة للحنـابلة انشـاها ابو حكيم ابراهيم بن دينـار العميد كانت ممـا يلى جامع المرادية حيث كانت تقـع مدرسة زبرك(٩٨) وممن تولى التدريس فيها محمد بن احمد بن عبد الجبار أبى المظفر الحنفى من أهـل سمنان ، ويعرف بالشطب المتوفى سنة ٥٧٣ هـ وقال عنه الصفدى : دخل بغـداد واستوطنها وولى تدريس مدرســة زبرك بسوق العميد .

١١ ــ مدرســة ابن دينار(٩٩) النهروانى الحنبلى الحسنى الفقيه بباب الأزج بالجـانب الشرقى وهى مدرســة للحنـابلة انشـأها أبو حكيم ابراهيم بن دينـار النهروانى البغـدادى الملقب بالقـدوة وكان يقيم بها . ولد فى سنة ٤٨٠ هـ وتوفى سنة ٥٥٦ هـ ودفن قريبا من بشر الحافى وكان يخيط للناس الثياب وكان عالمـا بالمذهب والخلاف والفرائض حسن المعرفة بالفقه والمناظرة وكان يضرب به المثل فى التواضع . قرأ عليه خلق كثير وتخرجوا به .

١٢ ــ مدرســة أبى سعد المخزومى(١٠٠) : بباب الأزج بالجانب الشرقى بناها ســعد المبارك بن على بن الحسين وهى مدرسة الشيخ عبد القادر الجيلى . وتعرف بالقادرية وبمدرسة الجيلى أو مدرسة ابن الخزمى وكانت للحنابلة .

١٣ ــ المدرســة التتشية(١٠١) : او مدرســة خمارتكين التتشى المتوفى سنة ٥٠٨ هـ بنـاها نجم الدولة خمارتكين بمشرعة درب دينار بالجانب الشرقى من بغـداد وكانت للحنفية . وهـذا خمارتكين هـو خادم الملك تتش بن ألب أرسلان يقال لـه

---

(٩٧) ابن الفوطى : تلخيص مجمع الآداب فى معجم الألقاب جـ ٤ ص ٥٢١ .

(٩٨) الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك : (**الوافى بالوفيات**) (أستانبول ١٩٣١ م) ص ١٥٦ .

(٩٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٥ ص ٣٢٧ .

(١٠٠) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ص ٨٧ .

(١٠١) ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢٦ .

داوود السلجوقى . ومن مدرسى « المدرسة التتشية » علم الدين ابو زكريا بن محرز البغدادى ، ويذكر ابن الجوزى من مدرسيها يوسف الدمشقى وابن الشاشى .

١٤ ــ مدرسة ابن الأبرادى(١٠٢) : وهى مدرسة لاصحاب أحمد بن حنبل بالجانب الشرقى كانت فى الأصل دارا بالبلدية لمحمد بن أحمد بن على ابن الابرادى الفقيه الزاهد المعروف بابن الآبرادى الذى توفى فى ٢٢ شهر رمضان سنة ٥٣١ هـ ودفن بباب أبرز .

١٥ ــ مدرسة سعادة(١٠٣) : وهى من المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية أنشأها بالجانب الشرقى الأمير عز الدين أبو الحسن سعادة الرسائلى الذى وصف بأنه كان يفصح بأكثر اللغات . وكانت وفاته سنة ٥١٠ هـ ودفن فى جوار الامام أبى حنيفة . ومما ذكره ابن الجوزى(١٠٤) أنه كان فى مدرسة سعادة منارة ، ومن مدرسيها فخر الدين الآمدى الصوفى أحد المعيدين بالمستنصرية وكان مدرسا للنحو فيها والقاضى بدر الدين على بن محمد ملاق الرقى المحتسب بجانبى بغداد .

١٦ ــ المدرسة الكمالية(١٠٥) : أو مدرسة ابن طلحة نسبة الى كمال الدين أبى الفتوح حمزة بن على بن طلحة الشافعى المتوفى ٥٥٦ هـ . ويعرف بابن بقشلان وأصله من الرى . وكان أحد الأماثل الأعيان ولاه المسترشد حجابة باب النونى فى أواخر سنة ٥١٢ هـ وجعله صاحب مخزنه فى سنة ٥١٤ هـ ولم تزل حاله عنده عالية مدة خلافته وكذلك من بعده فى أيام المقتفى لأمر الله الى أن حج واستعفى من الخدمة سنة سبع أو ست وثلاثين وخمسمائة وانقطع فى بيته نحوا من عشرين سنة ، وكان محترما فى زمان عزله يغشاه أرباب الدولة وغيرهم . وبنى مدرسة للفقهاء الشافعية مجاورة لداره بباب العامة ووقف عليها ثلث أملاكه ، ورتب فيها « ابن الخل » مدرسا فيها ولذلك تسمى « مدرسة بن الخل » أحيانا . كما تعرف بمدرسة ابن طلحة . ولما توفى دفن بتربة له فى الحربية مقابلة لتربة أبى الحسن القزوينى . ويظهر أن ابن عمر ابن الشمحل كان متزوجا من ابنته .

---

(١٠٢) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب جـ ٤ ص ٩٦ .

(١٠٣) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة جـ ٤ ص ٣٨٥ .

(١٠٤) ابن الجوزى : المنتظم جـ ١٠ ص ١٠٨ .

(١٠٥) الكتبى ، ابن شاكر محمد : (فوات الوفيات) . تحقيق د. احسان عباس (دار صادر ــ بيروت ــ لبنان ــ بدون) جـ ٢ ص ٤٠ .

١٧ ــ المدرسة الغياثية(١٠٦) : نسبة الى الملك غياث الدين مسعود بن محمد ابن ملك شاه السلجوقى وقد تسمى « المغيثية » التى تنسب الى أخيه مغيث الدين محمود بن محمد ملك شاه السلجوقى . والغياثية مدرسة للحنفية ملحقة بالجانب الشرقى من بغداد وقد ذكرت فى التراجم بالنسبة الى الاخوين غياث الدين ومغيث الدين . فقد ذكر ابن الدبيثى الغياثية فى ترجمة أبى الفضل الضرير الحنفى المتوفى سنة ٥٤٦ هـ هو المعروف بزين الأئمة وقال : درس بالمدرسة الغياثية مدة . كما ذكر الذهبى من مدرسيها : المبارك بن نصر الحنفى ابن الذنى المتوفى سنة ٥٢٨ هـ وذكر ابن الفوطى من مدرسيها مجد الدين مسعود بن الحسين اليزدى المتوفى بالموصل سنة ٥٧١ هـ .

١٨ ــ المدرسة المغيثية(١٠٧) : ذكرها ابن الفوطى فى ترجمة فخر الاسلام النوجاباذى مدرس المغيثية وقال عنه : قدم مع والده ظهير الدين النوجاباذى عندما استدعى لتدريس الحنفية بالمستنصرية وكان تدريسه بالمغيثية سنة ٦٧٧ هـ وجاء فى الحوادث الجامعة ذكر محى الدين بن المحيا الحنفى مدرس المغيثية سنة ٦٧٣ هـ من مدرسيها أبو الخير مسعود بن الحسن اليزدى الحنفى ومنتخب الدين أبو الفضل المعروف بابن الصيرفى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ . وحضر مغيث الدين الى حضرة المسترشد بالله وخلع عليه ومدحه ، واليه تنسب المدرسة المغيثية ببغداد .

١٩ ــ المدرسة الأسبابذية(١٠٨) : بالجانب الشرقى بين الدربين وذكرها ابن الدبيثى بالأصفهيذية ، وذكرها ابن الساعى وقال عنها : انها سلمت فى سنة ٦٠٤ هـ الى عماد الدين أبى بكر السلامى المعروف بابن الحبير بعد أن انتقل من مذهب أحمد ابن حنبل الى مذهب الشافعى . وفى المسجد المسبوك : ان أبا معشر الهمذانى كان مدرس « مدرسة بين الدربين » وكان شيخا خيرا فاضلا متواضعا .

٢٠ ــ المدرسة البهائية(١٠٩) : وهى من المدارس الشافعية ، بنيت فى الجانب الشرقى من بغداد ، وكانت على دجلة قريبة من النظامية ومن مدرسيها : علم الدين ابو الخير داوود الجيلى المدرس ، ومحمد أبو حامد البردى الشافعى . قال ابن

---

(١٠٦) ابن الفوطى : الحوادث الجامعة ج ٤ ص ٣٨٥ والتلخيص ج ٥ ص ٢٦٠ .

(١٠٧) د. ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

(١٠٨) محمد بن سعيد بن الدبيثى : (**المختصر المحتاج اليه**) تحقيق د. مصطفى جواد (مطبعة دار الدهان ــ بغداد ١٣٧١ هـ/١٩٥١ م) ج ١ ص ١٦٢ وابن الساعى : الجامع المختصر ج ٩ ص ٢١٩ .

(١٠٩) ابن الجوزى المنتظم ج ١٠ ص ٢٣٤ .

الجـوزى : « ... واخـذت مدرسة كانت للحنفية وقـد كانت قـديما للشافعية وهى بالموضع الأسمى ببـاب المدرسة على الشط . وقـد حضرت فيهـا مناظرة يوسف الدمشقى وبيـده كانت وآل أمرها الى أن سلمت الى محمد البردى مدرس فيها وحضر قاضى القضاة وشيخ الشيوخ وصاحب البـاب ومدرس النظامية وابن سـديد الدولة كاتب الانشاء » .

٢١ ـ المدرسـة النجيبية(١١٠) : أو مدرسـة أبى النجيب السهروردى بالجانب الشرقى وهـو عبد القاهر بن عبد الله البكرى الصـديقى الشافعى من أشهر أعيان المسلمين ولد سنة ٤٩٠ هـ بسهرورد وتوفى ببغـداد سنة ٥٦٣ هـ ودفن بمدرسـة ولا يزال قبره ظاهرا هنـاك . قال ابن الجوزى عنه : « وكان ممن تفقـه ودرس بالنظامية وبنى لنفسه مدرسة ورباطا ووعظ مدة وكان متصوفا »(١١١) .

٢٢ ـ مدرسـة الشاشى(١١٢) : بناها للشافعى فخر الاسلام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشى الأصـل الفارقى المولد البغـدادى . ولـد بميافارقين فى المحرم سنة ٤٢٧ هـ . وقدم بغـداد ولزم الشيخ أبا اسحاق الشيرازى وتفقه على أبى نصر ابن الصـباغ وانتهت اليه رئاسة الشافعية . وتولى التدريس بالنظامية ببغـداد من سنة ٥٠٤ هـ وحتى وفاته سنة ٥٠٧ هـ .

٢٣ ـ مدرسـة أبى شجاع(١١٣) : وكانت مدرسة للحنابلة بناها بباب الأزج عند باب كلواذا ودفن فيها . ووقف قطعة من أملاكه على الفقهاء ، وسبل الخير وكانت وفاته سـنة ٥٢٠ هـ .

٢٤ ـ المدرسـة القيصرية(١١٤) : وكانت على مقربة من رباط الشيخ أبى النجيب السهروردى وهى احـدى مدارس الجانب الشرقى أقام بها فخـر الدين النوقانى عندما قـدم الى بغـداد ودرس فيهـا من سـنة ٥٨٩ هـ وحتى وفـاته سـنة ٥٩٢ هـ .

---

(١١٠) د. ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ١٢٧ .

(١١١) ابن الجـوزى : المنتظم جـ ١٠ ص ٢٢٥ .

(١١٢) المصـدر نفسـه جـ ٩ ص ١٧٩ .

(١١٣) المصـدر نفسـه جـ ٩ ص ٢٦٢ .

(١١٤) ابن الجـوزى : المنتظم جـ ١٠ ص ٢٤٥ .

٢٥ ــ مدرسة ابن الجوزى[١١٥] : أبى الفرج عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو مؤلف عدد كبير من الكتب منها : المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم . وكانت هذه المدرسة بالجانب الشرقى بدرب دينار . وجاء فى حوادث سنة ٥٧٠ هـ أن ابن الجوزى ابتدأ بالقاء الدروس فى مدرسته بدرب دينار فذكر يومئذ أربعة عشر درسا من فنون العلوم . ومن مدرسيها الشيخ أبو محمد عبد اللطيف بن سليمان الخياط .

٢٦ ــ المدرسة المستنصرية : وفى سنة ٦٣١ هـ ببغداد افتتحت المدرسة المستنصرية تلك المدرسة التى شيدها الخليفة المستنصر بالله العباسى وجعلها موقوفة على المذاهب الأربعة وصار لكل مذهب من المذاهب السنية ركن خاص وله مدرسون وطلبة ، كما درست علوم الطب والأدوية فى هذه المدرسة العظيمة[١١٦] .

وقد جعل المستنصر لمدرسته هذه ميزة أخرى على المدارس الاسلامية وذلك أنه شرط أن يضاف الى مدرستيه الفقه والطب كما يذكر ابن الساعى دارين أخريين لعلمين مهمين من علوم الشريعة والاسلام أولهما دار القرآن والثانية دار السنة[١١٧] .

وظل التدريس بالمستنصرية قائما أربعة قرون منذ افتتاحها سنة ٦٣١ هـ الى سنة ١٠٤٨ هـ عدا فترتين من الزمن الأولى قصيرة جدا وكانت أثناء الاحتلال المغولى لبغداد سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م حيث تعطلت المدارس والربط والمساجد كما يقول ابن الفوطى والثانية طويلة جدا وتبدأ من احتلال الجيوش اللنكية لبغداد بقيادة تيمورلنك .

وكان يدرس بها علوم القرآن والسنة النبوية وعلم الطب والعربية والرياضيات والفرائض وكلها فى مكان واحد يتألف من مبان عديدة ، أو متجاورة . ولم تكن المدارس قبل المستنصرية كذلك فقد كانت مدارس الطب تبنى مستقلة عن مدارس الفقه أو دور الحديث أو دور القرآن ، كالبيمارستان العضدى بالجانب الغربى من

---

(١١٥) المصدر نفسه ص ٢٥٠ .

(١١٦) د. حسين أمين : (**كتاب المستنصرية**) . مجلة المؤرخ العربى ــ بغداد ــ العراق عـ ١٤ (١٩٨٠ م) ص ٢١ .

(١١٧) د. ناجى معروف : (**تاريخ علماء المستنصرية**) . (مطبعة جامعة بغداد ــ العراق ١٣٨٤ هـ/١٩٦٥ م) جـ ٢ ص ٢٥ .

بغـــداد ومدرســـة الطب التى أنشأها أبو المظفر باتكين بالبصرة سنة ٦٢٩ هـ فى خلافـــة المستنصر ومدارس الطب فى دمشق(١١٨) .

وقـــد أجمع المؤرخـــون على أن المستنصر رتب فى المستنصرية خزانة كتب من الكتب النفيسة فى أنواع العلوم المختلفة شىء كثير جـــدا ... وجـــد برسم من يطالع ويستنسخ من الفقهاء ، ورتب لهم فيها الورق والكتابة عمن يريد النسخ(١١٩) .

ومـــا يدل على عناية المستنصر بالعلوم والكتب العلمية وميله لاقتنائها وخزنها فى دور الكتب التى فى المدارس ما ذكره الصـــفدى قال : « وبيعت كتب العلم فى أيامه بأغلى الأثمان لميله الى اقتنائها وروعى فى تحصيلها . وانكبابه على مطالعتها وحسن خطوطها . ووقفها على اهـــل الفضل وخزنها فى المدارس وصنف الفضلاء فى دولته . يدافـــع المصنف فى فنـــون العلم وتقربوا باهـــدائها اليه »(١٢٠) .

٢٧ ــ المدرســـة البشيرية : وفى بغـــداد شرعت زوجـــة المعتصم المعروف بباب بشير سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥١ م ببناء المدرسة البشيرية بالجانب الغربى من بغداد فجعلتها وقفـــا على المذاهب الأربعـــة على قاعـــدة المدرسة المستنصرية وافتتحت فى سنة ٦٥٣ هـ وعـــدت المستنصرية قـــدوة لمؤسسى المدارس من الرجال والنساء فى العراق ومصر والشام والحجـــاز حيث شرعوا يبنون مدارسهم على صفتها من حيث الدراسة على المذاهب الأربعة(١٢١) . وحضر الخليفـــة المستعصم واولاده فجلسوا فى وسطها . ومن مدرسيها سراج الدين النهرقلى أقضى القضاة وشرف الدين ابن عبـــد الله بن الجـــوزى ، ومحى الدين ابن الجـــوزى ونور الدين الخـــوارزمى الحنفى ، وعلم الدين الشارماحى ، وجمال الدين ابن العاقـــولى ، وصـــدر الدين محمد بن شيخ الاسلام . وصفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحـــق ، وقاضى قضـــاة سراج الدين الهنائسى ، وعلم الدين اسماعيل بن على النحـــوى ، وشمس الدين الأصبهانى وعبد الرحمن ابن الكواز ، وتاج الدين عبد الرحيم بن يونس الموصـــلى قاضى الجانب الغربى من بغـــداد(١٢٢) .

---

(١١٨) ياقـــوت الحمـــوى :معجم الادباء جـ ١ ص ١٧٨ ، ٥٨ ، ٣٥٨ .

(١١٩) ابن قتيبة : (**عيـــون الأخبـــار**) الورقة ٢٣٩ ـ مخطوطة .

(١٢٠) الكتبى : (**الوافى بالوفيـــات**) جـ ٢٤ الورقة ١٢ من مخطوطه لندن .

(١٢١) د. ناجى معروف : (**تاريخ علماء المستنصريه**) . (طبعة جامعـــة بغـــداد ـ العـــراق ١٣٨٤ هـ/١٩٦٥ م) جـ ١ ص ٣٠ .

(١٢٢) ابن الفـــوطى : الحوادث الجامعة ص ٢٧٤ ، ٣٠٧ ، ٤٤٨ ، ٥٦٢ .

٢٨ — مدارس واسط : لقد زخرت واسط فى خلافة العباسيين بعدد كبير من المدارس ، ودور القرآن والمقرئين والمدرسين وعدت من أهم المراكز لتدريس القرآن والقراءات المختلفة . وأصبحت المدن الكبرى والاقطار الاسلامية لا تخلو من واسطى يدرس فيها القرآن وعلومه . أو مؤلف فى القراءات . كما كثرت فيها الربط التى كانت تؤدى خدمات ثقافية واجتماعية فى آن واحد . وقد وفد الى مدارسها كثير من الطلاب لطلب العلم فيها . ولعل من أشهرهم الفيروزابادى الصديقى البكرى صاحب القاموس المحيط . فقد وفد اليها من بلاد فارس ، ورحل بعد ذلك الى بغداد وغيرها(١٢٣) .

واشتهر من بين الأساتذة الكبار بواسط : أبو بكر الباقلانى الذى قرأ القرآن بها . وقرأ عليه الأدب والنحو القاسم بن القاسم بن عمر بن منصور الواسطى(١٢٤) ومن علمائها : عماد الدين القزوينى الأنصارى صاحب كتاب آثار البلاد وأخبار العباد وكتاب عجائب المخلوقات . وابن الدبيثى الواسطى المتوفى سنة ٦٣٧ هـ ، وأبو طالب الكتانى المتوفى سنة ٥٧٩ هـ وكان يتولى الحسبة بواسط هو وأبوه(١٢٥) .

والقاضى أبو تغلب الواسطى ، وابن أخيه محمد بن الرشيدى وكان نظر مارستان واسط(١٢٦) . وأبو بكر الفاروقى ، والداعى الرشيدى والبدر عبد الجبار ابن المجد محدث واسط وفقيهها ، وعبد الله بن عبد المؤمن التاجر الواسطى الذى أقرأ الناس ببغداد وواسط والبصرة والبحرين ، والذى صنف كثيرا من كتب القراءات والمقرىء أبو العز القلانسى وأبو الحسين بنان بن محمد بن حمدان الحمال ، ويزيد بن هارون وكان عالما عابدا مقرئا محدثا ... الخ(١٢٧) .

ان ظهور الحركة المدرسية فى المشرق(١٢٨) فى عهد الوزير نظام الملك السلجوقى عامة وفى العراق خاصة وما تبعها من تطور لتلك الحركة وتوسيع وتنظيم ، كان له الأثر الكبير فى انتقال تلك الفكرة الى الأقطار الاسلامية ولا سيما الى مصر والشام . ويجد الباحث المدقق أن هناك الكثير من المدارس التى بنيت فى

---

(١٢٣) د. ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ٢٦٤ .

(١٢٤) ياقوت الحموى : معجم الأدباء ج ٥ ص ٢٥٩ .

(١٢٥) ابن الدبيثى : المختصر المحتاج اليه ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ .

(١٢٦) المصدر نفسه ج ١ ص ١١٠ .

(١٢٧) د. ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ٢٦٤ .

القاهرة زمن السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى سار على غرار سياسة نظام الملك السلجوقى فى نشر المدارس الاسلامية والعمل على تشجيع تشييدها .

ومما لا شك فيه أن المدارس التى نهضت فى بغداد وانتشرت انتشارا واسعا كانت تخدم فكرة نشر المذهب السنى والعمل على تقويته والدفاع عن أصحابه ، وان انتقال الفكرة المدرسية الى مصر أيام الحكم الفاطمى معناه العمل فى مصر على اضعاف الدولة الفاطمية الشيعية وفعلا عملت المدارس السنية وخاصة تلك التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى وعملها المؤثر البالغ فى اظهار المذاهب السنية . فلا غرو اذن أن الاتصال السياسى والاقتصادى والثقافى الذى كان يسود المنطقة الاسلامية وعلى الأخص العراق ومصر كان عاملا مهما فى نقل الفكرة المدرسية الى القاهرة وضعف وانزواء المذهب الشيعى الذى كان المنفذ والمسيطر على مصر بأسرها ، ولعل هذه من النتائج الكبيرة للعلاقات الثقافية التى كانت سائدة بين القاهرة وبغداد والتى كانت حصيلة نشر المدارس فى أرض الكنانة(١٢٩) .

وقد أدت الحركة العلمية التى يعتبر بيت الحكمة لولبها الى ازدياد طلب المعرفة من قبل فئات لا يستهان بها من الناس الأمر الذى أدى الى الاقبال على شراء الورق ، لذا أسست مصانع الورق فى عهد الرشيد فى بغداد(١٣٠) ثم انتشرت صناعته فى أنحاء البلاد العربية وقبل ذلك كان يكتب على ورق البردى أو على الرقوف من الجلود أو العظام أو أى شىء . ووجدت حوانيت الوراقين بكثرة وخاصة فى خلافة المأمون(١٣١) وكان ظهور الورق فاتحة لانتشار الثقافة العربية(١٣٢) .

---

(١٢٨) د. حسين أمين : كتاب المستنصرية ، مجلة المؤرخ العربى عـ ١٤ ص ٢٠ بغداد ـ العراق .

(١٢٩) د. حسين أمين : كتاب المستنصرية ، مجلة المؤرخ العربى ـ بغداد ـ العراق عـ ١٤ ص ٢١ ، ١٩٨٠ م .

(١٣٠) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٦٥ .

(١٣١) د. عبد المنعم ماجد : العصر العباسى الأول ج ١ ص ٣٥٨ .

(١٣٢) د. ناجى معروف : (أصالة الحضارة العربية) دار الثقافة ـ بيروت ـ لبنان ط ٣ ، ١٩٧٥ م) ص ٤٤١ .

ثالثا ــ أثر بيت الحكمة فى المدارس الاسلامية :

أضحى من المسلم به أن المكتبة برسالتها ، وهدفها عدت صورة حية صادقة للأمم وتقدمها ، ومظهرا حضاريا بمدى اهتمام الشعوب بالفكر ، وصيانة آثاره من العبث والضياع ، فضلا عن الدور الذى تؤديه لحفظ ما خلف السلف من كنوز المعرفة ، وثمار القرائح ونتاج العقل .

ففى العصر العباسى الأول انتشرت الكتابة ، وكثر التأليف ، واشتدت الحاجة الى معرفة ثقافة الشعوب العريقة التى غلبت على أمرها ، وباتت الترجمة عملا منظما تشرف عليه الدولة وترعاه ، وأصبح النقلة شبه موظفين يختارون لهذا العمل بالنسبة لثقافاتهم ومعارفهم . ويعينهم الخليفة ويجرى عليهم المال ، مما ساعد على انتشار الكتب المنقولة عن اللغات ، واتساع حركة التأليف والتدوين والنسخ ، وانشاء المكتبات لتستوعب هذه المجلدات الكبيرة وتعين على استمرار حركة الثقافة والمعرفة(١٣٣) .

فالأمة التى لا تولى الكتاب والمكتبة كل عنايتها هى أمة متخلفة من العسير أن تتبوأ مركزها فى موكب الحضارة ، وكل نهضة لا تقوم على أساس من التخطيط المعتمد على الكتب والمكتبات كأداة فعالة وأساسية فى هذه النهضة يتهددها الفشل .

وفى خلافة العباسيين اختلف الأمر عما كان عليه فى صدر الاسلام حيث اعتنى العرب فى العصر العباسى بفن التدوين ، ووضعت مسانيد الحديث فألفت الكتب فى كل صقع واهتموا حينئذ بانشاء دور الكتب وهى عبارة عن خزانات عامة للكتب يخصص أحد جوانبها لمطالعة الكتب ونسخها وتكون هذه الدور موئلا للعلماء والباحثين يناقشون فيها ويبحثون مختلف المواضيع وتقوم تلك الدور أحيانا بصورة عرضية بمهمة تعليمية ولا سيما أن بعض روادها يقصدونها من أماكن بعيدة ويقيمون فيها مدة طويلة ، وأن القائمين على تلك الخزانات يسهمون بنفقات أولئك الرواد ويمكن تصنيف خزانات الكتب التى ظهرت فى هذه الفترة الى ثلاثة أصناف :

(أ) خزانات عامة : وهى خزانات الكتب الملحقة بالمدارس والمساجد والربط والبيمارستانات وكانت تعير الكتب للطلاب وأصبح لهذه الخزانات نظام تسير عليه الادارة للاعارة والاستنساخ .

---

(١٣٣) عبد الله أنيس الطباع : (علم المكتبات ــ الادارة والتنظيم) . (دار الكتاب اللبنانى ــ بيروت ــ ط ١ ، ١٩٧٢ م) ص ٢٠٣ ، ٢٠٥ .

(ب) خزانات خاصة : وهى الخزانات الشخصية التى كانت فى بيوت الخلفاء والولاة والعلماء والأدباء والأثرياء من الناس .

(جـ) خزانات بين العامة والخاصة : وكان استعمالها مقتصرا على طبقة معينة من العلماء والطلاب ومن أشهر الخزانات فى ذلك العهد خزانة بيت الحكمة التى أنشاها الرشيد وازهرت كثيرا فى خلافة ابنه المأمون وقد حوت هذه الخزانة العديد من الكتب القيمة ، وكان فيها الى جانب الكتب العربية المخطوطات الفارسية والسريانية واليونانية وغيرها(١٣٤) .

وكانت هذه الكتب تعار مقابل رهن حافظ لقيمتها مما ساعد الطلاب على الاستفادة من هذه الكتب ، أما ادارة خزائن الكتب فكان يتولاها أحد العلماء المشهورين ويطلق عليه الخازن ويساعده فى ذلك المشرفون والمناولون وقد خصصت لهم الرواتب والجرايات .

وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت بغداد تجتذب الطلاب العديدين من مختلف الجهات ولم تكن الدراسة فى معاهد بغداد قاصرة على الناحية النظرية بل كانت هناك ايضا دراسات عملية تعالج أهم النظريات فى الكيمياء والطب والهندسة ، ولعل احصائية القرن العاشر فى عصر المقتدر بالله تبين لنا عدد الأطباء الذين كانوا يمارسون المهنة بعد حصولهم على شهادات رسمية فى الدراسات الطبية قد وصل ٨٦٠ طبيبا . وبجانب هذا العدد الكبير كان يوجد أكثر من ٢٠٠ طبيب يمارسون العمل بدون شهادات وذلك بسبب خبرتهم الطويلة وبسبب أنهم كانوا أطباء فى قصور الخلفاء . وقبل عمل هذه الاحصائية بقليل كان عدد الأطباء المسلمين فقط الذين يعملون فى قصر الخليفة المتوكل ستة وخمسين طبيبا(١٣٥) .

وكان المأمون أول من أبرز فكرة بيت الحكمة للوجود وكان سخيا فى الانفاق عليها وعين لها جلة العلماء للاشراف عليها ورتب لهم المرتبات والأجور السخية فانتشرت فكرة المأمون هذه بين من جاء بعده من الخلفاء والعظماء(١٣٦) فأصبح

---

(١٣٤) محمد سعيد الطريحى : خزائن الكتب الاسلامية القديمة فى الكوفة ص ٢١٢ ، ٢٩٣ ٣

(١٣٥) د. حسن عون : (**صور ملهمة من واقع المجتمع العربى**) (دار المعارف بمصر – القاهرة – بدون) ص ٢٥٠ .

(١٣٦) Sayed Ameer Ali : **Short History of Saracens**, p. 274.

من ضروريات انشاء معهد ثقافى أو مدرسة أن يعين لهـا وقف ثابت تتلقى فيه ما يفى بنفقاتها وما يمـدها بمـا تحتاجه من مصروفات ثم تطور هـذا الاتجاه فظهرت الأوقاف أيضا على الذين يشغلون أنفسهم بخـدمة العلم فى المساجد بل ان بعض الأركان والأعمـدة بالمساجد كان يوقف عليها أوقاف سخية يصرف ريعها الى من يجلس بها للتدريس والتعليم(١٣٧) .

وقـد قـدر للخلفاء العباسيين أن يجمعوا فى بيت الحكمة كل الكتب التى نقلت من أنقره وسائر بلاد الروم ، وأن تنشر فى زمنهم مجموعة كبيرة من الكتب المنقولة من اللغـات العالمية المعروفة مثل السريانيه واليونانية والفارسية والهندية فى ذلك العصر من علوم الطب والفلك والحكمة والآداب والقصص وغيرها ، هـذا فضـلا عن المؤلفات العربية الجـديدة التى أنتجها علماء العربية فى شتى أنواع العـلوم القرآنية واللغة والنحو والتاريخ وسائر الفروع الأخرى(١٣٨) .

فكان هارون الرشيد شـديد الحرص عليها ثم جاء من بعـده ابنه المـأمون فزاد فى عـددها كما ونوعا حيث أصبحت المكتبة تنطق بفضله وتشهد للعباسـيين بمكانتهم العلمية ومركز دولتهم الحضارى وأثرت فى التراث العربى الاسلامى بهـذه الكتب(١٣٩) .

واهتم الخلفاء العباسيون بتعليم الرعية ولم يلبث أن جعل من التربية واجبـا ترعاه الدولة فالأطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأولى مقابل مبلغ ضئيل يقـدر على دفعـه دون مشقة ، ومنذ أن بدأت الدولة تعين المعلمين بالمدارس أمكن للفقراء أن يعلموا أولادهم مجـانا ولقـد أفادت حركة التعليم من التنافس السياسى بين المعارضة وأحزاب الحكومة وبدأت أحزاب المعارضة تضع فى برنامجهـا من قبيل الدعاية انشاء تعليم عال لكل طبقـات الشعب ومدارس عليا تشبه الكليـات فأنشأت المدارس العليا فى كافـة المدن الكبيرة(١٤٠) .

ونستطيع القـول بأن التسامح الدينى الذى كان سائدا فى أنحاء العـالم

---

(١٣٧) د. أحمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية ص ٣٦٥ .

(١٣٨) د. عبد الجبار الجومرد : (**هارون الرشيد**) . (المكتبة العمومية ـ بيروت ـ لبنـان ، ١٩٥٦ م) جـ ٢ ص ٣٢٧ .

(١٣٩) عبد الله أنيس الطباع : علم المكتبات والادارة والتنظيم ص ٢٠٦ .

(١٤٠) زيغريد هـونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٩٢ .

الاسلامى فى عصر ازدهار الحضارة الاسلامية كان كبيرا جدا ولنا أن نشير هنا الى أقوال كثير من كبار المؤرخين الذين أعجبوا أيما اعجاب بهذا التسامح الذى كان فى ذلك العصر من المستحيلات فى غير الدولة الاسلامية ، يقول الأستاذ سيديو « ان المذهب النسطورى المسيحى قد تغلغل وانتشر فى الاجزاء الشرقية من آسيا تحت الحماية العسكرية الاسلامية . ويعجب الأستاذ « دريبر » ان النساطرة لم يسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية فحسب بل ان العرب قد عهدوا اليهم أحيانا بتثقيف أبناء العائلات الكبيرة . ويقول بأن هذا الموقف تحرر مذهل اذا قيس بتعصب أوروبا . وهذ التحرر قد جعل هارون الرشيد يقلد يوحنا بن ماسويه وهو نسطورى مشرفا على التعليم فى عصره ، أما المأمون فكان مجلسه يتألف من ممثلين لجميع الطوائف التى تدين بملكه . ويذكر الأستاذ دوزى مبرهنا على حرية التفكير فى ذلك العصر قصة نقلها عن أحد علماء الكلام العرب يروى فيها كيف كان يحضر فى بغداد دروسا كثيرة فى الفلسفة يشترك فيها يهود وزنادقة ومجوس ومسلمون ونصارى . ويحيرنا أن الحضور كانوا يستمعون الى كل منهم باحترام عظيم وانه لم يكن ينبغى لأى منهم أن يستند الا الى الأدلة الصادرة عن العقل لا الى الأدلة المأخوذة من أى كتاب مقدس .

ولا غرو اذن أن يسمح الخلفاء والأمراء المسلمون للنصارى واليهود أن يتقلدوا مناصب الدولة كالمسلمين تماما(١٤١) . وذلك سهل لبيت الحكمة القيام بأكبر مجهود فى ترجمة العلوم الفلسفية والمعارف القديمة وفى حدود منتصف القرن التاسع الميلادى أصبح تحت يد العرب مختلف علوم الأسبقين ومعارفهم(١٤٢) .

ونهض التعليم العالى على وجه الخصوص حينما اهتم الخلفاء العباسيون بحركة النقل ومن أساتذة بيت الحكمة نستنتج ونحكم على مستواها العلمى من مقدرة أساتذته ومديره اذا نظرنا الى منهج التدريس فى الحكمة وجدناه راقيا جدا فكانت تدرس فيه العلوم الفلسفية والطبية والرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية والتاريخ والموسيقى(١٤٣) فاذا كان هذا خريج بيت الحكمة وقد أنهى هذه العلوم فلا ريب فى أن ذلك المعهد كان يساوى الكلية فى يومنا هذا .

---

(١٤١) جلال مظهر : (**الحضارة الاسلامية أساس التقدم العلمى الحديث**) . (مركز كتب الشرق الأوسط ، ١٩٦٩ م) ص ٥٧ .

(١٤٢) جلال مظهر : (**علوم المسلمين أساس التقدم العلمى الحديث**) . (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – القاهرة ١٩٧٠ م – عـ ٢٤٧) ص ١١ ، ١٥ .

(١٤٣) د. عبد المنعم ماجد : (**تاريخ الحضارة الاسلامية فى العصور الوسطى**) . (مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ١٩٦٣ م) ص ١٦٣ .

ولعل من آثار تقدم الحضارة العربية وازدهارها أن التعليم كان حرا من كل قيد اللهم الا الميل والرغبة . هذا يهوى العلوم الشرعية فيتجه اليها وذاك يعشق الحديث فيرحل لطلبه من رجاله وثالث يميل الى علم الكلام أو التصوف أو الطب أو الرياضيات فيتعمقها . وأفضل دراسة ما كانت عن ميل أصيل فى النفس(١٤٤) ، ونشأت علوم جديدة مثل علوم التفسير والحديث واللغة ، فلما اتسعت دائرة العلوم اتسع بطبيعة الحال مجال التدريس وشمل هذه العلوم أيضا ، ولما كان الاسلام دينا واقعيا حض المسلمين على الاستزادة من العلم ولم يضع أى عقبات فى هذا السبيل فكان طبيعيا أن تستمر هذه المدارس وأن تنشأ مدارس جديدة وأن يستفيد المسلمون منها ومن علمائها فى وضع حجر الأساس للحضارة العلمية الاسلامية التى بلغت ذروتها فى عهد الخلفاء العباسيين ، وقد كان لبيت الحكمة القدح المعلى فى ازدهار الحركة العلمية فيها .

وكان المأمون مثالا فى انشاء المكاتب فى الممالك الاسلامية كما كان مثالا فى سائر أسباب النهضة العالمية ، فقد اقتدى به كثيرون من الوزراء والأمراء داخل بغداد وخارجها فقد أقيمت دور كتب أخرى كثيرة فى بغداد وجمع لها من الكتب آلاف مؤلفة فكانت هذه الدور جميعها ركنا من أركان النهضة العلمية فى الدولة العباسية(١٤٥) .

وفى الأندلس تشبه بنو أمية بالمأمون فأخذوا فى انشاء دور الكتب وملئها بأنفس الأسفار وعجيب المخطوطات وأشبههم به الحكم بن الناصر الذى تولى الخلافة سنة ٣٥٠ هـ وكان محبا للعلم والعلماء وقد أنشأ فى قرطبة دار كتب كبيرة وجمع اليها الكتب من جميع الجهات وكان يرسل التجار لشرائها من أسواق العالم ويحضهم على كثرة البذل والعطاء .

واقتدى بخلفاء بغداد الخلفاء الفاطميون بمصر فبدأ العزيز بالله ثانى خلفاء الفاطميين بجمع الكتب فى عصره وخصص لها قاعات سماها خزائن الكتب ويقدر رجال التاريخ عدد أسفارهم بألف مجلد ثم دار الحكمة التى أنشأها الحاكم بأمر

---

(١٤٤) د. أحمد فؤاد الأهوانى : (**الكندى فيلسوف العرب**) . (وزارة الثقافة والارشاد القومى - القاهرة عـ ٢٦ اعلام العرب) ص ٣١ .

(١٤٥) جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢٠٨ .

الله بن العزيز بالله سنة ٣٩٥ هـ بجوار القصر الغربى بالقاهرة ويقـــدر ما كان فيها من الكتب بنحـــو مائة ألف مجلد وهى غير خزانة العزيز أو خزائن القصور(١٤٦) .

---

(١٤٦) جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ج ٣ ص ٢١١ ، وقد كانت دار للعلم الحاكمية أكبر معهد علمى شهده القرن الرابع الهجرى بناها الحاكم بأمر الله الفاطمى ليجعلهـــا منافسة لدار الحكمـــة فى بغـداد . (محمد عبد الرحيم غنيمة) (**الجامعات الاسلامية الكبرى**) (المغرب – تطوان ١٩٥٣ م) ص ٥٩٥ .

الفصل الثانى : التدريس والمدرسون فى بيت الحكمة

١ ــ عمل المدرسين فى بيت الحكمة ٠

٢ ــ رواتب المدرسين فى بيت الحكمة ٠

٣ ــ المواد الدراسية التى تدرس فى بيت الحكمة ٠

أولا ــ عمــل المدرســين فى بيت الحكمــة :

ويحس الرشيد بقيمة العلم ومكانته ، وقــدره واحترامه فلا يسعه الا أن يدعو أفاضــل العلماء أن يتعهدوا أبناءه بالتربية والتهــذيب والتقويم والتثقيف وهــذا خلف الأحمر يتولى ذلك مــع الأمين فترة من الزمن ، ثم يحل محله بعــد ذلك الكسائى وكذلك يدفــع بالمــأمون الى اليزيد ثم سيبويه ، وممــا يعتبر دستورا للمربين أو نبراسا هاديا للأساتذة لتكون تربيتهم للناشئة على أصــول مرعية ، ذلك الخطاب الذى كتب به الى الأحمر ليجعله عماده فى السير مع الأمين فى ساحات العلم ، وباحات المعرفة ، دون أن يرهقه ، أو يدخل عليه الكراهية والملل .. قال : « يا احمر ؛ ان أمير المؤمنين قــد دفــع اليــك بمهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، وفلذة كبده ، فصير يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، وكن لــه بحيث وضعك أمير المؤمنين اقرئه القرآن ، وعرفه الأخبار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك الا فى أوقاته ، وخــذه بتعظيم بنى هاشم اذا دخلوا عليه ، ورفــع مجالس القواد اذا حضروا عنده ، ولا تمرن بك ساعة الا وأنت مغتنم فائدة تفيده اياها ، من غير أن تحزنه فتميت ذهنــه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فان اباها فعليك بالغلظة والشدة »(١٤٧) .

وكان الخلفاء العباسيون يجلون العلماء ويحرصون على تعليم أولادهم بواسطة نخبة من رجالات عصرهم ، فالمنصور ضم الشرقى بن القطامى الى ابنه المهدى(١٤٨) . وقــد حضر بعض أولاد الخليفة المهــدى عند شريك القاضى (١٧٧ هـ) وهــو يلقى الدرس على طلابه ، فاستند ابنه المهــدى الى الحائط وسأل عن حــديث فلم يلتفت اليه شريك . ثم عاد وسأل فعاد شريك الى اهماله فقال ابن الخليفة : تستخف بأبناء الخلفاء ؟ قال : لا ولكن العلم أزين عند أهله من أن يضيعوه(١٤٩) . ومر مرة بحلقة محمد بن الحسن فقام الناس كلهم الا محمد بن الحسن فخرج الآذن ونادى محمد بن الحسن ، فذهب هــذا لمقابلة الرشيد فلمــا عاد سأله أصحابه عما كان فقال : سألنى الرشيد : مالك لم تقم مــع الناس ؟ فقلت : كرهت أن أخرج عن طبقة العلماء الى طبقــة العامة ، فسر باجابتى(١٥٠) .

---

(١٤٧) المسعودى ، أبو الحسن على بن الحسين بن على : (**مروج الذهب**) (القاهرة ١٣٧٠ هـ/ ١٩٣٨ م) ج ٣ ص ٢٧٨ .

(١٤٨) محمد عبد الجواد الأصمعى : أبو الفرج الأصبهانى ص ٥٧ .

(١٤٩) ابن جماعة ، بدر الدين : (**تذكرة السامع والمتكلم فى أدب العالم والمتعلم**) . (حيدر أباد ١٣٥٣) ص ٨٨ . ٨٩ .

(١٥٠) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

ويحكى بالمر(١٥١) : أن ابا معاوية العالم الأعمى كان يتغدى مرة مع الرشيد فلما انتهى الغداء فأراد العالم ان يغسل يديه على عادة المسلمين ، قدم له شخص ما الطشت والأبريق وصب عليه ، ولما انتهى العالم الأعمى من غسل يديه شكر ذلك الذى أولاه هذه العناية وصب عليه الماء ، ولكنه اكتشف أن الذى فعل ذلك هو الرشيد نفسه على كثرة خدمه . فقال العالم : يا أمير المؤمنين ، انى أعتقد أنك فعلت هذا تكريما للعلم ، فأجاب الرشيد : هو كذلك .

وقد اهتم الخلفاء والعظماء بمؤدبى اولادهم اهتماما عظيما وارتفعوا بمستواهم الاجتماعى الى درجة تناسب مكانتهم من الأمراء وولاة العهود ، فقد كان على بن الحسن الأحمر (١٩٤ هـ) حينما اختير لتأديب الامين يعيش معه فى حجرة واحدة فى حى متواضع من أحياء بغداد فسرعان ما نقله الرشيد الى مستوى اجتماعى رفيع يصفه محمد بن الجهم : كنا اذا أتينا الأحمر تلقانا الخدم فندخل قصرا من قصور الملوك ويخرج علينا الأحمر وعليه ثياب الملوك(١٥٢) .

ومن سمو مكانة المعلم واحترامه من تلاميذه ما حدث ابن محمد بن اسحاق النديم قال : « قرأت بخط أبى الطيب ابن أخى الشافعى قال : أشرف الرشيد على الكسائى وهو لا يراه فقام الكسائى ليلبس نعله لحاجة يريدها فابتدرها **الأمين** والمأمون ، وكان مؤدبهما فوضعاها بين يديه فقبل رأسيهما وأيديهما ثم اقسم عليهما الا يعاودا فلما جلس الرشيد مجلسه قال : أى الناس أكرم خدما ؟ قالوا : أمين **المؤمنين** أعزه الله ؛ قال : بل الكسائى ، يخدمه الأمين والمأمون . وحدثهم **الحديث** »(١٥٣) . **أما الخليفة المأمون** فيعلل لما أثر عن بعض المعلمين من بلادة وتخلف بالعبارة الآتية : « وكان الكندى أقرب الى **المعتصم بالله** ، فهو مؤدب ابنه ، واليهما كتب كثيرا من رسائله » .

روى **المقريزى** « أن الخليفة المعتضد بالله هو الذى ولى الخلافة سنة ٢٧٩ هـ الى ٢٨٩ هـ/٨٩٢ الى ١٠٩٢ م بنى بجوار قصره فى الشماسية ببغداد دورا ومساكن ومقاصير ورتب فى كل موضع منها رؤساء كل صناعة ومذهب من مذاهب العاوم

---

(١٥١) Palmer, E. : **(Harun Rashid)**. (Marcus Ward, 1881) p.32.

(١٥٢) ياقوت الحموى : معجم الأدباء جـ ٥ ص ١١٠ .

(١٥٣) ابن النديم : الفهرست ص ٦٥ .

النظرية والعملية وأجرى عليهم الأرزاق السنية »[١٥٤] ليقصد كل من اختار علما وصناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه .

وكان المعتضد يطوف يوما فى البستان وهو آخذ بيد ثابت بن قرة اذ جذبها دفعة واحدة وخلاها فقال ثابت : ما بدا يا أمير المؤمنين ؟ فقال المعتضد : كانت يدى فوق يدك والعلم يعلو ولا يعلى عليه[١٥٥] . نصح أحد الخلفاء برسالة هامة جاء فيها : وأعلم أن مواقع العلماء من ملكك مواقع السرج المتألفة والمصابيح المتعلقة وعلى قدر تعاهدك لما تبذل من الضياء وتجلو بنورها صور الأشياء[١٥٦] .

وقيل لاحد اكابر الخلفاء « قد حقق الله لك كل مرغوب ومأرب فهل بقيت لك لذة او بغية لم تنلها ؟ فقال : نعم بقيت لذة واحدة هى أعلى من جميع ما نلته . وأفخم من كل ما باشرته ، بل لم تقرب منها ، فضلا عن أن تساويها لذة من لذات الدنيا ولا مرتبة من مراتب الخلافة العليا ، وهى أن أجلس مجلسا كمجلس مشايخ الحديث فأملى وأشرح وأفيد »[١٥٧] .

وكن أبو الاسود الدؤلى يقول : ليس أعز من العلم ، والملوك حكام على الناس ، والعلماء حكام على الملوك[١٥٨] .

وقال الشاعر :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم

وتعظم فى عين الصغير صغارها
وتصغر فى عين العظيم العظائم

هذه الأمثلة القليلة نماذج لتراث ضخم يتحدث عن قدر العلماء ومكانتهم

---

(١٥٤) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٦٣ .

(١٥٥) ياقوت الحموى : معجم الادباء ج ٦ ص ٣١٠ .

(١٥٦) **مجموعة رسائل بجامعة أسطنبول** ، ورقة ٣٧ ب ، مخطوط .

(١٥٧) ابن حجر : **معجم ابن حجر** (دار الكتب المصرية ، ٢٥ مجاميع م ، ٨ ب) .

(١٥٨) الذهبى ، الامام أبو عبد الله شمس الدين : (**تذكرة الحفاظ**) (دار احياء التراث العربى – بيروت – لبنان ١٣٧٤ هـ) ص ٢٠ .

السامية وهى وسواها تدل بوضوح على المنزلة الرفيعة التى كان ينزلها من نفوس الناس هؤلاء العلماء والمدرسون .

وقبل انشاء المدارس كانت قصور الخلفاء ، ومنازل العلماء ، ودور الكتب والمساجد بمثابة جامعات يحج اليها طلاب العلم من كل أرجاء الأرض ، وجاء وقت كان كل طالب علم يجد معهدا يتعلم فيه ، ومعلما يقوم على تعليمه ، وراتبا يقوم بأوده . وكان الجامع المنصور فى بغداد ، والجامع الأموى فى دمشق ، والجامع الأزهر فى القاهرة وجامع القيروان فى تونس ، وجامع القيروان فى فاس وجامع قرطبة بالأندلس ، والجامع الكبير بصنعاء ، الى جانب بيت الحكمة فى بغداد ودار العلم بالموصل ، ومكتبة ابن سوار بالبصرة ومكتبة ابن الشاطر بالشام ، ودار الحكمة بالقاهرة كانت جميعها بمثابة معاهد للعلم فى أرقى صوره وكانت فى رعاية الخلفاء والحكام(١٥٩) .

وكان من مظاهر النهضة الثقافية والعلمية فى العالم الاسلامى والعناية بوسائلها الحرص على تأسيس المدارس والمكتبات . ولقد بدأ التدريس أول الأمر فى المساجد والجوامع ، كما كان يجرى أحيانا فى بيوت المدرسين الخاصة ثم صار يعد له دور علم خاصة يؤسسها الخلفاء والولاة وكان يطلق عليها اسم بيوت الحكمة أو خزائن الحكمة(١٦٠) وصواوين الحكمة . وكانت هذه أساسا دور كتب وجد فيها أيضا مدرسون وعلماء بالاضافة الى التراجمة والنساخين والمجلدين .

وكانت الشهادة أو الاجازة يمنحها الأستاذ للتلميذ أن يفرغ الطالب من دراسة كتاب أو موضوع يجيز له تدريسه ، ويشرف على ادارة المدرسة ناظر يتولى ادارة شئونها ، ويعاونه المشرف أو المعاون والمسجل أو الكاتب وأمين المكتبة الذى يتولى شئون خزائن الكتب .

فدار الحكمة كان يتردد عليها أفاضل العلماء أمثال محمد بن موسى الخوارزمى الفلكى ويحيى بن أبى منصور المولى الراصد المشهور والبلاذرى (أحمد بن يحيى ابن جابر) مؤلف « فتوح البلدان » الذى يتحدث عن الأحوال الاقتصادية

---

(١٥٩) د٠ عبد الحليم منتصر : (أثر العرب فى النهضة الأوروبية) (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – القاهرة ١٩٧٠ م) ص ٢٠٥ .

(١٦٠) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٨٣ .

والعملة والنقـــود العربية وكتاب « انساب الأشراف » الذى يشرح الأنساب والأعمال التى يقـــوم بها ذوو النفـــوذ والجاه فى عصره(١٦١) .

والمربون المسلمون قـــد عرفـــوا الطريقة الحـــوارية التى ينسبها المربون المحـــدثون الى الفيلسوف اليونانى سقراط ، فطـــوروها وطبعـــوها بطابع دينهم واخلاقهم وبنوا عليها طريقة المناظرة التى تعتبر بحـــق من مميزات التربية الاسلامية ... وكان لاشـــتداد حركة الاعتزال فى عصر المـــأمون وخـــلافها اثرها على المذاهب الأخـــرى(١٦٢) .

وكثر اهتمام العلماء فى مختلف أنحاء الدولة الاسلامية بالرحيل الى المدن الكبرى للاتصال بالعلماء المشهورين للاستفادة من علمهم وفضلهم والسبب فى ذلك « ان الناس ياخـــذون معارفهم تارة علما وتعليما والقاء ، وتاره محاكاة وتلقينا بالمباشرة »(١٦٣) .

ومن العـــوامل الفعالة فى سرعة نضج العلم فى النهضة العباسية أن الخلفـــاء أصحاب تلك النهضة كانوا يبذلون كل مرتخص وغال فى سبيل نقـــل هـــذه الكتب ، ويرغبون النقلة وغيرهم بالبـــذل والكرم بقطع النظر عن مللهم ونحلهم أو انسابهم حتى أن صاحب كشف الظنون يقول : فى هـــذه المناسبة « والحـــق أن أعظم الأسباب فى رواج العلم وكساده رغبـــة الملوك فى كل عصر »(١٦٤) .

وثمة عامل آخر كان لـــه القـــدح المعلى فى نشر العلم والتعليم هو استعمال الورق ، فمما لا شك فيه ان حركة العلم وتدوينه فى العصر العباسى ما كانت تصـــل الى ذلك القـــدر من الرقى لو ظلت أدوات الكتابة على حالتها الأولى من السذاجة أو النـــدرة(١٦٥) . فالتعليم مدين لصـــناعة الورق الـــذى به أثرت الكتب والمكاتب وخزائنها وأصبحت مصدرا عظيما للثقافة فساعدت المتعلمين على ارتشاف مناهل

---

(١٦١) محمد الحسينى عبد العزيز : (**الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية**) ، (وكالة المطبوعات - الكويت ١٩٧٣ م) ص ٦١ .

(١٦٢) د. عمر محمد التومى الشيبانى : (**فلسفة التربية الاسلامية**) (الشركة العربية للنشر والتوزيع - طرابلس - ليبيا ط ١ ، ١٩٧٥ م) ص ٤٤٥ .

(١٦٣) د. عصام الدين عبد الرءوف : **الحواضر الاسلامية الكبرى** ص ٢٤٤ .

(١٦٤) حاجى خليفة : (**كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون**) (طبع دار المعارف التركية ١٩٤١ م) ج ١ ص ٢٩ .

(١٦٥) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢١ .

العلم وربمـــا كان تأثير استعمال الورق فى خلق النهضة العلمية فى الاســـلام مثل تأثير الطباعة فى أوروبا فى أواخر العصور الوسطى .

ان خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل كان لاستنباط الدولة العباسية ووفرة ثروتها ، ورواج تجارتها أثر كبير فى خلق نهضة ثقافية عظيمة كان لهـــا أثرها فى الشرق(١٦٦) .

وكان للمدرسين دور سياسى الى جانب وظيفتهم التعليمية فلم يقتصر المدرسون على ان يكونوا مجرد معلمين مجهزين لموظفين فحسب بل صارت لهم أهميتهم فى مجال السياسة الداخلية والخارجية كما كان يختار منهم فى كثير من الأحيان رجال الدولة والادارة كالولاة وأصحاب الشرطة والوزراء والشعراء وغيرهم كما كانوا بمثـــابة مستشارين للولاة والأمراء . وازداد نفـــوذ المدرسين بفضل سلطانهم الأدبى والروحى فعظمت منزلتهم بين الناس فى حياتهم وبعـــد موتهم ومن ثم استطاعوا أن يوجهـــوا الرأى العام . واستغل الولاة هـــذه المنزلة فعنوا بتقريب المدرسين حتى يضمنوا كسب الرأى العـــام واستقرار الأمور(١٦٧) .

واكتسب العباسيون ثقافة الفرس وتأثروا بمحيطهم وفتحـــوا الأبواب على مصراعيها لنبوغ الأعاجم وما يستدعى الانتباه أن السواد الأعظم من الذين اشتغلوا بالعلم والتعليم كانوا من الموالى(١٦٨) .

وقـــد عقد ابن خلدون فى المقـــدمة فصلا عن أن « حملة العلم فى الاســـلام أكثرهم من العجم »(١٦٩) . ولهـــذا فقـــد غـــدا النـــاس جميعا من الخليفة الى أقـــل أفراد العامة شأنا طلابا للعلم وعلى الأقـــل أنصارا للأدب فكانوا يجوبون ثلاث قارات سعيا وراء موارد العلم والعرفان ثم يعـــودون الى بلادهم كالنحـــل يحملون الشـــهد الى جمـــوع التلاميذ المتلهفين اليه(١٧٠) .

---

(١٦٦) محمد عبد الجـواد الأصمعى : أبو الفرج الأصبهانى ص ٥٦ ، ٥٧ .

(١٦٧) د. حسن الباشا : (**دراسات فى الحضارة الاسلامية**) . (دار المعـــارف بالاسكندرية ـ ١٩٦٨ م) ص ١٠١ .

(١٦٨) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والثقافى والاجتماعى ٢ ص ٢٣٩ .

(١٦٩) ابن خلدون : المقدمة ص ٦٣٦ .

(١٧٠) د. حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى والثقافى ج ٢ ص ٢٤٠ .

وتأثر المسلمون بالعلوم التى نقلت الى اللغـــة العربية فلم تكن تعرف لديهم حتى اخـــذوا فى درسها والاشتغال بها ، وكان اشتغالهم بها فى أول الأمر لا يتعـــدى النظر والتلخيص والشرح حتى كسبوا ملكاتها ونضج تمدنهم وانتشرت العلوم فى البلاد . اخـــذوا يتدبرون كل علم يدرسونه منها ويحققون مسائله بكل ما أوتوا من قـــوة وعقل وصحة وفهم فأصبحت العلوم عمـــدتها النظر والقيـــاس والتحليـــل والتركيب(١٧١) .

(١٧١) د٠ أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون جـ ٤ ص ١٧٤ .

ثانيا ــ رواتب المدرسين فى بيت الحكمة :

لم يكن المدرسون فى صدر الاسلام يأخذون اجرا على تعليمهم حتى اذا امتدت واتسعت الحضارة وبنيت المدارس واوقفت الأوقاف جعل للمدرسين فيها رواتب شهرية معلومة واصبح لهم رواتب تختلف بين الكثرة والقلة بحسب الأمصار والمدارس والأوقاف ولكنها على كل حال كانت كافية ليعيش المدرس عيشة هانئة . فالأجر ضرورى فى نظر القابسى فوجه الضرورة « انه لو اعتمد الناس على التطوع لضاع كثير من الصبيان ولما تعلم القرآن كثير من الناس فتكون هى الضرورة القائدة الى السقوط فى فقدان القرآن من الصدور والداعية الى تثبت أطفال المعلمين على الجهالة »(١٧٢) .

والقابسى ينظر الى الواقع لا يتطلب المثل العليا العسيرة المنال فهو يريد معلما ورعا تقيا مخلصا فى عمله وفى دينه وفى سلوكه يقوم فى التلاميذ مقام الوالد من ولده ويأخذ الصبيان بالشفقة والرحمة والسياسة والحكمة ويبصرهم احوال دينهم ويحفظهم كتاب الله وسنة رسوله حفظا للدين من الضياع ولم يضن القابسى على المعلم فى سبيل ذلك بالأجر لحفظ المعاش وكسب الضروريات للحياة(١٧٣) .

ومما ساعد على نمو الحركة التعليمية وذيوعها وامتدادها الى أبعد الحواضر ما كان من رحلة العلماء بين مشرق العالم الاسلامى ومغربه ، ولا شك أن الأمن الموفور والمستوى المعاشى المرتفع والتشجيع الكبير الذى يظفر به الرحالون من الولاة كان له أثره العظيم فى اشتداد الرحلة الى الأمصار وامتدادها الى بلاد الشام فأرسل المأمون بعثة القسطنطينية لاحضار الكتب ورحلة حنين بن اسحاق الى بلاد الروم ليتمكن من اللغة اليونانية(١٧٤) .

ونرى أن المأمون قد استعان بأفراد كثيرين من غير المسلمين ليخدموا النهضة العلمية وليقوموا على وجه الخصوص بأعمال الترجمة ومن هؤلاء يوحنا ابن ماسويه وجبريل بن بختيشوع وحنين بن اسحاق وغيرهم وكانوا يمنحون أجورا سخية على القيام بهذا العمل . ويذكر البروفسور أمان الله خان فى بحثه

---

(١٧٢) د. أحمد فؤاد الاهوانى : (**التربية فى الاسلام**) . (دار المعارف بمصر ــ القاهرة ١٩٧٥ م) ص ١٨٤ .

(١٧٣) المرجع نفسه ص ١٩٢ .

(١٧٤) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٦٩ .

عن « المـأمون وبيت الحكمة » أن المترجمين والموظفين فى بيت الحكمة كانوا يتقاضون رواتب شهرية ما يعادل تقريبا ٢٥٠٠ روبية باكستانية بالاضافة الى ان المـأمون كان يدفـع مقابل كل كتاب يترجم وزنه ذهبا(١٧٥) .

وقـد قرب الخلفاء اليهم بعض العلماء الذين اشتهروا فى عصرهم واقاموا على تعليم ابنائهم وتأديبهم فأجزلوا لهم العطاء ومن أمثال هـؤلاء : الكسائى على بن حمزة ، وأبو زكريا يحيى بن زياد حظى عند المـأمون وعهد اليه بتعليم ابنيه النحـو وله مؤلفات فى النحو واللغـة(١٧٦) وابن السكيت وأبو يوسف يعقوب بن اسـحاق وكان يؤدب ولـد جعفر المتوكل .

وارتفعت ثقافـة بعض العلماء وتنوعت ، فسجلت أسماؤهم مـع الفقهـاء ومـع العلماء ومـع الندماء وكان البعض يأخـذ أرزاقا فى هـذه الطوائف كلها ، كالزجاج (٣١٠ هـ) فقـد كان لـه رزق فى الندماء ، وفى الفقهاء ، وفى العلماء ، ومبلغ ذلك ٢٠٠ دينار كل شهر(١٧٧) .

وقـد أجرى الخليفة المقتدر على ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ خمسين دينارا فى كل شهر حينما قـدم بغـداد فقيرا(١٧٨) . وعندما أنشئت المدارس وعين المدرسون بها كان هـؤلاء يتناولون مرتبات شهرية منتظمة من الخزانة العامة او من ايراد الأوقاف التى كانت عادة تعين لينفق من ريعها على هـذه المنشآت ، وقـد كانت هـذه المرتبات تختلف باختلاف مكانة المدرس وريع الوقف ، ولكنهـا كانت على العموم أميل الى الجـود والسخاء .

---

(١٧٥) Dr. Amin Allah Khan : **Al-Mamun and his Bayt Al-Hikmat).** p. 8 (1962, **Lahour, Jakistan**).

(١٧٦) ابن خلكان : وفيـات الأعيـان جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(١٧٧) ابن النـديم : الفهرسـت ص ٩٠ .

(١٧٨) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ ١ ص ٣٠٩ .

ثالثا ــ المواد الدراسية التى تدرس فى بيت الحكمة :

ان المدارس الاسلامية فى العصر العباسى أدت دورها البنـاء فى الحفاظ على التراث العربى الاسلامى وتطـوير وازدهار الدراسات الدينية والأدبية والعلمية وقـدمت خـدمات جليلة للثقافة الاسلامية .

ومما لا شك فيه أن المدارس الاسلامية فى أول نشأتها بذلت عنـاية فائقـة فى دراسة العلوم الدينية ، وكان لهـذا الأمر الأثر الكبير فى تطـوير وتعميق المواضيع الدينية فعلوم القرآن الكريم والحـديث والفقه وقـد ساعد على هـذا الأمر تفهم الناس لتلك المواضيع وظهور الدراسات العلمية التى تميزت بالمتانة والوضـوح والجـدية واصالة البحث ثم دخلت المواضيع الأدبية كاللغـة والنحو والصرف والعروض والأخبار والأدب الى المدارس الاسلامية وكانت العنـاية فائقـة بتطوير الدراسـات وبذل مجهودات قيمة من أجـل خـدمة التراث الأدبى العربى وتقـديم البحـوث القيمة فى هـذا المجـال ، كما عنيت المدارس بالعلوم الرياضية وهى تشمل الحساب والجبر والهندسـة والمساحة وبالعلوم العقلية التى تضم المنطق وعلم الكلام وقـد ارتقى مناصب التدريس فى هـذه المواضيع نخبة من علماء العرب بذلوا مجهودات قيمة من أجـل دراسـة تلك العلوم وتوسيع مدارك الطلبة وتقـديم البحـوث القيمة فى مجالات العلم المختلفة ممـا أضاف حصيلة ممتازة فى الميـدان العـلمى(١٧٩) .

والمدارس الاسلامية التى عنيت بالدراسات الدينية والعلمية قامت بتخريج أعـداد كبيرة من الطلبة الذين انتشروا فى العالم الاسلامى وصاروا ينقلون ما تعلموه فى تلك المدارس ، وارتقى العـديد من خريجى تلك المدارس الوظائف السامية فى مختلف الأمصار الاسلامية . وساعدت هـذه المدارس على اشـاعة العلم والمعرفة بين الناس عامة وربط المسلمين برباط الثقافة . وان اتاحـة الفرص للمسلمين القبول فى أى مدرسة فى بغـداد أو البصرة أو القـاهرة أو تونس أو الرباط أو اصفهان كان لـه الاثر المحمود فى توحيد الفكر الاسلامى ، وزيادة الترابط الانسانى ممـا ساعد على اتاحـة الفرص للعراقى أو المصرى أو السورى او المغربى أو الفارسى أو التركى أن يتعارفوا وأن تتمـاس العقول وتحتك الأفكار وتصبر جمعها فى بوتقـة العلم لتبرز أفكارا مدروسة وآراء مجـدية فى حقول العلم والأدب(١٨٠) .

---

(١٧٩) د. حسين أمين : (**المدارس الاسلامية فى العصر العباسى وأثرها فى تطوير التعليم**) . مجلة المؤرخ العربى – بغداد – العراق عـ ٦ ، (١٩٨٠ م) ، ص ٩ ، ١٠ .

(١٨٠) د. حسين أمين : المدارس الاسلامية فى العصر العباسى ، مجلة المؤرخ العربى عـ ٦ ، ص ١٠ .

هـذا على ما أعتقـد من أبرز ما قـدمته تلك المـدارس فى ذلك العصر من خـدمة للانسانية وتراثها الخالـد . كما ساعد ذلك اللقاء بين البلدان المختلفة فى تعرفهم على عادات وتقاليـد بعضهم البعض وانتشار اللغـة العربية التى أصبحت لغـة الدراسة والثقافة ممـا أدى الى الاهتمام بها وتطـويرها وازدهارها . وقـد تغلبت اللغة العربية على ألسن أهـل البـلاد التى دخلت فيها وأصبحت لغة الانشاء والتأليف .

يقول نالينو : « ان وحـدة الدين استوجبت أيضا وحـدة اللسان والحضارة والعمران ، فصار الفرس وأهـل العراق والشام ومصر يدخلون علومهم القـديمة فى التمـدن الاسلامى الجـديد »(١٨١) . كذلك شجع الاشتغال بالترجمة ميل أفراد من الخلفاء فى العصر العباسى الى العلوم الفلسفية ، « والخلفاء عادة أقـدر على الترغيب فيمـا أحبـوه ، والناس أسرع ما يكون الى تحقيق أغراضهم ، والولـوع بمـا أولعـوا به »(١٨٢) .

ويقول ابن صاعـد الأندلسى : « لمـا أفضت الخـلافة الى عبد الله المـأمون طمحت نفسه الفاضلة الى ادراك الحكمة ، وسمت به همته الشريفة الى الاشراف على علوم الفلسفة »(١٨٣) . ويقول صاحب فوات الوفيات : « لمـا كبر المـأمون عنى بعلوم الأوائل ومهر فى الفلسفة »(١٨٤) . ويذكر أوليرى : « أنه لكون المـأمون تلقى ثقافته فى مرو فى محيط الهيلينية المحـدثة طبق القواعـد الفلسفية على العقائد الاسـلامية »(١٨٥) .

وكان يوحنا بن ماسويه الذى جعله المـأمون رئيسا لبيت الحكمة يعقـد مجلسا للنظر ، ويجرى فيها من كل نوع من العلوم كالفلسفة والفلك والطب والرياضيات ، كما كان يدرس فيها ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون وقـد تتلمذ عليه حنين بن اسـحاق فترة من الزمن(١٨٦) .

---

(١٨١) كرلو نالينو : (**تاريخ علم الفلك عند العرب**) . (طبع بمدينة روما ١٩١١ م) ص ١٤١ .
(١٨٢) أحمد أمين : ضـحى الاسـلام ج ٢ ص ٢٦٦ .
(١٨٣) صاعـد الأندلسى : طبقـات الأمم ص ٥٨ .
(١٨٤) الكتبى ، محمد بن شاكر : فـوات الوفيات ج ١ ص ٢٣٩ .
(١٨٥) أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٢٤٣ .
(١٨٦) غريغوريوس بن هارون توما الملطى المعروف بابن العبرى : (**مختصر تاريخ الدول**) . (المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٥٨ م) ص ٢٥٩ .

وقـد بلغ من سرور جبريل بن بختيشوع طبيب المـأمون بحنين واعجـابه بروعة ترجماته أن قـدمه لأبناء موسى الثلاثة ، وقد كانوا من رعاة العلم الأثرياء .

يقول القفطى فيهم « وممن عنى باخراج الكتب من بلاد الروم محمـد وأحمـد والحسن بنو موسى بن شاكر المنجم ، وقـد بذلـوا فى ذلك الرغائب ، وأحضروا الغرائب منها فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب وغيرها »(١٨٧) . فاحتضنه هـؤلاء وكانوا اصحاب الفضل فى اظهار مواهبه كما يجزلون له العطاء وقدموه(١٨٨) بدورهم الى الخليفة المـأمون فعينه عميدا لبيت الحكمة(١٨٩) .

وهكذا نشأ أولاد موسى بن شـاكر الثلاثة فى بيت كلـه علم وجـو مشبع بالمناقشات الكبيرة بين العلمـاء ، وكان يحيى بن أبى منصـور يدير « بيت الحكمة » فى بغـداد ولا غرابة فى أن يصبح أبناء موسى بن شاكر الفلكى من أساطين العلم فى الفلك والهندسة والميكانيكا(١٩٠) .

وقـد انتقل محمد بن جابر بن سنان البتانى الى بغـداد فى شبابه وعمـل فى المراصـد « بدار الحكمة » ببغـداد .. وهكذا كان الى أن قيض لـه أن يصـبح واحـدا من أكبر علماء عصره أو من المعروفين فى عهده(١٩١) .

وهكذا كانت بغـداد فى علو كعبها فى العلم حيث أصبحت القبلة التى توجـه اليها رواد العلم من كل حـدب وصوب فى الدولة الاسلامية التى تحـدثت بذكرها الركبان وأسمعت شهرتها الأصم وطرقت أسماع القاصى والدانى الا وهى : « بيت الحكمة » التى تضم فى اركانها كل ما وصلت اليه الأمة الاسلامية من تفوق حضارى وتقـدم علمى وازدهار ثقافى تمثل فى مختلف العلوم التى كانت تدرس فيها مثل : الفلسفة والفلك والطب والرياضيات واللغات المختلفة كاليونانية والفارسية والهندية الى جانب اللغـة العربية .

---

(١٨٧) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٤ .

(١٨٨) أوليرى : مسالك الثقافة الاغريقية الى العرب ص ٢٤٩ .

(١٨٩) حنين بن اسحاق : (مقدمة العشر مقـالات فى العين) ، تحقيق ماكس مايرهـوف ، القـاهرة ١٩٢٨ م ص ١٦ .

(١٩٠) محمد رجب السامرائى : (علم الفلك عند العرب) . (بغـداد – العراق – دائرة الشئون الثقافية – الموسوعة الصغيرة « ١٣٨ » ١٩٨٤ م) ص ٩٥ .

(١٩١) المرجع نفسـه ، ص ٩٢ .

منهـج التدريس فى بيت الحكمـة :

مرحلة الاعـداد للالتحاق بالدراسة فى بيت الحكمـة	المرحلة العالية أو مرحلة الدراسة داخل بيت الحكمة
١ ـ من سن ٦ الى ١٤ سنة : تتم داخل الكتاب فى منزل الفقيـه (المعلم) أو الحوانيت ، ويتم فيها حفظ القرآن ، اجـادة الكتـابة والقراءة ، ودراسة قواعـد اللغة ، وممارسـة أوليات الحساب . **٢ ـ من سن ١٤ الى ١٨ سنة :** وتتم داخل مدارس المسجد أو الحلقة ويدرس فيها بعض العلوم الدينية من فقه وتفسير وكلام ورواية حـديث ثم معرفة رواية الشعر وسير الاعـلام والأخبار مع التفقه فى اللغـة والأدب والبيان والنقـد .	بعـد انمام المرحلتين السابقتين . يتم فيها التدريس عن طريق نظامين : ١ ـ نظـام المحاضرات . ٢ ـ نظـام الحـوار والمناظرة والمناقشة . يدرس فيها العلوم الفلسفية والطبية والرياضيات والفلك والعـلوم الطبيعية والجغرافيا والموسيقى . المدرس يحاضر فى بعض العلوم العالية فى قاعات كبيرة ، والمعيد يساعد المدرس فيجتمع بفئة من الطلاب ويشرح لهم ما استغلق من المحاضرة ويناقشهم فى مادتها والأستاذ أو الشيخ هـو المرجع الأخير فى موضـوعه . وكان الطلاب ينتقلون من حلقة الى أخـرى يعالجون فى كل منها فرعا من فروع العلم وربما ألحت بهم الرغبة فى الاستزادة من علم ما أرشاقتهم شـهرة أحـد مشاهير المعلمين فانكبوا على دراسـة موضوعه حتى النهاية .

لباس الخريجين أو العلماء	الشهادة التى تمنح لهم
كان لباس الخريجين والعلماء عبارة عن عمامة سوداء وطيلسانا لعله الروب الجامعى اليوم . وكان هذا الزى ضروريا للمدرسين والفقهاء تمييزا لهم عن غيرهم .	اذا كان خريج بيت الحكمة قد أنهى دراسة علم من هذه العلوم السالفة الذكر يمنحه أستاذه اجازة تشهد بانه قد اتقن ذلك العلم ، فاذا كان من المغازين فيه نصت الشهادة على أنه قد أجيز له تدريسه . فحق منح الشهادة ، كان — والحالة هذه — للأستاذ لا للمعهد . اذن الألقاب العلمية لم تكن تمنحها هيئة خاصة بل كان مبعثها تقدير المثقفين . فكان الأستاذ يكتب للخريج أجازة يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه وتاريخ الاجازة . وهذا يشبه الى حد كبير ما استنتها الجامعات الأوروبية التى أنشئت فى أواخر القرن الثانى عشر .

الفصل الثالث : حركة التأليف في بيت الحكمة

١ ــ نشأة حركة التأليف فى بيت الحكمــة ٠

٢ ــ تشجيع حركة التأليف فى بيت الحكمة على يد الخلفاء والوزراء ٠

٣ ــ عمــل المؤلفــين فى بيت الحكمــة ورواتبهم ٠

أولا ــ نشأة حركة التأليف فى بيت الحكمة :

لقــد كان لعمليات النشاط الفكرى المختلفة التى تمت بدايتها فى العصر الأموى ، أن تكون قاعــدة لعمليات ونشاط فكرى أوســع فى العصر العباسى ، والذى عرف بالعصر الذهبى ، والشىء البارز هــو أن حلقات الدرس والتتبع والتأليف والترجمة وتشييد المكتبات العلمية التى كانت على نطاق محــدود نسبيا فى العصر الأموى قد اتسعت وتعــددت فى العصر العباسى وحظيت برعاية الدولة الفائقة . الأهم من ذلك هــو وجود نسبة أكبر من قادة الدولة ورؤسائها ممن كانوا يعنون بالعلم والمعرفة . حيث كانوا ينشئون المكتبات العلمية الواسعة التى بلغ تعــداد كتبها بالملايين بعــد أن كانت فى حــدود الآلاف من قبل . كما أنهم كانوا يحضرون حلقات المناظرة والمناقشة بأنفسهم ، اضافة الى تشجيعهم وتعضيدهم رسميا لكل من يعمل على تنشيط الحركة العلميــة والفــكرية(١٩٢) .

واذا كانت هــذه الظاهرة قــد صــدقت على أبى جعفر المنصــور وهارون الرشيد بصورة ملموسة ، فانها كانت أوسع مدى مــع المــأمون . فلقــد كانت عناية المــأمون للعلم والعلماء ظاهرة بارزة فى عهده . كما عرف بانشائه المكاتب والمدارس العلمية . وعرف بتخصيصه المكافآت الكبيرة لكل الباحثين فى حقول المعرفة المختلفة . كما عرف بأنه كان يجند العلمــاء للترجمة والتأليف وأنه كان يصنفهم حسب حقــولهم ويحضر حلقــات مناقشاتهم . والأكثر من هــذا ان تتبعه دراسته الخاصة قــد أدت به الى أن يجد نفسه قد انتمى الى هذه المدرسة الفكرية دون تلك(١٩٣) .

على كل حال فى أقــل من خمسين عاما من آخر الدولة الأموية الى صدر الدولة العباسية كانت أغلب العلوم قــد دونت ونظمت سواء فى ذلك العلوم النقلية من علوم القرآن والحــديث والفقه وأصــوله ، وعلم اللغــة والأدب على اختلافها والعلوم العقلية من علوم الرياضة والمنطق والفلسفة وعلم الكلام(١٩٤) .

وكان نشاط المسلمين فى ذلك يسترعى الأنظــار ويستخرج العجب وليس هناك من نشاط يشبهه الا نشاط العرب فى فتــوح البلــدان . وقــد نظم العلماء أنفسهم

---

(١٩٢) د. فاضل زكى محمد : (الفكر السياسى والعربى الاسلامى بين ماضيه وحاضره) . (دار الحرية للطباعة ــ بغداد ــ للعراق ط ٢ ١٩٧٦ م) ص ٣١٥ .

(١٩٣) المرجع نفسه ص ٣١٥ .

(١٩٤) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ١٩ .

فرقا كفرق الجيش كل فرقة تغزو الجهل او الفوضى فى ناحيتها تخضعها لنظامها ففرقة للغة وفرقة للحديث وفرقة للنحو وفرقة للكلام ، وفرقة للرياضيات وهكذا ، وهم يتسابقون فى الغزو والانتصار ، وتدوين العلم وتنظيمه تسابق قبائل العرب فى الفتوح والغزوات ، كل قبيلة تود أن تكون السابقة فى الميدان ، ووجد فى ساحة الميدان قواد بارزون يتنافسون فى الابتكار ، فاذا فاز أبو حنيفة بوضع الفقه ثارت حماسة الخليل بن أحمد فيضع العروض ويرسم المنهج لمعجم اللغة ، بل ويريد بعقله الجبار أن يضع « نوعا من الحساب تمضى به الجارية الى البياع فلا يمكنه ظلمها »(١٩٥) .

وهكذا فى سائر الفروع ، وقد ظل المسلمون ، طوال حياتهم يعيشون على هذه الثروة فى هذا العصر ليس لهم فى الغالب من أثر الا الايجاز والاطناب حينا وجمع متفرق وتفريق مجتمع . أما الابتكار فقليل نادر ساعد على هذه الحركة العلمية الواسعة أو قل نتج عن هذه الحركة والميل الى تدوين العلم ونقله من المشافهة الى الكتابة اتساع صناعة الورق(١٩٦) .

ذلك أن للعرب فى تاريخ العلوم مجدا متألقا لا يخبو ، فقد عكفوا على العلم منذ شرح الله صدورهم للاسلام ووجدوا فى طلب العلم عبادة واستجابة لدعوة دينهم ... فاقبلوا على مناهل العلم اقبالا ، وشجعوا العلماء والأدباء تشجيعا جديرا بالثناء ثم ان بعض الخلفاء والأمراء فى العصر الأموى والعباسى كانوا يتباهون بعلمهم وكانوا يقربون العلماء اليهم ويغدقون عليهم ورفعوهم مكانا عاليا فضربوا بهذا أروع مثل فى الشغف بالمعرفة وتقدير رجالها(١٩٧) .

وقد ظهر ابن النديم بكتابه « الفهرست » فى الربع الأخير من هذا القرن حاشدا فيه صنوف المؤلفات فى عصره وما قبله ، وفيها من كتب الفلسفة مقدار يدل على رواجها واتقانها ، وتفرغ العلماء للبحث والتأليف فى هذا العصر تفرغا لم يعهده السابقون . وقد شاع فى هذا العصر اقتناء الكتب وكثرة المكتبات فصار

---

(١٩٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٢٤٥ .

(١٩٦) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٠ .

(١٩٧) د. أحمد الحوفى : (تيارات ثقافية بين العرب والفرس) (دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ الفجالة ـ القاهرة ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م) ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

الملوك والأمراء بعد الخليفة الأمين يفاخرون باقتناء المصنفات ويتسابقون الى شراء نوادرها وفى اواخر هذا القرن أولعت بغداد بالكتب والتأليف(١٩٨) .

واتفق المؤرخون من عرب وافرنج على أن أول طالع سعيد لارتقاء الأمة العربية كان فى القرن الثانى من الهجرة ، حيث سطع نور العلم من بغداد فأنار جميع الآفاق مصر والأندلس ، لانه فى هذا العصر شرع علماء الاسلام فى تدوين الحديث والفقه والتفسير وصنف بن جريح التصانيف بمكة ، وصنف سعيد بن أبى عروبة ، وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأى بالكوفة ، وصنف الأوزاعى بالشام ، وصنف مالك الموطأ بالمدينة وصنف أبو اسحاق المغازى ، وصنف معمر باليمن وصنف سفيان الثورى كتاب الجامع ، ثم بعد يسير صنف هشام كتبه ، وصنف الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ، ثم ابن المبارك والقاضى ابو يوسف ، وابن وهب ، وعيسى بن عمر النحوى ، وكثر تدوين العلم وتبويبه ، ورتبت ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون الكلم عن صحف صحيحة غير مرتبة ، فسهل ولله الحمد تناول العلم(١٩٩) .

اتسع افق الفكر الاسلامى فى عهد السلاجقة اتساعا كبيرا ، فقد كانت ملكات المسلمين فى البحث والتأليف على درجة عظيمة من النضج كنتيجة طبيعية لحركة الترجمة التى نشطت فى الدولة العباسية ، وكثرة تنقل رجال العلم والأدب فى مشارق العالم الاسلامى ومغاربه فى ذلك الوقت للاتصال بحكام الدول التى استقلت عن الخلافة العباسية ، فنشطت الحركة الفكرية ، وراجت الثقافة وزخر بلاط السلاجقة وغيرهم من حكام الدول بالعلماء والأدباء(٢٠٠) .

وكانت المدارس الفكرية لا حصر لها ، وكانت الفنون والعلوم تشجع على الحكمة ، وكان الجو يموج بالشعر وبالمتعة الكاملة فى الفهم ، وكانت حياة بغداد تنطوى على شىء من التسامى ، وفى زمن الرشيد لم تكن المدينة قد بلغت من العمر خمسين عاما ، لكنها اعتبرت مركزا عالميا فى الدرجة الأولى من القدر وكأنها

---

(١٩٨) د. زكى المحاسنى : (**التنبى ، من نوابغ الفكر العربى**) . (دار المعارف بمصر ١٩٧١ م) ص ١٢ ، ١٣ .

(١٩٩) محمد عبد الجواد الأصمعى : أبو الفرج الاصبهانى ص ١١٢ .

(٢٠٠) د. عبد النعيم حسنين : (**سلاجقة ايران والعراق**) . (مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ط ٢ ، ١٣٨٠ هـ/١٩٧٠ م) ص ١٨٧ .

مكان مقدس للفكر ، واذا كانت عظمتها قد نمت فى عصر الامبراطورية ، فانها أصبحت بسرعة المنافسة للامبراطورية البيزنطية(٢٠١) .

فالتاريخ يحدثنا أن خلفاء الدولة العباسية شجعوا العلم على اختلاف ألوانه فأمروا بنقل الفلسفات اليونانية والهندية والفارسية فضلا عن عنايتهم بالعلوم الاسلامية ، وقد اقتفى اثرهم وسار على منوالهم امراء الدويلات الناشئة فى العصر العباسى الثانى وجعلوا من العلم ميدانا للمنافسة وجمعوا العلماء حولهم ، وقربوهم ، حتى ان الباحث ليلمس أن العلوم الكلامية لا الفلسفة كلها قد سارت جنبا الى جنب فى طريق التقدم والنضوج(٢٠٢) .

ومن الناحية الثقافية ظهرت آثار سياسة الانفتاح نحو الشرق فى الحركة العلمية ، فكان العصر العباسى عصر احياء للثقافات الاقليمية وبالذات للثقافات الفارسية القديمة ، وهو العصر الذى بلغت الحياة العلمية فيه أوجها ، ونشطت حركة الترجمة عن اليونانية والهندية والفارسية(٢٠٣) .

وفى هذه البيئة العلمية الصالحة ، وفى هذا الجو العلمى الحافل نشأ عدد من العلماء يقرنون الى أعاظم العلماء فى كل عصر وآن .. وكانت العربية لغة العلم يكتب بها العلماء ، ليقرأها الناس فى أى صقع من اصقاع الوطن الاسلامى الكبير ، وازدهرت حركة الترجمة أيما ازدهار ثم أقبل العلماء على التأليف والكتابة فى مختلف فروع المعرفة العلمية ، نقلوا علوما وابتكروا أخرى ، واضافوا كثيرا من الآراء والنظريات التى نسبت الى غيرهم(٢٠٤) .

وكان مركز الحركة الثقافية قبل تأسيس بغداد فى البصرة والكوفة ثم شيدت بغداد فغلبت على المدينتين . ويقول اليعقوبى(٢٠٥) : « ليس لها نظير فى مشارق

---

(٢٠١) جاك س. ريسلر : الحضارة العربية ص ١١٤ .

(٢٠٢) د. فوقية حسين محمود : (**الجوينى امام الحرمين**) . (الدار المصرية للتأليف والنشر - القاهرة ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م) ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٢٠٣) د. السيد عبد العزيز سالم : (**دراسات فى تاريخ العرب ، العصر العباسى الاول**) . (مؤسسة الشباب الجامعة - الاسكندرية - بدون) ج ٣ ص ٤٩ .

(٢٠٤) د. صالح رمضان محمود : (**أهم المبدعين فى مجالات الفكر والعلم**) . مجلة المؤرخ العربى - بغداد العراق عـ ١٨ (١٩٨١ م) ص ١٦ .

(٢٠٥) **اليعقوبى** ، أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر وهب بن واضح : (**معجم البلدان**) . (بيروت - لبنان - دار صادر ١٩٦٠ م) ص ٢٣٣ .

الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه ، وصحة هواء ، لأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور وانتقل اليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم وهى مع هذا مدينة بنى هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم ... واعتدال الهواء وطيب الثرى وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها ونضرت وجوههم وانفتقت أذهانهم حتى فضلوا الناس فى العلم والفهم والأدب . فليس أعلم من عالمهم ، ولا أروى من روايتهم ، ولا أجدل من متكلمهم ولا احذق من مفتيهم ولا أعرب من نحويهم ولا أصلح من قارئهم ، ولا أمهر من مطببهم ولا أكتب من كاتبهم ، ولا أشعر من شاعرهم .

وكذلك ظهر فى بغداد علماء عنوا بتأليف الكتب واقتناء النفيس منها كمحمد ابن عمر الواقدى الذى خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتب كل قمطر منها حمل رجلين ، وكان له غلامان مملوكان يكتبان له الليل والنهار(٢٠٦) ، وله عدة مصنفات .

ويذكر ابن خلكان(٢٠٧) أن اسحاق بن ابراهيم الموصلى كان عنده الف جزء من لغات العرب . ونشطت الكتب والمباحث الجغرافية منذ هذا التاريخ المبكر ، ومع افتتاح هذا العصر العباسى الثانى يؤلف عبد الله بن خرداذبه الفارسى الأصل كتابه « المسالك والممالك » وهو يصرح فى مطالعه بانه اعتمد فى بيان حدود الارض ومسالكها على كتاب بطليموس ، ومر بنا أنهم كانوا يشجعون بأموالهم والأغداق على الترجمة ، وان كثيرا من الكتب ترجم باسمهم ومن أهمهم بختيشوع(٢٠٨) بن جبرائيل بن بختيشوع ، وبلغ من كثرة ثرائه انه كان يضاهى الخليفة المتوكل فى الزينة والفرش والمأكل والمشرب .

نخلص من ذلك أن النشاط العلمى الزاخر الذى حفلت به بيت الحكمة فى ظل العباسيين كان له دوره فى دفع حركة الفكر الى الامام ، وكانت دعامة هذه الحركة ترجمة الكتب الأجنبية التى استجلبها الخلفاء من بقاع كثيرة وكان السريان بخاصة هم الذين اضطلعوا بالنصيب الوافر من هذا العمل . ولولا التعريب الذى قام به هؤلاء المترجمون لما انتفع أحد بتلك العلوم لعدم معرفة غيرهم ببلاد اليونان . لا جرم كل كتاب لم يعرفه باق على حاله ، ولا ينتفع به الا من عرف تلك اللغة(٢٠٩) .

---

(٢٠٦) ابن النديم : الفهرست ص ١٤٤ .

(٢٠٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ١ ص ٩٢ .

(٢٠٨) ابن القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٠٢ .

(٢٠٩) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٠٩ .

ونراهم ينشئون المدارس والمعاهد العلمية فى كل مكان . ويؤسسون المكتبات فى كل مكان ويبيحون دخولها لكل قاصد ، ويدرسون آراء كبار الفلاسفة القدامى جنبا الى جنب مع دراسة القرآن ، وهذا يلقى جالينوس وأرسطو وأفلاطون وأقليدس وبطليموس وما هم له من التقدير[٢١٠] ولم تكن مهنة الوراقة فى عهد الدولة العباسية تقف عند حد الصفقات التجارية ، وانما كانت تتعدى ذلك الى مهام ثقافية بالغة الأهمية فى ذلك الحين ، اذ كان الوراقون هم الذين ينسخون الكتب ويعرضونها للراغبين فيها . ويتقاضون على ذلك أجرا متواضعا متوسطه دينار عن كل كتاب[٢١١] .

ووصف ابن الجوزى[٢١٢] (٥٩٧ هـ) سوق الوراقين ببغداد فى زمنه بقوله : انها سوق كبيرة وهى مجالس العلماء والشعراء .

---

(٢١٠) سيد أمير على : (**روح الاسلام**) ترجمة محمود أمين الشريف (مكتبة الآداب بالقاهرة ـ ١٩٦٣ م) ج ٢ ص ٢٥٦ .

(٢١١) Ameer -Ali-short History of Saracens, p. 460.

(٢١٢) ابن الجوزى : (**مناقب بغداد**) . (بغداد ١٣٤٢ هـ) نشره محمد بهجت الأثرى ص ٢٦ .

ثانيا ــ تشجيع حركة التاليف فى بيت الحكمة على يد الخلفاء والوزراء :

كان التدوين فى المشرق سائرا فى منهج التقدم فى هذا العصر ، فتعددت اغراضه وموضوعات علومه ، وتنوعت أشكال كتبه من مبسوطات مفصلة ومختصرات مجملة ، ورغب العلماء المصنفون فى الافادة والاستفادة ووجود عدة دول متجاورة متنافسة كل منها تحرص ان تفوق الأخرى فى احراز وسائل القوة وعتاد الملك وترفيه العيش ، ولا يكون ذلك الا بتأثيل الحضارة وتعضيد العلم وأغدق ملوك هذه الدول ووزراؤها على العلماء والأدباء ، وتنافسوا فى ضمهم الى مجالسهم واغراء هؤلاء بتأليفهم الكتب بأسمائهم واستنباط دقائق العلوم لفائدتهم ، فكثرت الكتب والمصنفات التى وضعت فى العصر العباسى الأول فى علوم أخرى اشتقت منها كعلوم الأخلاق ، وآداب السلوك ، وسياسة الملك وقيادة الحرب ، وتعبئة الجيوش ، واستعمال الأسلحة وتدبير المال وتصريف وحدة الكسب فى التجارة وتدبير المنزل ، والبحث فى معرفة اسباب العمران(٢١٣) ، واتسع مجال البحث فى الطب والحساب والجبر والهندسة والكيمياء والطبيعة والفلك والجغرافيا وفن الحيل ، والمنطق وعلم الكلام ، وسائر العلوم الحكمية والدخيلة ، فثبتت أصولها ، وتشعبت فروعها وتعددت المذاهب ، وأصبحت بعيدة الشبه بأصولها اليونانية ، وانصبغت بصبغة الروايات وامتزجت باختلاف طرقها(٢١٤) .

وبازدهار حركة التدوين والتأليف والترجمة فى العصر العباسى ، اتسعت دور المكتبات العلمية ، وحفلت بأنواع مختلفة من الكتب المؤلفة والمترجمة واصبح العلماء يذهبون للاطلاع على هذه الكتب التى كانت الدولة العباسية تحرص على تزويد المكتبات بها ، وكثيرا ما كان الخليفة يرسل البعثات العلمية الى الأمصار المختلفة لشراء الكتب وتزويد المكتبات بها ، وقد فعل الخليفة المأمون ذلك بأن أرسل البعثات الى بلاد الروم للبحث فى خزائنها العلمية الشهيرة عن الكتب الهامة لنقلها الى البلاد الاسلامية وترجمتها(٢١٥) .

وأخذ العلماء المسلمون ينهلون من موارد العلم بمختلف فروعه وفنونه ، فأخذوا يترجمون العلوم وينقلون الى اللغة العربية علوم اليونان والرومان والفرس والهنود ... ترجموا عن الاغريقية والفارسية والقبطية والآرامية والهندسية ونقلت

---

(٢١٣) د. محمد عبد المنعم خفاجى : الآداب العربية فى العصر العباسى الثانى ص ٢٢ .

(٢١٤) المرجع نفسه ص ٢٣ .

(٢١٥) د. محمد فاروق النبهان : مبادىء الثقافة الاسلامية ص ٣٤ .

الوف الكتب من المكتبات القديمة ، وأقيمت دور الكتب والمكتبات ، وفتح الخلفاء والأمراء قصورهم للعلم والعلماء ، وتنافس الخلفاء والحكام فى رعاية العلم والعلماء ، وتسابقوا فى الانفاق فى سخاء عليهم ، وقبل الرشيد الجزية كتبا كما دفع المأمون وزن ما يترجم ذهبا(٢١٦) فما بالك بمن يقوم بالتأليف ؟ .

وكانت حركة التأليف تسير الى جانب حركة الترجمة بدليل أن بعض المترجمين كانوا يزاولون التأليف والترجمة(٢١٧) فى وقت واحد ، وقد عرفنا من قبل أن علماء العرب كانوا مولعين بالعلم لذلك أكبوا على الدراسة والاطلاع فكسبوا الملكة فى العلم والقدرة على التأليف ومن أجل ذلك كانت نهضة أخرى بعد نهضة الترجمة وهى نهضة التأليف فى العلوم وقد وضح ذلك مما قدمناه ، كما ان الذين اشتغلوا بالترجمة والتأليف كانوا من الأطباء وان اعلام التراث العربى كانوا ينبغون فى أكثر من علم واحد(٢١٨) .

ويقول مؤرخ الحضارة الاسلامية فى عهد الخلفاء : « من الحقائق المشهورة أن الخليفة المنصور ، الذى تنسينا مزاياه الخلقية والعقلية بعض النواحى السوداء من طباعه ، كان من أنصار الحركة الفكرية العظيمة التى بدأت اذ ذاك فى العالم الاسلامى فهو الذى أمر بترجمة الكتب العلمية والأدبية من اللغات الأجنبية الى اللغة العربية ، وهو الذى ألم بقدر لا يستهان به من العلوم والرياضيات ولم تكد هذه الكتب المترجمة تنشر حتى أكب الناس على دراستها بشغف ولم يقف خلفاء المنصور عند حد تشجيع العلماء البارزين الذين وفدوا على العاصمة من كل حدب بل كانوا هم أنفسهم أشد الناس اهتماما باكتساب كل فروع المعرفة ، وفى عهدهم سارت الحركة العلمية بخطى حثيثة عند العرب ، وبعبارة أخرى عند مختلف الأمم التى انضوت تحت لواء الخلافة ، وكان لكل أمة من أمم العالم العظيمة عصرها الذهبى . كان عصر أثينا الذهبى هو عصر أغسطس ، وكذلك كان للعالم الاسلامى عصره الذهبى(٢١٩) . كان المنصور سخيا نحو العلماء والأدباء حتى أنه جعل من نفسه

---

(٢١٦) د. صالح رمضان محمود : أهم المبدعين فى مجالات الفكر والعلم ص ٢٦٨ ، مجلة المؤرخ العربى عـ ١٨ ، ١٩٨١ م .

(٢١٧) أبو الفتوح التوانسى : (**من أعلام الطب العربى**) (الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة ١٩٦٦ م) عـ ١٤٤ ص ٢٨ .

(٢١٨) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج **٢ ص ٦١** .

(٢١٩) السيد أمير على : روح الاسلام ج **٢ ص ٢٥٤** .

قـــدوة فى محبة العلوم والآداب[٢٢٠] .

فلقـــد عنى خلفاؤه وعلماؤه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها وكان المنصور أسبقهم الى ذلك حيث استقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جنديسابور من السريان والفرس والهنـــود فترجموا لـــه كتبا فى النجوم والطب ... فنشطت حركة التأليف والترجمة وعظمت صناعة الورق وتبع ذلك ظهور حرفة الوراقين ووجود أمكنة تتخـــذ مباءة للعلماء والأدباء ، يتزودون منها بالعـــــلم ، وكثرت المكتبات وذخرت بالكتب[٢٢١] ، وكان الخليفة المهـــدى للأدب ، مشجعا على التأليف فيه[٢٢٢] وفى حجر المهـــدى نشأ ابن ابراهيم أديبا شاعرا موسيقيا ، ولقـــد شارك فى التأليف فألف كتابا فى الأدب يسماه « ادب ابراهيم » و « كتاب فى الطبخ » وآخر فى الطب ، وكتابا فى الغناء الا أنها كلها لعبت بها يد الزمان فضاعت فيما ضاع[٢٢٣] .

وكان الهادى مثل أبيه محبا للآداب مشجعا للشعراء ، وكان على سنته فى بغض الزنادقـــة وليس من شـــك فى أن هؤلاء الزنادقـــة قـــد تركوا أثرا ملموســـا فى الدين والشعر والأدب ، أما أثرهم فى الدين فقـــد أحـــدثوا معانى جـــديدة فى تفسير لغـــة القرآن ، وساعدوا على نشر مبدأ التأويل واتخـــذوه وسيلة للطعن فى كتاب الله ، كما أنهم نشطوا فى وضع الأحاديث والدس فيها ، ومن ناحية أخرى انتشر بسببهم علم الكلام واشتد الجـــدل بينهم وبين العلماء والفقهاء فكانت حركة غزيرة فى التأليف والمناظرات ، فوضعت كتب كثيرة للرد على الزنادقـــة وأهـــــل الالحـــاد[٢٢٤] .

ثم فترت هـــذه النهضة أيام المهـــدى والهادى حتى قـــواها الرشيد بروح البرامكة ، ونشرها فى مملكته المتسعة ، وضم ايوانه نوابغ العلماء وأخذ على نفسه بأن

---

(٢٢٠) ل. أ. سيديو : (**تاريخ العرب العام**) نقله عادل زعيتر (دار احياء الكتب العربية – مكتبة الحلبى – القاهرة – ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م) ص ١٨٢ .

(٢٢١) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ٢ ص ٦١ .

(٢٢٢) د. أحمد فريد رفاعى : عصر المأمون ج ١ ص ١٠٥ ، ١١٢ .

(٢٢٣) ابن قتيبه ، أبى محمد بن عبد الله بن مسلم : (**المعارف**) ، تحقيق د. ثروت عكاشة – (دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م) ص ٩ .

(٢٢٤) د. زاهية قدورة : (**الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى**) (دار الكتاب اللبنانى – بيروت – لبنان ط ١ ١٩٧٢ م) ص ١٧١ .

الحق بكل جامع جامعة للعلم وان يصطحب مائة من العلماء كلما سافر وكان يجلس العلماء على تباين نحلهم(٢٢٥) ، ثم ينشىء (هارون الرشيد) فى نفسك صورة الخليفة العالم الأديب الفقيه بألوان العلم والدين والأدب ، المشجع للفقهاء والعلماء والشعراء والكتاب تشجيعا أصبح فيه مثلا لمن جاء بعده فى الشرق والغرب(٢٢٦) .

ولقد كانت دولة الرشيد كما يقول الفخرى : « دولة من أحسن الدول وأكثرها وقارا ورونقا وخيرا ، وأوسعها رقعة مملكة ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين ، مثلما اجتمعوا على باب الرشيد وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ، ويرفعه أعلى درجة . وكان فاضلا شاعرا راويا للأخبار والآثار والأشعار صحيح الذوق والتمييز مهيبا عند الخاصة والعامة »(٢٢٧) .

ولهذا كان عصر الرشيد نفسه من أزهى العصور بالنسبة لحياة اللغة العربية والتأليف فيها ويكفى أن نذكر من علماء هذه الفترة أمثال الكسائى والأصمعى والفراء وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى لنتبين صدق ما ذهبت اليه(٢٢٨) .

يقول ابن أبى أصيبعة : « كان يوحنا بن ماسويه مسيحى المذهب سريانيا قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه أمينا على الترجمة(٢٢٩) مما شجع حركة التأليف فى بيت الحكمة . ويقال أنه هو الذى نصح هارون الرشيد بانشاء دار كتب كبيرة وهى تلك الدار التى اتسعت واشتهرت فيما بعد وأصبحت تدعى دار الحكمة(٢٣٠) » أو بيت الحكمة » .

ويمكننا أن نعد من النقلة الذين خدموا الرشيد ومن بعده المأمون الحجاج بن يوسف بن مطر اذ أنه نقل كتاب أقليدس وأصول الهندسة مرتين الأولى

---

(٢٢٥) د. أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربى ص ٣٥٨ .

(٢٢٦) د. أحمد فريد رفاعى . عصر المأمون ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٢٢٧) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢٢٨) د. محمد مصطفى هداره : (اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى) . (دار المعارف بمصر ط ٢ ١٣٨٩ هـ/١٩٦٩ م) ص ٨٦ .

(٢٢٩) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢٣٠) محمد عاطف البرقوقى : الخوارزمى العالم الرياضى الفلكى ص ٧٩ .

زمن هارون الرشيد ويعرف هـذا النقـل بالهارونى نسبة لهـارون الرشيد والثانية زمن المـأمون ويعرف هـذا النقل بالمـأمونى(٢٣١) .

كذلك عهـد الرشيد بالقيام بشئون خزانة الحكمة الى شخص يتقن الفارسية هـو الفضل بن نوبخت أبو سهل وهـو فارسى الأصـل . يذكر عنه القفطى انه مذكور مشهور من أئمـة المتكلمين فى زمن هارون الرشيد حيث ولاه القيام بخزانة كتب الحكمة وكان ينقـل من الفارسى الى العربى ما يجـده من كتب الحكمـة الفارسية ومعـوله فى علمه وكتبه على كتب الفرس(٢٣٢) .

وقـد اتبع المـأمون سياسة والده فى توجيه الغزوات نحـو المدن التى تحوى خزائن عامة للمخطوطات وذلك من أجـل الحصول على تلك الثروة العلميـة التى لا تقـدر بثمن ، ولكنه زاد عليـه زيادة كبرى ، وذلك فى مراسلته ملوك الروم فى القسطنطينية وصقلية وقبرص وطلبه منهم انفاذ ما عندهم من مخطوطات يونانيـة وارساله البعوث المختلفة الى بلاد الروم فى سبيل الحصول على مثل هذه الكتب(٢٣٣) .

وقـد صار التأليف الأصيل فى هـذا العهد جنبا الى جنب مع النقـل والتعريب فقـد زخر العصر بالعلماء والاعلام الذين الفـوا فى مختلف العلوم ، ذلك أن الامام مالك الف كتابه الموطـأ فى مطالع هـذا العصر ، وفى الواقع لقـد شاهد هـذا العصر ازدهار الدراسات الاسلامية ونشوء المذاهب الفقهية وألف الجاحظ كتبه فى الأدب والتى قيل فيها كتب الجاحظ تعلم العقل والأدب ثانيا(٢٣٤) .

شـجع المـأمون التأليف عن طريق بذل المنح السخية وكان هناك عـدد لا حصر لـه من كتب الرياضيات والهندسة والفلسفة والفلك وعلم الارصاد الجـوية وعلم البصريات والميكانيك والطب ... الخ ، كل هـذه العلوم قـد جمعت ويسرت الاطلاع عليهـا لجمهرة القراء(٢٣٥) .

---

(٢٣١) ابن النـديم : الفهرست ص ٣٧١ .

(٢٣٢) القفطى : أخبـار العلماء فى أخبـار الحكماء ص ٢٥٥ .

(٢٣٣) د. محمد ماهر حماده : المكتبات فى الاسـلام ص ٥٩ .

(٢٣٤) المرجـع نفسـه ص ٧١ .

(٢٣٥) جى. دبليو. توسون : (تاريخ المكتبات فى العصر الوسيط) (نيويورك ، شركة هافنز للنشر ١٩٥٧ م) ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

وكان البرازى المتوفى ٩٢٥ م من علماء الفيزياء حيث كتب ما يربو على مئتى كتاب لبيت الحكمة كما أن (ابن أبى الحارث) وهـو من مشاهير مجلدى الكتب عـد كمجلـد للكتب فى هـذه المكتبة . وفى هـذا الجـو العلمى الخلاق والحضـارة الزاهرة والمنيرة قـويت حركة التأليف فى عهد المـأمون حتى أنه تخير المؤلفين ممن كان له أثره فى تنوير أفكاره وتحضير أعماله(٢٣٦) .

ويقول سيديو فى كتابه تاريخ العرب العام « كان المـأمون يعـد سلالة الامم فى العلم ، ولم يرد المـأمون أن يشع نور العلم من جـود ولى الأمر الطارىء ، فجعل شرف الآداب فى حرز من تقلبات الحوادث بمـا حبسه عليها من الوقف الدائم ، وفتحت المدارس من كل ناحية ، فصرت ترى لأول مرة فى تاريخ العالم على ما يحتمل حكومة دينية مستبدة تخالف الفلسفة وتهيىء فـوزها وتشاطرها نصرها »(٢٣٧) ونرى المـأمون يضرب به المثل فى عظم الحركة العلمية فيشير « نولدكه » فى « دائرة المعارف البريطانية » وغيرهم يمثلون المـأمون انوشروان وغيره من خـدمة الانسانية ورسل الثقافة العامة ، والحـق ان المـأمون وعصر المـأمون كانا متقـدمين عن زمانهما ، اذ كانت حالة المـأمون وحال المملـكة المـأمونية فى ذلك الحين — أرقى بمراحـل من حال ملوك أوروبا وممالك أوروبا . ويقول د. خليل طوطح فى رسالته الانكليزية عن حال التعليم عند العرب : « انه بينما كان شارلمـان يتعلم القراءة مكبا على مطالعة رسائله مـع أترابه فى مدرسة القصر كان المـأمون يعالج الفلسفة ومناقشته اقضيتها هنـاك فى بغـداد »(٢٣٨) .

أما المؤلفون النساطرة فعـددهم وفير ومقامهم رفيـع أولهم تلك الأسرة الراسخة فى علم الطب والفلسفة آل بختيشوع من جنديسابور وقـد تناقلوا العلم من جيل الى جيل على مدى ثلاثة قرون تقريبا فى عهد العباسيين مؤسسها جورجيس ابن جبرائيل وابن بختيشوع وحفيده جبرائيل وابن حفيده بختيشوع وحفيد حفيده يوحنا من أبناء هـذه الأسرة جبرائيل بن عبد الله وابنه سعيد عبيد الله كلهم خـدموا الطب والفلسفة والمنطق والديانة النصرانية بما عربوا والفوا . نقل الينا أخبارهم ابن أبى

---

(٢٣٦) د. زاهية قدورة : الشعوبية واثرها الاجتماعى والسياسى ص ٢٢٢ .

(٢٣٧) ل. أ. سيديو : تاريخ للعرب العام ص ١٨٢ .

(٢٣٨) د. خليل طوطح : التربية والتعليم عند العرب ، ص ٦٩ .

اصيبعه[٢٣٩] وأبو الفرج العبرى[٢٤٠] ، والقفطى[٢٤١] من القدماء ، شيخو[٢٤٢] وسليمان صائغ[٢٤٣] وبرغشتراسر[٢٤٤] وماكس مايرهوف[٢٤٥] وبركلمان[٢٤٦] ودائرة المعارف الاسلامية ويوسف غنيمة[٢٤٧] .

هؤلاء هم المؤلفون النساطرة وقد كانوا من نخبة القوم علميا واجتماعيا . وكان حنين بن اسحاق مؤلفا غزير الكتابة غزارته فى الترجمة ، كتب فى مواضيع علمية متنوعة كما وضع ثبتا قيما بكتاب جالينوس المتوفرة فى ترجمات سريانية وعربية وقد نسب (الفهرست) لابن النديم الى حنين تسعة وعشرين وصفا وكان يرى فيه برز مؤسسى العلوم الصحية والعربية[٢٤٨] .

ففى عهد الخلفاء العباسيين الستة الأول وبخاصة عهد المأمون كان المسلمون يحملون لواء الحضارة ، وكانت الأمة العربية الاسلامية أجدر الأمم بأن تكون أستاذ البشرية بفضل عبقريتها المرنة ، وتوسط مركزها بين الأمم مما أتاح لها الانتفاع بكنوز اليونان والرومان وكنوز الهند والصين التى ظلت تغط فى سبات عميق طوال العصور .

وظهر جليا اشتغال العلماء بالتأليف فى ميادين العلم المختلفة ومن بينها التأليف

---

(٢٣٩) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ ١ ص ١٢٣ .

(٢٤٠) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٣ .

(٢٤١) القفطى : تاريخ العلماء بأخبار الحكماء ص ١٠٢ .

(٢٤٢) شيخو : (**معانى الأدب فى حدائق العرب**) ، (**طبعة بيروت – لبنان ١٩٠٠ م**) جـ ٤ ص ٢٩ .

(٢٤٣) سليمان صائغ : (**مقال عن اسرة بختيشوع**) ، مجلة النجم – بغداد – العراق عـ ٤ (١٩٣٢ م ص ٣٧٦) .

(٢٤٤) برغشتراسر : (**حنين بن اسحاق حول ترجمات كتب جالينوس السريانية والعربية**) ، (ليبزج ١٩٢٥ م) ص .

(٢٤٥) ماكس مايرهوف : (**الفلسفة الانسانية الحديثة**) مجلة ايزيس عـ ٨ (١٩٣٥ م) ص ٧١٧ .

(٢٤٦) كارل بروكلمان : (**تاريخ الأدب العربى بالالمانية**) أنظر الفهارس .

(٢٤٧) يوسف غنيمة : (**خزائن كتب العراق العامة فى أيام العباسيين**) مجلة المشرق بغداد – العراق عـ ٨ (١٩١٥ م) ص ١٠٩٧ ، ١١٠٧ .

(٢٤٨) لويس ماسينيوس : (**السياسة الاسلامية المسيحية لكتاب النساطرة**) بالفرنسية (فى مؤلفاته الصغرى – بيروت – لبنان ١٩٦٣ م) ص ٢٥٠ ، ٢٥٧ .

فى علم اللغـــة والأدب وأخبار العرب واشعارهم فتركوا لنـــا ذخائر (مثل الكامل للمبرد ، والبيان والتبيين للجاحظ والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى) قيمة خـــالدة تعكس صـــورا واضحة المعالم من الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية فى ذلك الزمان(٢٤٩) ولم يكن الوزراء بأقـــل شأنا فى تشجيع حركة التاليف فى بيت الحكمـــة حيث أدرك ذلك سهل بن هارون وزير المـــأمون فى قـــوة شخصية الجاحظ وثقافته العميقة والهـــوة التى تفصل بين أسلوبه وأسلوبهم وبيانه وبيانهم ، فقال كلمتـــه التى هزمت أفئدة الديوانيين : ان ثبت الجاحظ فى الديوان أفـــل نجم الكتاب . فبعـــد أن قرأ الجاحظ كثيرا واتسعت آفاق ثقافته ووعى علم العربية بشتى فروعها ومختلف ألوانها . وبعـــد أن أحاط احاطة شاملة بمـــا ترجم عن اليونانية والهندية والفارسية — رأى أن المؤلفين الذين سبقوه الى التدوين والتأليف ليسوا بأكثر منه ولا أبعد منه ذوقا ، ولا أقـــدر وأعمق منه على تناول قضايا الفكر والادب بالبحث والدرس . واخـــذ يؤلف الرسالة تلو الرسالة ، والكتاب تلو الكتاب ، فمـــا فرغ من تأليف كتاب « العباســـة » الذى أهـــداه للمأمون حتى اختاره لتولى ديوان الرسائل فى بغـــداد ، وهـــو منصب خطير لا يتولاه الا الاعلام من ائمـــة الأدب : .. فحز هـــذا الاختيار فى نفـــوس الكثيرين من الأدباء المرموقين ، وأخـــذت دسائسهم تنصب عليه ، فلم يتركوا قـــذيفة من قـــذائف المثالب الا رموه بها(٢٥٠) .

نعم آثر الجاحظ الحياة الحرة المنطلقة على قيود الوظيفة وجـــودها الموبوء . وقـــد فرض على نفسه أن يتفرغ لعالم الفكر بآفاقـــه الواسعة فلا يكاد يفرغ من تأليف كتاب حـــدد له موضوعه حتى يجـــد موضوعات تنتظره وتنسيه مضض بؤســـه وســـواد فقـــره(٢٥١) .

وممن شجع العلم وأكرم العلماء بنو طاهر فى خراسان والسامانيون فى بلاد ما وراء النهر وبنو طاهر فى طبرستان ، ثم بلاد الفرس وبغـــداد أمراء الدولة . وكان عبد الرحمن الصوفى من اشهر علماء الطبيعة فى عصره صـــديقا حميما للأمير البويهى عضـــد الدولة الذى سمى بحـــق أغسطس العرب الثانى ، وأدخـــل عبد الرحمن شيئا من التحسن على قياس الضـــوء ، وكان عضـــد الدولة نفسه رياضيا فأكرم العلماء الذين وفـــدوا على بغـــداد من كل حـــدب وصوب ، واشترك فى مجالسهم العلمية ، وقام جعفر بن الخليفة المكتفى بالله بارصاد خاضعة لحركة المذنبات وألف

(٢٤٩) د. سعد الدين الجيزاوى : دراسات فى الادب العربى ص ٦٧ .

(٢٥٠) سامى الكيالى : (**النفس الانسانية فى أدب الجاحظ**) . (دار المعارف بمصر ١٩٦١ م سلسلة اقرأ) ص ١٦ ، ١٧ .

(٢٥١) المرجع نفسه ص ١٨ .

بحثـا فيها ، كما اشتغل غيره من الأمراء بدراسـة العلوم مـع رعاياهم جنبا الى جنب(٢٥٢) .

وهـذا (أبو العباس احمد بن محمد مروان) السرخسى عرف العباس باسم « احمد بن الطيب » فارسى الأصـل ، وكان من تلاميذ الكندى ويقال انه ينتمى اليه ؛ وكان متفننا فى علوم كثيرة من علوم القـدماء والعرب ، حسن المعرفة جيد القريحة بليغ اللسان ، مليح التصنيف والتأليف(٢٥٣) . مضى عليه زمن كان فيه معلما وصديقا ومستشارا « للمعتضد » ولكن هـذا لم يدم طـويلا وانتهى الأمر بقتل « السرخسى » لأسباب لم نرد الخوض فيها ، وكان ذلك حـوالى (سنة ٢٨٦ هـ/٨٩٩ م) اشـتغل السرخسى بالجبر والحساب والتنجيم والموسيقى وله فى ذلك مؤلفات أهمها « كتاب المدخل الى صناعة النجوم » و« كتاب الاتماطيقى فى الاعداد والجبر والمقابلة »(٢٥٤) ، و « كتاب المدخل الى الموسيقى » وغيرها من الكتب .

وباستقرار الأمر للعباسيين بدأت الحركة العلمية تنمو وتزدهر حيث أصـبحت بغـداد قبلة الوافـدين من أنحاء الدولة الاسلامية فأسست بها دور العلم وعظم شـأن مدينة المنصور بفضل تشجيع الخلفاء والوزراء والقادة حتى ساهم كثير منهم فى تأسيس دور العلم التى أخرجت أعاظم العلماء وفحول الكتاب والمؤلفين الذين كانوا روادالحركة الفكرية فى العصور الوسطى ، كما نشطت حركة الترجمـة عن اليونانية والفارسية وأرست دار الحكمة أو بيت الحكمة وغيرها وأقيمت الندوات فى قصور الرشيد والمـأمون ، كما عقدت حلقات الدرس والمناقشـة والأدب والشـعر والفلسفة والمنطق وغيرها(٢٥٥) .

وللثعالبى(٢٥٦) كلمة فى بنى العباس لم تكن بعيدة عن الصواب ، قال فيها : ان لبنى العباس فاتحـة وواسطة وخاتمة . فالفاتحة المنصور والواسطة المـأمون والخاتمـة المعتضـد ؛ وبعـد الواثق أخـذ الانحطاط يتسرب الى جسم الدولة حتى أتى الخليفة السابع والثلاثون المستعصم لاقت الدولة أجلها المحتوم على أيدى المغـول سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م .

---

(٢٥٢) سيد أمير على : روح الاسلام : ج ٢ ص ٢٦١ .

(٢٥٣) ابن النديم : الفهرست ص ٣٦٦ .

(٢٥٤) صدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ص ١٨٤ .

(٢٥٥) محمد الحسينى عبد العزيز : الحياة العلمية فى الدولة الاسلامية ص ٥٨ .

(٢٥٦) الثعالبى . أبو منصور عبد الملك بن محمد : (لطائف المعارف) (نشر دى يوانغ ، ليدن ١٨٦٧ م) ص ٧١ .

لكن ذلك لن ينسينا ذروة النفـــوذ والسلطان والعمران التى بلغها بنـــو العباس ممثلة فى أيام هارون الرشيد وابنـــه المـــأمون اللذين القيا على ذلك العصر هالة مشرقة من النـــور بحيث أصبح يعتبر أزهى عصور التاريخ الاســـلامى على الاطلاق(٢٥٧) . وكما تجلى لنـــا باستطلاع علاقاتهم فى الدول الأخرى وباستعراض حياة البلاط وبساط الارستقراطية فى العاصمة بغـــداد وبمراجعة النهضة الفكرية فى عصر المـــأمون . هـــذه هى النهضة التى لم تعادلها نهضة أخرى(٢٥٨) .

---

(٢٥٧) د. فيليب حتى : (**تاريخ العرب المطول**) . ترجمة ادوارد جرجى و د. جبرائيل جبور (دار الكشاف ـ بيروت ـ لبنان ـ ط ٤ ، ١٩٦٥ م) جـ ١ ص ٣٦٩ .

(٢٥٨) **المرجع** نفســه جـ ١ ص ٢٧٠ .

ثالثا ــ عمـــل المؤلفين فى بيت الحكمـــة ورواتبهم :

وكان يلحـــق ببيت الحكمة علماء لهم رواتب محددة ، وتنوعت اختصاصاتهم ، ومن بين هـــؤلاء العلماء علماء فلكيون ذلك لأن المـــأمون الحق ببيت الحكمة مرصدا لاصـــــلاح آلات الرصـــد ، وكان عماله بالضرورة من بيت الحكمة ، بل كان بعضهم من خارجـــه(٢٥٩) وصاحب بيت الحكمة يرشـــد على العاملين فيه وعليه أن يرتب الكتب ويعـــد فهارسها ويصنفها ، وضم بيت الحكمة عـــدة طوائف ، طائفة النساخ ، وطائفة المترجمين ، وطائفة المفسرين ، وطائفة المنجمـــين ، وطائفة الكتبة وطائفة المجلدين ، وكان الناسخ ينسخ كل ما يطلب منه نظير أجر ، وعليه أن يرتب لهـــــا اوراق كل نسخة بعـــد جمعها واصلاح ما قـــد يظهر فيها من أخطاء(٢٦٠) .

وحين فرغ الجاحظ من تأليف كتاب « البيان والتبيين » أهـــداه الى قاضى القضاة احمد بن أبى داوود فأعطاه خمسة آلاف دينـــار وحين فرغ من تأليف كتاب « الزرع والنخيل »أهـــداه الى ابراهيم بن العباس الصولى فأعطاه أيضا خمسة آلاف دينار . وقبل تأليف هـــذين الكتابين كان قـــد فرغ من تأليف كتاب « الحيوان » فأهـــداه الى محمد بن عبد الملك الزيات فأعطاه خمسة آلاف دينار . واذا تجلت مواهبه الفـــذة جعل التأليف صناعته ، فما من باب الا ولجـــه باطمئنان وجلى فيه ، وقـــد كثرت كتبه ورسائله حتى بلغت على حـــد بعض الرواة ، ثلاثمائة وخمسين مصنفا لم يصانا منها غير « البيان والتبيين » ــ البخلاء ــ الحيوان ــ المحاسن والاضـــداد(٢٦١) .

وكان بيـــع الكتب وشراؤها ونسخها وتجليدها يشغل حيزا كبيرا من حيـــاة النـــاس الاقتصادية والمعاشية ، فقـــد كان للكتب سوق تبـــاع فيه كما تبـــاع بقية البضائع ، ويقـــع سوق هـــذا بباب بدر ببغـــداد الشرقية(٢٦٢) ، وعرف أبو المعالى سعيد بن على الحظيرى(٢٦٣) ، المتوفى سنة ٥٦٨ هـ بأنه دلال الكتب فى بغـــداد(٢٦٤)

---

(٢٥٩) د. عصام الدين عبد الرءوف : الحواضر الاسلامية الكبرى ص ٢٤٧ .

(٢٦٠) ابن خلـدون : المقدمة ص ٤٢١ .

(٢٦١) سامى الكيالى : النفس الانسانية ، ص ١٩ .

(٢٦٢) الأصفهانى ، عماد الدين أبو عبد الله محمد بن أبى الرجاء : (خريدة القصر وجريدة العصر) . (لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٣٥١ هـ ــ القاهرة) ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٢٦٣) نسبة الى الحظير وهى قرية كبيرة كانت من أعمال بغـداد . من جهة تكريت من ناحيـــة دجيل ــ معجم البلدان ــ الحظيرة .

(٢٦٤) ابن الجـوزى : المنتظم ج ١٠ ص ٢٤ .

وكان معاشـــه من الكتب[٢٦٥] . وقـد اشتهر جماعة بجـودة الخط ، وكان قسم من هؤلاء ممن يحرص الناس أن يحصلوا على كتب بخطوطهم لمـا عرفت به من الدقـة والجمال ، فقـد عرف أبو الحسن على بن عبد الرحيم المعروف بابن القصار اللغوى المتوفى سنة ٥٧٦ هـ بأنه كتب بخطه الكثير من كتب الأدب وشعر العرب ... والناس يتنافسون فى خطـه ويغالون به[٢٦٦] .

وكذلك اشتهر موهوب بن احمد المعروف بابن الجواليقى المتوفى سنة ٥٤٠ هـ بأنه مليح الخط كثير الضبط ، صنف التصانيف وانتشرت عنه وشاع ذكره بخطـه الكثير[٢٦٧] . وكان صـدقة بن ابى الحسين المتوفى سنة ٥٧٣ هـ يعرف بالناسـخ ، لأنه كان يعيش من نسخ الكتب . وكان ما يتقاضاه الخزان العظام فى المستنصرية كابن الساعى وابن الفوطى وهما من كبار مؤرخى العراق لا يزيد عن (عشرة دنانير فى الشهر)[٢٦٨] . وكان على بن عيسى وزير المقتـدر يعطى الطالبيين والعباسـيين وأبنـاء الأنصـار[٢٦٩] .

وكان ابن الفرات يعطى الفقهاء والعلماء والفقراء وأهـل البيوتات أكثرهم مئة دينار فى الشهر وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك[٢٧٠] لهـذا كله كانت كل أنظـار الناس موجهة الى الخلفاء والأمراء . فالعلماء ان أرادوا الغنى لم يجدوه الا فى خدمتهم ، والشعراء ان أرادوا العيش لم يجـدوه الا فى مديحهم . ومن أبرز مظاهر الحركة الثقافية الكبرى فى القرن السادس الهجرى الاقبال على التأليف والتصنيف ، وهـذا الغرام بالكتب والتسابق لاقتنائها وبذل الأموال الطائلة فى سبيل ذلك . فأبو محمـد عبد الله بن أحمد المعروف بابن الخشاب المتوفى سنة ٥٦٧ هـ كان مولعـا بالكتب حتى أنه لم يحث أحـد من أهل العلم وأصحاب الحـديث الا وكان يشترى كتبـه كلها بل انه باع داره ليشترى بثمنها كتبا حين وجـد أن ما معه من نقود لا يكفى[٢٧١] .

---

(٢٦٥) ابن الدبيثى : المختصر المحتاج اليه ج ٢ ص ٨١ .

(٢٦٦) ابن خلكان : وفيـات الأعيـان ج ٣ ص ٢٥ .

(٢٦٧) ابن رجب : ذيل الطبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢٦٨) د. ناجى معروف : المدارس الشرابية ص ٣٥ .

(٢٦٩) الصابى ، أبو الحسين هلال بن المحسن : (تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء) . (مطبعة البابى الحلبى – مصر – القاهرة – بدون) ص ٣٢٣ .

(٢٧٠) ابن خلكان : وفيـات الأعيـان ج ١ ص ٣٧٢ .

(٢٧١) ابن رجب : ذيل طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣١٩ .

وحين عرفت كتب أبى محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩ هـ اشاروا عليه ، أن يبخرها ويصلح ما يمكن منها ، فبخرها بأكثر من ثلاثين رطلا وطلع على رأسه وعينيه ، فأحدث له العمى وكف بصره(٢٧٢) .

لقد خاض عالمنا الكبير (الكندى) حقولا شتى من المعرفة وتناول بالتأليف مواضيع مختلفة فى علوم الكيمياء والطب والحساب والمنطق والأدب والهندسة والسياسة والجدلية وعلمى الفلك والنجوم ووضع الألحان الموسيقية وغير ذلك من البحوث التى تناولت تقلبات الجو والبرد والثلج والضباب والرعد والبرق والصواعق . وكان عالمنا على جانب كبير من الثقافة والفلسفة اليونانية وكان متمكنا منها . وقد احصى ابن النديم مؤلفات ومترجمات الكندى بـ (٢٤١) مؤلفا وقد نشر الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده مجلدين تضمنا خمسا وعشرين رسالة من مصنفاته وسماها بـ (رسائل الكندى الفلسفية) وقد ترجم بعض المستشرقين بعض مؤلفات الكندى الى اللغة اللاتينية والألمانية وغيرها من اللغات الأجنبية(٢٧٣) .

فالكندى واسع الاطلاع متبحر فى فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية ، وهو لم يقف عند حد الاطلاع والتبحر بل انتج وكان منتجا الى أبعد حدود الانتاج ، يدلنا على ذلك مصنفاته العديدة التى وردت فى الفهرست وقد جعلها ابن النديم على سبعة عشر نوعا وهى تزيد على (٢٣٠) كتابا ورسالة : فلقد وضع الكندى : ٢٢ كتابا فى الفلسفة ، ١٩ كتابا فى النجوم ، ١٦ كتابا فى الفلك ، ١٧ كتابا فى الجدل ، ١١ كتابا فى الحساب ، ٢٣ كتابا فى الهندسة ، ٢٢ كتابا فى الطب ، ١٢ كتابا فى الطبيعيات ، ٨ كتب فى الكريات ، ٧ فى الموسيقى ، ٥ فى النفس ، ٥ فى تقدم المعرفة ، ٩ فى المنطق ، ١٠ فى الاحصائيات ، ٤ فى الاحداثيات ، ٨ فى الابعادات(٢٧٤) .

ومن هنا يتجلى لنا خصب قريحة (الكندى) وأنه كان واحد عصره فى معرفة العلوم بأسرها وهى تدل على احاطته بكل أنواع المعارف التى كانت لعهده على اختلافها احاطة تدل على سعة مداركه وقوة عقله وعظيم جهوده . ويرى بعضهم أن مؤلفات الكندى من أهم العوامل التى دفعت الراغبين فى التحصيل الى التلمذة

---

(٢٧٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢٧٣) د.حسين امين (**الفلاسفة المسلمون الأوائل وأثرهم فى التراث الفكرى**) . مجلة المؤرخ العربى – بغداد العراق عـ ٩ (١٩٧٨ م) ص ١٢ ، ١٣ .

(٢٧٤) قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك ص ١٧٤ .